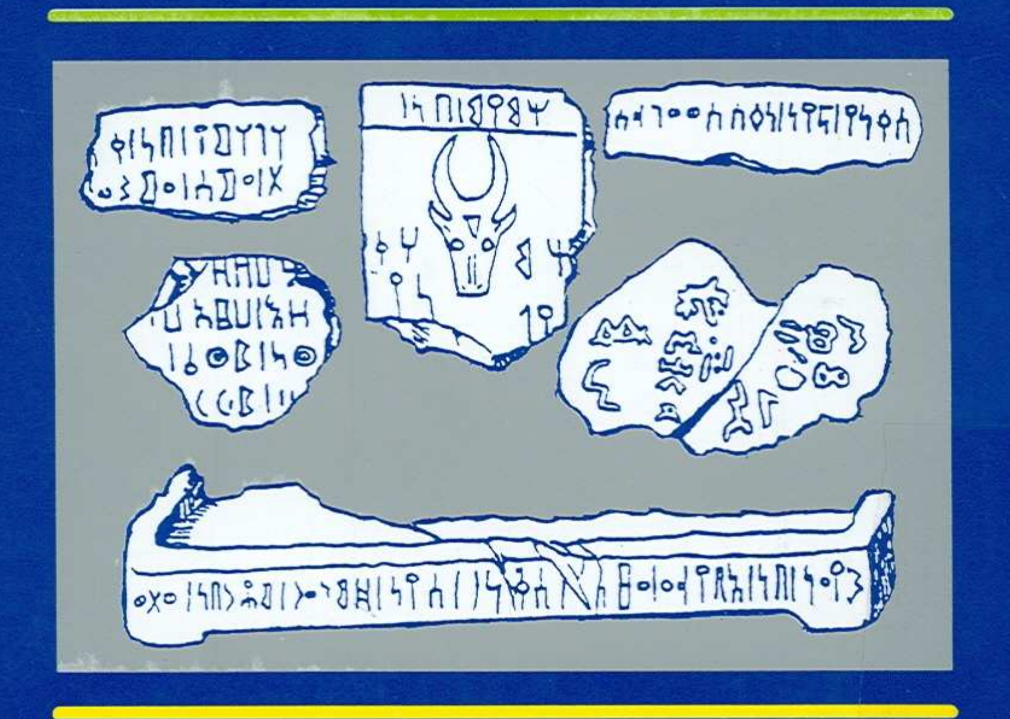
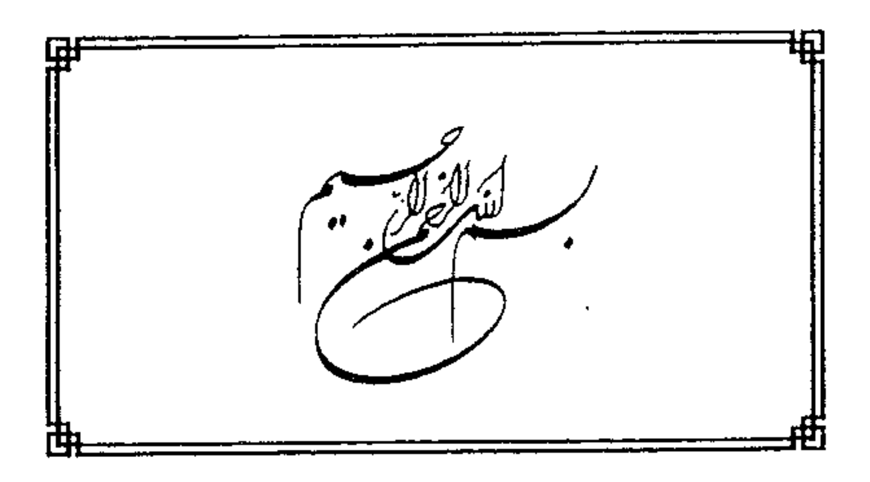
الدكتور غازي مختار طليمات












للدراسات والترجمة والنشر

دمشق - اوتستراد المزة. ص.ب: ١٦٠٣٥

هاتف : ٦٦١٨٠١٣ - ٦٦١٨٩٦١

تلفاكس : ٦٦١٨٨٢٠ - برقياً : طلاسدار

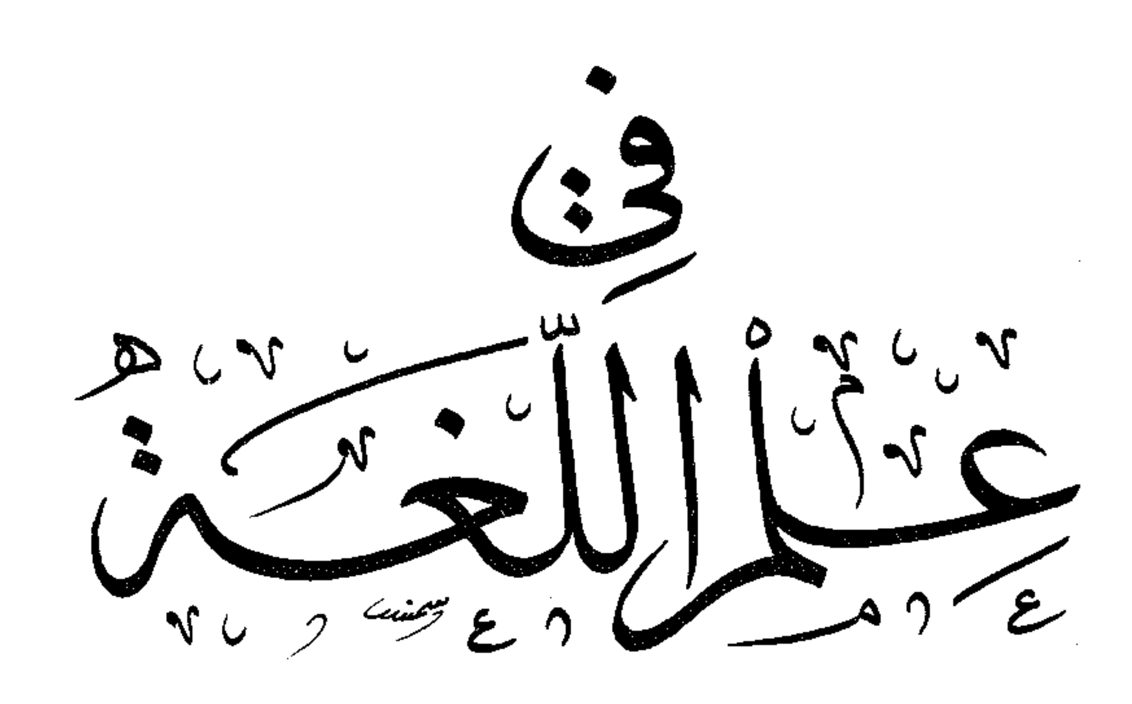
ريع الدار

لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

فيِ
عِلْمِ
اللُّغَةِ

الطبعة الثانية – ٢٠٠٠

الدكتور غازي مختار طليمات



بين يدي الكتاب

لا يدّعي هذا الكتاب أنه أضاف إلى القديم المعروف جديداً غير معروف ، لا يجده القارىء فيما صدر قبلُ من مؤلفات ، كتبها في (علم اللغة) كبار الباحثين من قدماء ومحدثين ، وعرب وأجانب . فمثل هذا الادعاء المتبجج ضرب من الغلوّ الأرعن ، يكشف غروره عن عواره .

وهو في الوقت نفسه لا يسمح للتواضع المسرف أن يبخسه حقه ، فيهوي به من التواضع إلى الضعة ، ولا ينكر على نفسه أنه حاول ـــ وسيان أن يصيب وأن يخطىء فيما حاول ـــ الإفادة من السابقين واللاحقين ، لعله يساور غامضة فيوضحها ، وشاردة فيقربها ، ويخرج من التوضيح والتقريب بجديد مفيد . وقد وقف في محاولته تلك من أعلام العلماء موقف الموفق المتلطف لا موقف الملفق المتكلف ، إذ مضى يوازن ويقارن ، ويحاذر ما استطاع أن يتسرّع بالحكم على العلماء لكيلا يُرمى بالتعصب للعرب على الأجانب . وأخذ على نفسه موثقاً أن يصغي إلى الخليل وسيبويه بالأذن التي يصغي بها إلى ولفنسون ودو سوسير ، وأن ينظر إلى ابن جني وابن فارس بالعين التي ينظر بها إلى بلومفيلد وتشومسكي ، مؤمناً بأن الصواب أحق بالأخذ كائناً من كان صاحبه ، وأن الخطأ أجدر بالنبذ أياً كان الواقع فيه ، مخلصاً للعلم الذي تسمى باسمه وانتسب إليه .

ولما كانت الإحاطة بعلم اللغة الآخذ بالاتساع مطلباً عسير المنال في كتاب تحاصره نفقة الطباعة، ويقصّ جناحي مطامحه إيقاعُ العصر السريع الزاهد في التطويل والتفصيل، الكلف بالاقتصاد في الجهد والوقت فقد آثر الكتاب الاصطفاء على الإحصاء، فتخيّر من المباحث التي يدرسها علم اللغة ما يعتقد أنه أوْلى بالبحث من سواه، وأن ميدان البحث فيه يسع ما قدُمَ وما حدُث، ولا يضيق بالجدال المفضي إلى ترجيح الأصحّ على الصحيح.

عالج الكتاب أربعة مباحث خُيّل إليه أنها أولى بالمعالجة من سواها:

أولها صلة علم اللغة بغيره من العلوم اللغوية والإنسانية.

وثانيها نشأة اللغة وتطورها وانقسامها إلى فصائل، وخصّ بالاهتمام فصيلة اللغات السامية، لأنها الشجرة التي تفرعت منها العربية.

وثالثها المناهج التي انتهجها الدارسون قدماؤهم والمحدثون، وفي هذا الباب حاول الكتاب أن يضع مناهج العرب القديمة في أمكنتها من المناهج القديمة والحديثة التي انتهجها الغربيون.

ورابعها الجوانب أو الموضوعات التي يدرسها علم اللغة وأبرزها أربعة الجوانب التالية:

الجانب الصوتي، وفيه عرض الكتاب دراسة العرب للأصوات: أعضائها ومخارجها وصفاتها. وشفعها بالدراسة اللسانية الحديثة: مصطلحاتها ونظرياتها وتحليلاتها.

والجانب الصرفي، وفي هذا الجانب وضع الكتاب بين يدي القارىء أبرز المصطلحات اللسانية الحديثة، ثم انتقل إلى الصيغ الصرفية، فدرسها، ودرس ما تحمله من معاني الجنس والعدد والتعيين دراسة مقارنة. غير أنه سمح لنفسه أن يخالف عما درج عليه اللسانيون في جعلهم الزمن مقولة صرفية، إذ انتزع الزمن من الصرف، وألحقه بالنحو، أو غرسه في الخط الفاصل بين حقلي

النحو والصرف لإيمانه بأنه آخذ من كل جانب بنصيب .

وفي الجانب النحوي أوْلى الكتاب طرائق اللسانيات في تحليل المركبات الإسنادية اهتمامه الأول ، فعرضها وفق أبرز الاتجاهات اللسانية : الاتجاه الوظيفي ، والاتجاه التوزيعي ، والاتجاه التحويلي .

وفي الجانب الرابع ــ وهو الجانب الدلالي ــ اتجهت الدراسة إلى الكشف عن الصلة بين اللفظ والمعنى ، وإلى وضع الدلالة بين الاشتقاق والسياق ، ثم إلى دراسة الظواهر الدلالية وفق النظريات القديمة والنظريات الحديثة . فتتبّعت عوامل التغير الدلالي وصوره تتبّعاً يدعم الرأي بالدليل ، ويشفع الحكم بالشاهد .

ولم ينس الكتاب في عرضه ما عرض أن يكون واسع الصدر رحب الأفق شامل النظرة ، يقرن لغة العرب بلغات الأجانب . وخص اللغتين الإنكليزية والعبرية بالقدر الأوفى من هذه المقارنة لشيوع الأولى بين العرب ، وقربها من أذهانهم ، ولانتماء الثانية إلى فصيلة اللغات السامية ، وهذا الانتماء وحده يجعل العبرية أجدر اللغات السامية بالدرس المقارن ، لأنها من أشبه الساميات الباقية بالعربية في المفردات والاشتقاق والصيغ والتراكيب .

وإذا كان التعصب للغة القومية حساً يخالط القلب فقد حاول هذا الكتاب أن يتجرد من الهوى ، وأن يخلص للحق ، وأن يجانب الأحكام الموروثة . فإن بلغ ما قصد إليه فالفضل فيه للمنهج العلمي المتبع ، وإن وقع دون القصد فعذره أن الحبّ يعمي ويصم ، وأن صاحب الكتاب قد يكون ، من حيث لا يدري ، مصاباً بما أصيب به ابن جني ، وهو الإعجاب بلغة العرب ، وتحول إعجابه إلى دهشة مذهلة وصفها ابن جني فقال : «إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاف والرقة ما يملك عليَّ جانب الفكر» . فإن استطاع فكر هذا الكتاب، أن ينطلق من إسار العربية ــ وهذا ما يدّعيه ــ فالفضل للباحثين

المحدثين الذين وضعوا قدميه على المنهج العلمي فسار فيه . وإن بقي أسير العربية فعذره العجز عن مغالبة الهيمنة التي تفرضها العربية على عشاقها . لك عليه الإقرار والاعتذار ، وله منك النصح والتسديد .

ألهمنا الله السداد والرشاد في فهم اللغة وإفهامها ، وجنَّبنا الخطل والزلل فيما نقول ونفعل ، وجعل أعمالنا وأقوالنا خالصةً لوجهه .

د . غازي مختار طليمات

الباب الأول

علم اللغة بين العلوم



الفصل الأول

تعريف علم اللغة

أولاً ــ تمهيد

إن فهم كل علم من العلوم قديمها وحديثها مرهون بفهم المصطلحات الحاملة الناقلة لأفكاره. وأَوْلى المصطلحات بالفهم والإفهام عنوانُ العلم الذي يُعدّ وعاء لما يتضمنه من موضوعات أو إطاراً لما فيه من أفكار. ولبلوغ هذا الفهم في ميدان علم اللغة يحسن بنا أن نحدد الدلالة أو الدلالات التي تحملها كل كلمة من هاتين الكلمتين: (علم) (اللغة) قبل الخوض في موضوعات هذا العلم أصولاً وفروعاً.

ولن يتأتّى لنا هذا التحديد على نحو دقيق ما لم نَمِزْ علم اللغة ممّا يقاربه أو يواكبه من علوم أو دراسات، لها ارتباط باللغة على درجات متفاوتة، لكنها ليست من هذا العلم، أو كان يُظن أنها منه، ثم حكم التخصّص الذي يقسم العلم علوماً حُكمهُ الصارم عليها، فماز بعض الدراسات اللغوية من بعض. وهكذا تفرّد (علم اللغة) بمباحث لا يشركه فيها علم آخر.

وأبرز الدراسات التي يمكن أن تقارب علم اللغة أو تشوبه (فقهُ اللغة)، ثم النحو والصرف، وأقلُّها مخالطة له الإملاء والخط. ولمّا كان فقه اللغة أقرب الدراسات اللغوية إلى علم اللغة، وأكثرها مخالطة له، فإننا ــ في سبيل الوصول إلى تعريف دقيق لعلم اللغة ــ نكتفي ههنا بالحديث عن الفرق بين هذين العلمين، ونبدأ بأقدمهما، وهو فقه اللغة.

ثانياً ــ معنى فقه اللغة

«الفِقه بالكسر: العلم بالشيء، والفهم له، والفطنة. وغلب على علم الدين

لشرفه »[١] . و « اللغة أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم »[٢] . ومن الجمع بين القولين ندرك أن مصطلح (فقه اللغة) يعني أن ندرس الكلام دراسة عميقة ترمي إلى فهم اللغة فهماً دقيقاً .

ولك أن تقول : إن تفسير المصطلح على هذا النحو يفتقر إلى الدقة ، أو إلى التحديد الجامع المانع ، لأنه لا يُخرج الصرف والنحو من إطاره . فالصرف يدرس أبنية الكَلِم ، والنحو يدرس علاقة بعضه ببعض ، وكلاهما يرمي من دراسة اللغة إلى فهمها فهماً عميقاً . فلا بدَّ إذن من منهج آخر أقدر من التفسير اللغوي على إفراد علم اللغة ، وتخليصه من شقيقه الذي يعتلقه ، وهو فقه اللغة . والمنهج الآخر هو أن نعود إلى مصطلح فقه اللغة ، ونسأل مبتكره عما درس من اللغة تحت هذا العنوان منذ وضعه ، ثم نتعقّب تطور هذا العلم لنقف على مباحثه في العصر الحاضر ، لننأى بها عن علم اللغة ، ما وجدنا إلى ذلك سبيلا .

ثالثاً ــ موضوعات فقه اللغة

من الثابت أن أول كتاب حمل هذا المصطلح في عنوان مستقلّ هو (الصاحبي في فقه اللغة) لأحمد بن فارس اللغوي [ت : ٣٩٥هـ] ، ثم « سار الثعالبيّ على منوال ابن فارس ، فسمّى كتابه (فقه اللغة وسرّ العربية) ، ثم حاز هذا الاصطلاح قبول علماء اللغة المحدثين ، فأطلقوه على تأليفهم في مختلف ميادين علم اللغة . ويقابل هذا الاصطلاحَ العربيَّ الاصطلاح الفرنسيُّ «Philologie»[٣] .

ومن يستعرض الموضوعات التي عالجها ابن فارس في كتابه الصاحبي يجدها خليطاً من لغة ونحو وبلاغة . وأبرز موضوعاته اللغوية : نشأة اللغة ، واختلاف اللغات ، وأثر الإسلام في تطور اللغة العربية ، والاحتجاج باللغة . ولك أن تستنبط من إقحام النحو والبلاغة في فقه اللغة أن ابن فارس نفسه ــ وهو مبتكر المصطلح ــ لم يكن واضح التصوّر للمباحث التي ينطوي عليها العلم الجديد . وليس في غموض التصور ما يضيره ، لأن كل علم وليد يبدأ مضغة ، ثم يكون علقة ، ثم يتطور كما يتطور الكائن الحيّ ، حتى يتمثل خَلْقاً سويّاً .

---

(١) القاموس المحيط للفيروزابادي [فقه] .

(٢) الخصائص لابن جني ١/٣٣ تح محمد علي النجار القاهرة ١٩٥٢م .

(٣) مقدمة الصاحبي في فقه اللغة تح د . مصطفى الشويمي ص١٨ . والثعالبي المذكور ههنا هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، صاحب يتيمة الدهر .

ولم يتمثل فقه اللغة خلقاً سوياً إلا بعد ألف سنة من ظهور الصاحبيّ ، حينما خصّه الدارسون المحدثون بموضوعات متميزة ، وجعلوه عنواناً أو بعضاً من عنوانات كتبهم ، ودرسوا في هذه الكتب[٤] نشأة اللغة العربية ، وصلتها باللغات السامية الأخرى ، وأصواتها ، وألفاظها ، ودلالات الألفاظ ، وخصائص العربية ، ولهجاتها ، وتعريبها للأعجمي الدخيل ، وتطورها العصري المواكب لتطور الحضارة الحديثة ، وما أثاره خصوم العربية من مشكلات تتصل بخطها وإملائها وتعليمها وقدرتها على تمثل الحضارة المتجدّدة باستمرار .

مما سبق يتبين لنا أن (فقه اللغة) علم عربي خالص ، عربي النشأة والتطور ، عربي المصطلح ، عربي المباحث والباحثين ، وأن مقصده الأول دراسة اللغة العربية خاصة ، لا دراسة اللغات عامة . ومن يستعرض الدراسات الحديثة في فقه اللغة لا يجد فيها إلا شذرات قليلة من اللغات الأجنبية ، ساقها الباحثون المحدثون على سبيل المقارنة المستأنسة ، لا على سبيل البحث عن الفروق الجوهرية . واستقلالُ (فقه اللغة) بجوهره العربي غيرُ مستغرب ، لأن الدراسات الغربية في هذا الميدان تأخرت عدة قرون عن الدراسات العربية . فقد حددت الموسوعة النموذجية الحديثة زمن ظهور المصطلح الأجنبي Philology المقابل للمصطلح العربي فقه اللغة ، فقالت : « في القرن الثامن عشر سُميت الدراسة العلمية للغة فيلولوجيا . وهذا الاسم مقتبس من اليونانية ، ومعناه فيها : حبُّ الكلام »[٥] .

رابعاً ـــ علم اللغة : معناه وسماته وأبعاده

أما مصطلح علم اللغة Linguistics ـــ وتعريفه غاية هذا الفصل ـــ فهو غربيُّ النشأة ، غربي البحوث والباحثين . عرّفته دائرة المعارف البريطانية ، وحددت زمان ظهوره ، فقالت : « هو الدراسة العلمية للغة ، وهذه الكلمة استعملت في أواسط القرن التاسع عشر »[٦] . وهذا التعريف نفسه ورد في الموسوعة الأمريكية[٧] ، حتى كأن إحدى الموسوعتين قبسته من الأخرى .

---

(٤) أبرز الكتب في هذا المضمار : ١ ـــ فقه اللغة وخصائص العربية لأستاذنا محمد المبارك ٢ ـــ فقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ٣ ـــ فقه اللغة المقارن لإبراهيم السامرائي ٤ ـــ فصول في فقه العربية للدكتور رمضان عبد التواب ٥ ـــ دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح ٦ ـــ الوجيز في فقه اللغة لمحمد الأنطاكي ٧ ـــ فقه اللغة للدكتور حاتم الضامن ٨ ـــ فقه اللغة العربية لمحمد الباكير البرازي .

(٥) New Standard Encyclopedia Book 10 Page 467 Chicago.

(٦) Britannica book 23 page 40 Chicago.

(٧) Encyclopedia Americana book 17 page 525 Copyright 1991.

ولما كان علم اللغة Linguistics غربيَّ المنبت ، فإنه لا بدّ من الاعتماد في تعريفه وتفسير تعريفه على مبتكري هذا العلم وواضعي مصطلحه من الأجانب . غير أن التعريف الذي قبسناه من الموسوعات السابقة لا يفي بالغرض ، إذ يمكن تعميمه وتطبيقه على (فقه اللغة) . والدليل على هذا الإمكان أن الموسوعة النموذجية الحديثة نفسها عرّفت فقه اللغة ، ثم قالت : « وفي القرن العشرين سميت هذه الدراسة نفسها Linguistics »(٨) ، فوقعت في اللبس ، وأوقعتنا فيه ، إذْ جعلت علم اللغة استمراراً لفقه اللغة .

وحاول العالم اللغوي لومل Lommel إزالة اللبس ، ولكنه لم يبلغ الغاية ، إذ ألحق علم اللغة بفقه اللغة ، وجعله أداة علمية من أدواته ، وفرعاً مستقلاً من فروعه ، فقال : « إن علم اللغة من أهمّ الوسائل المساعدة للدراسات الفيلولوجية من جانب ، ومن جانب آخر فإنه علم قائم بذاته ، له وظيفة معينة ، وطرق وميادين معروفة . ولا يستغني علم اللغة عن الفيلولوجيا ، لأن أهمّ مصادره هي النصوص اللغوية ، والعلاقة وثيقة بين العلمين إلى درجة أن الاستعمال الشائع للكلمتين لا يكاد يفرق بينهما »(٩) .

لكن هذه المحاولة لم تزل اللبس كله ، إذ أبقت علم اللغة متصلاً بفقه اللغة بعض الاتصال ، كما يتصل الجنين برحم أمه يمتصّ منها نسغ الحياة . وفصلته عنه بعض الفصل ، إذ جعلته علماً قائماً بذاته ، متميزاً بسماته وقسماته ، كما يتميز الوليد من والدته بملامح تحدد شخصيته ، وتنزعه من شرك العناصر الوراثية التي تشده إلى أمه .

ولإزالة هذا المقدار من اللبس اضطلع باحثون آخرون بالتبعة ، ورأوا أن الفصل بين فقه اللغة وعلم اللغة يكمن في التحديد الدقيق لمعنى (علم) الذي يتسمّى به الفرع الجديد من فروع الدراسات اللغوية ، ثم في التحديد الأدقّ للمباحث التي تخصص بدرسها هذا الفرع . إن التمييز بينهما منوط بالمعنى الدقيق لكلمة (علم) ، أيُراد بها الدلالة المعرفية النظرية العامة أم الدلالة التجريبية الخاصة ؟

من ذهبَ بكلمة (علم) إلى التعميم أي : أراد بها ما يُراد من دراسة المسائل والقواعد والأصول الكلية التي يجمعها إطار معرفي واحد كعلم المنطق ، وعلم الصرف ، وعلم الفلك فهو مضطر إلى أن يجعل علم اللغة قريباً في طبيعته وموضوعاته ومنهجه من فقه اللغة .

ومن ذهب بالكلمة إلى التخصيص ، فاقترب بعلم اللغة من العلوم التجريبية المتخصّصة كعلم الحيوان ، وعلم النبات ، وعلم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم

---

(٨) New Standard Encyclopedia book 10 page 461 Chicago.

(٩) فصول في فقه العربية د . رمضان عبد التواب ص١٠ مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٠م .

الفيزياء كان عليه قبل حشره علم اللغة في زمرة العلوم Sciences أن يخطو بعلم اللغة خطوتين :
خطوة متقهقرة ، تخلص علم اللغة مما يشوبه من المفاهيم المجردة العامة ، وتخرج الدراسات اللغوية من حيّز الفلسفة .

وخطوة متقدمة ، تدخل هذه الدراسات في ميدان الملاحظة والتجربة .

وبعد أن يخطو هاتين الخطوتين يشفع مذهبه بالأدلة الكافية ، وبالوسائل العلمية المخبرية في البحث على نحو يشبه أو يقارب ما نلقاه في ميدان العلوم التجريبية . فهل خطا علم اللغة هاتين الخطوتين ؟

لقد خطا علم اللغة الخطوة الأولى ، إذ تراجع عن الخوض في المسائل الغيبية كالحديث عن الأصل التوقيفي للغة ، ثم بدأ يخطو الخطوة الثانية بإيثاره البحوث الحسية ، وباستخدامه الأدوات التي يستخدمها علماء الفيزياء ، فأدخل المخابر والأجهزة الالكترونية المعقّدة في دراسة الأصوات ، كما استعان بالوسائل والأدوات التي يستخدمها علماء التشريح والفسيولوجيا في دراسة أعضاء النطق عند الإنسان من الشفتين والأسنان إلى اللسان فالحنجرة ، وراح يقسم على ضوئها لغات البشر إلى فصائل ، ويقسم البشر أنفسهم إلى مجموعات على أساس لغوي . وشرع يفسّر الظواهر اللغوية تفسيراً حسيّاً مستنداً إلى الملاحظة والاستقراء ، وممعناً في الاستقصاء والإحصاء ، وبدأ يضع القوانين التي تلخص هذه الملاحظات المحسوسة الملموسة غير متأثر بالآراء الموروثة .

وإذا كان فقه اللغة يدرس الفصحى القديمة المحفوظة في المعجمات ، وكتب الأدب ودواوين الشعر ، والفصحى الحديثة المتداولة في الجامعات والصحف ، ويترفّع عن دراسة اللهجات العامية فإن الاتجاه العلمي الذي التزمه علم اللغة يحمله على دراسة اللغات في واقعها المعيش إلى جانب دراستها في ماضيها المنقول إلينا ، سواء أكنا نأخذ بهذا الماضي أم ننبذه .

نستنبط من ذلك كله أن علم اللغة يدرس اللغة في إطاريها العاميّ والفصيح ، ولهذا يتوفّر على دراسة اللهجات العامية مندفعاً إليها بروح البحث المجرّد من المعايير القديمة ، وغير المجرّد من النفع . ومن هذا القبيل القول المنسوب إلى عباس محمود العقاد : « من أغراض المجمع اللغوي دراسة اللهجات العامية في مصر وسائر الأقطار العربية . ونحسب أنه من أنفع أغراض المجمع في خدمة اللغة الفصحى »(١٠) .

---

(١٠) علم اللغة وفقه اللغة للدكتور عبد العزيز مطر ص١٩ قطر ١٩٨٥م . نقلاً عن مجلة مجمع اللغة العربية ١٠٧/١٠ . ولمناقشة هذا الرأي انظر بحثنا (دراسة اللهجات العامية جاهلية ترتدي رداء العلم) المنشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي . العدد الخامس ص١٨٩ وما بعدها .

وأدقُّ من قول العقاد وأبعد عن الشبهة قول الدكتور رمضان عبد التواب الذي اقتبسه من دو سوسير: «موضوع علم اللغة هو كل النشاط اللغوي للإنسان في الماضي والحاضر. ويستوي في هذا الإنسانُ البدائيّ والمتحضر، واللغات الحية والميتة، والقديمة والحديثة، دون اعتبار لصحة أو لحن، وجودة أو رداءة»[١١].

نخلص مما عرضنا إلى أن علم اللغة يتميز بسمات تجعله علماً متخصّصاً، أو أقرب إلى العلم المتخصص من فقه اللغة. وأبرز هذه السمات: طريقتُه الاستقرائية الحسية في دراسة اللغة دراسةً وصفية حية لواقعها المعيش، واستنباطُه القواعد والقوانين من ملاحظاته الاستقرائية الإحصائية، واعتمادُه — وخاصة في دراسة الأصوات — على الآلات والأجهزة الحديثة.

وإذا كان لك أن تلخص ذلك كله بتعريف مقبول، يتجاوز الإيجاز المخل الذي وجدته فيما نقلنا من الموسوعات الأجنبية، ويرسم لعلم اللغة حدّه وحدوده، ويقفك على موضوعاته وغاياته فقل: «علم اللغة هو العلم الذي يدرس اللغة أو اللهجة دراسة موضوعية، غرضُها الكشف عن خصائصها، وعن القوانين اللغوية التي تسير عليها ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والاشتقاقية والكشف عن العلاقات التي تربط هذه الظواهر بعضها ببعض، وتربطها بالظواهر النفسية، وبالمجتمع وبالبيئة الجغرافية»[١٢].

وقبل أن نتقبل هذا التعريف تقبلنا للحقائق العلمية الثابتة يحسن بنا أن نشير إلى أنه تعريف مرحلي لانهائي، وإلى أن صحته نسبية لا مطلقة، لأنه يلخص حلقة من سلسلة لم تكتمل، أو يمثل مرحلة من دراسات لغوية لم تزل مستمرة. «ومع هذا السيل الذي لا ينقطع من البحوث لم يصل علماء اللغة إلى حدود متفق عليها، حدود فاصلة لموضوعه، أو تعريفات قاطعة لمصطلحاته»[١٣]. غير أننا مضطرون إلى الأخذ بالتعريف الذي تخيرناه، لنضع على أقل تقدير إحدى القدمين على أرض ثابتة قبل أن نخطو بالقدم الأخرى خطوة أخرى في طريق البحث.

---

(١١) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي للدكتور رمضان عبد التواب ص٧ مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٥م.

(١٢) علم اللغة وفقه اللغة ١٨ — ١٩.

(١٣) مدخل إلى علم اللغة للدكتور محمد حسن عبد العزيز ص٢٣ جامعة القاهرة ١٩٨٣م.

وبعدُ

فإذا كان التعريف القريب من الدقة يجعل علم اللغة مقيَّداً بقيود تخصصه، محدّداً بحدود تمنع العلوم الأخرى من مشاركته فيما تفرّد به من بحوث، فهل يعني هذا التعريف أن علم اللغة متفرد منعزل، لا صلة له بغيره من العلوم. سواء أكانت لغوية أم غير لغوية؟

تفسير هذا السؤال والإجابة عنه موضوع الفصل التالي.



الفصل الثاني

علم اللغة والعلوم الأخرى

قصد الفصل السابق من تعريفه (علم اللغة) إلى تمييز هذا العلم الحديث من العلوم اللغوية القديمة، ووجّه القدر الأكبر من اهتمامه إلى تمييزه من أخيه الشقيق (فقه اللغة).

ويقصد هذا الفصل إلى وصله بعلوم أخرى غير لغوية تؤثر فيه، أو تتأثر به. قال دو سوسير: «إن علم اللغة يرتبط بقوة بالعلوم الأخرى، يستعير من معطياتها أحياناً، كما يزوّدها بالمعطيات أحياناً أخرى»[1]. وليس بين مقصدي هذا الفصل والفصل السابق من تناقض، فأنت تميز شجرة البرتقال من شجرة الليمون، وكلتاهما من أسرة واحدة، وتحرص في الوقت نفسه على أن تعرف ما يؤثر في شجرة البرتقال من تربة ورطوبة وحرارة تعمل عملها في تغذيتها وتنميتها حتى تزدهر، وتؤتي أكلها.

إن العلوم التي تؤثر في علم اللغة أو تقارضه التأثير كثيرة، أبرزها: علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا)، وعلم الطبيعة (الفيزياء)، والمعارف الجغرافية المتصلة بتوزع اللغات في بقاع الأرض.

أولاً ــ علم اللغة وعلم الاجتماع

يلتقي الباحثون القدماء والمحدثون الحريصون على ربط علم اللغة بعلم الاجتماع في ملتقى واحد، وهو الاعتقاد القاطع بأن اللغة ظاهرة اجتماعية لا فردية. «إن وجود اللغة

---

(١) فصول في علم اللغة لفردينان دو سوسير ص٢٦ ترجمة د. أحمد نعيم الكراعين. دار المعارف الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥م.

يشترط وجود مجتمع ، وهنا يتضح الطابع الاجتماعي للغة ، فليس هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلاً عن جماعة إنسانية تستخدمه ، وتتعامل به »[٢] .

ويحسن بنا قبل الخوض في الحديث عن صلة اللغة بالمجتمع ، أو عن علاقة علم اللغة بعلم الاجتماع أن نضع بين يدي البحث تعريف علم اللغة الاجتماعي كما صاغه المتخصصون . عرفه د . هدسون ، فقال : « إنه دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع »[٣] . ومع أن الغربيين لم يبرعوا في هذه الدراسات إلا منذ أمد قريب ، فإن علماء العرب تركوا لنا في هذا المضمار تراثاً قيّماً ، يدلّ على سبقهم من ناحية ، وعلى سعة أفقهم في الدراسات اللغوية من ناحية أخرى .

وإذا كان أبو الفتح عثمان بن جني [ت : ٣٩٢هـ] قد قال : « إن اللغة أصوات يعبر بها كلُّ قوم عن أغراضهم »[٤] فإنه بهذا التعريف الوجيز أجمل قبل ألف سنة ما فصله علماء الغرب في العصر الحديث ، إذ كشف بكلمتين اثنتين القناع عن الوجه الاجتماعي للغة ، فالقوم المجتمع ، والأغراض أفكار المجتمع ومشاعره . وفحوى كلامه أن اللغة ظاهرة اجتماعية لا ظاهرة فردية ، لأن الإنسان لا يستخدمها ليترجم أفكاره ومشاعره لنفسه ، بل لمن حوله من بني جنسه ، أي للمجتمع .

ولم يضف فندريس جديداً إلى تليد حينما قال : « في أحضان المجتمع تكونت اللغة ، ووجدت يوم أحسّ الناس بالحاجة إلى التفاهم »[٥] . ولم يزد (ماريوباي) على كلمة أبي الفتح إلا لفظة (علم) وشيئاً من البسط والتمديد لما تقبّض وتكثف في عبارة ابن جني . قال ماريوباي : « إن اللغة لها علاقة وثيقة بعلم الإنسان وعلم الاجتماع باعتبارها نتاج علاقة اجتماعية »[٦] . ورأى جان بياجيه « أن اللغة مؤسسة اجتماعية تحكمها نواميس مفروضة على الأفراد »[٧] . وربما كان دركهايم أسبق الباحثين الغربيين إلى هذا المذهب ، وعنه أخذ اللاحقون ، لكنهم أسرفوا فيما اعتدل فيه ، ومنهم دو سوسير السويسري الأصل .

ولم يخالف عدد من الباحثين المحدثين من العرب عن هذا الاتجاه الاجتماعي في دراسة

---

(٢) مدخل إلى علم اللغة د . محمود فهمي حجازي ص١٢ القاهرة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

(٣) علم اللغة الاجتماعي للدكتور هدسون ص١٢ ترجمة د . محمود عياد . عالم الكتب القاهرة ١٩٩٠م .

(٤) الخصائص لابن جني ١/٣٣ .

(٥) اللغة لفندريس ص٣٥ .

(٦) أسس علم اللغة لماريوباي ص٤٢ ترجمة د . أحمد مختار عمر . جامعة طرابلس ١٩٧٣م .

(٧) اللسانيات وأسسها المعرفية للدكتور عبد السلام المسدي ص١٦١ الدار التونسية للنشر ١٩٨٦م .

اللغة ، بل اختاروه ، وجمعوا في دراستهم بين اللغة وعلوم الاجتماع ، « فدلّ اختيارهم على إدراك أن اللغة وتلك العلوم تتشارك في إظهار العلاقات الشخصية والثقافية والاجتماعية »(٨) .

ولما كان كل علم جديد في حاجة إلى تحديد ، فقد خشي الباحثون العرب ــ وهم يخوضون غمار هذا العلم ــ أن يقحموا فيه ما ليس منه ، ولذلك حرصوا على تعريفه ليضعوا له حدّه ، وليرسموا حوله حدوده . قال الدكتور كمال بشر : « وليس المقصود بهذا العلم أنه (تركيبة) أو (توليفة) من علم اللغة وعلم الاجتماع ، أو أنه مزج لهما ، أو تجميع لقضاياهما ومسائلهما ، إنه يعني باختصار شديد ذلك العلم الذي يدرس اللغة في علاقاتها بالمجتمع . إنه ينتظم كل جوانب بنية اللغة ، وطرائق استعمالها التي ترتبط بوظائفها الاجتماعية والثقافية »(٩) .

وسواء أأسرف أصحاب علم اللغة الاجتماعي من الأجانب والعرب في ربط هذا العلم بالمجتمع أم اعتدلوا فهم جميعاً متفقون على دراسة هذا الارتباط . « ويسوّغ ظهور هذه الدراسة أن المشكلات اللغوية والاجتماعية مترابطة ترابطاً وثيقاً ، حتى إن علم اللغة ذاته قد اعتبر أحياناً من العلوم الاجتماعية »(١٠) .

ومن ينظر في هذا الفرع من الدراسة يجده متوازناً ، لأن جانباً منه غلّب المجتمع على اللغة ، وجانباً آخر غلّب اللغة على المجتمع ، فنجم التوازن ، وخرج الباحثون المختلفون بثمرة واحدة ، هي أن اللغة والمجتمع يتقارضان التأثر والتأثير تقارضاً جدليّاً .

فالذين غلّبوا اللغة على المجتمع وجدوا أن اللغة تعمل عملها في تنشئة الطفل وتربيته وفق المفاهيم التي تختزنها ، ثم تتابع تأثيرها فيه بلا توقُّف إلى أن يبلغ أشدَّه ورشده . « فالرمز أي اللغة هو الذي يحوّل الطفل إلى كائن بشري مكتمل »(١١) . وعلة ذلك أن الرموز اللغوية التي يستخدمها الطفل ليست أصواتاً مجردة من المشاعر والمعاني والقيم ، وإنما هي خزائن المعاني والمشاعر والقيم . « إن أنواع السلوك البشري كافة تتكون من استخدام الرموز ، أو تعتمد على أنواع من الرموز ، فالسلوك البشري سلوك رمزي ، والسلوك الرمزيّ سلوك بشريّ »(١٢) .

---

(٨) اللغة والمجتمع للدكتور أحمد ماهر البقري ص٨ الإسكندرية ١٩٨٤م .

(٩) علم اللغة الاجتماعي للدكتور كمال محمد بشر ص٤١ دار غريب للطباعة والنشر القاهرة ١٩٩٥م .

(١٠) مدخل إلى علم اللغة للدكتور محمد حسن عبد العزيز ص٩٠ .

(١١) مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة تأليف رالف بيلز ، وهاري هويجر ص١٦٦ ترجمة د . محمد الجوهري ، ود . محمد الحسيني . دار النهضة مصر ١٩٧٦م .

(١٢) المصدر السابق ص١٦٦ .

فنحن ــ العربَ ــ نقبس من دراستنا اللغة العربية كثيراً من المُثل والأخلاق الكريمة، ونتأثر بالفضائل الموروثة، فنلتزمها، وننفر من الرذائل التي نفر منها الأوائل، فنتجنبها. وإذا كان المجتمع الذي نعايشه يمدّنا بالمفاهيم السائدة طوال حَيَواتنا القصيرة فإن اللغة قد لخصت برموزها مفاهيم حَيَوات طويلة جدّاً تفوق أعمارنا لأن عمرها عمرُ التاريخ العربي والإسلامي كله. وانصياعاً لسلطان اللغة «فالبشر لا يتعلمون عن طريق الخبرة المباشرة والملاحظة والتقليد فقط، وإنما يتعلمون كذلك من خلال أساليب السلوك التي تعلموها، وتنقلها اللغة إلى كل جيل جديد»(١٣).

وذهب بعض الدارسين إلى أن سلطان اللغة الذي لا يُقاوم قادر على أن يحدد نظرتنا إلى الحياة، ويرسم طريقنا فيها، ورأوا أن الإنسان ليس حرّاً فيما يأخذ وينبذ، ويناصر وينافر. وإنما هو عبد طيّع في يد اللغة التي تعرّفه الواقع، وتحدّد موقفه من المشكلات الاجتماعية المحيطة به من كل جانب. قال سابير Sapir: «اللغة دليل للواقع الاجتماعي. وبالرغم من أن اللغة لا يُعتقد أنها ذات أهمية ضرورية لدراسة العلوم الاجتماعية، فإنها هي التي تحدّد لنا كل تفكيرنا في المشكلات الاجتماعية»(١٤).

وفي وجه هذا التيار المنتصر للغة وقف تيار آخر ينتصر للمجتمع، ويعدّه صاحب الفضل الأكبر عليها، لأنه مصدرها الأوّل. ولما كان «اللسان جملة من القواعد التي تواضع عليها المجتمع بكل أفراده»(١٥) فإن الإنسان المالك لزمام اللسان، أي: المجتمع المتصرف بأمور اللغة قادر على أن يوجّهها الوجهة التي يتخيّرها. «فنشأ لذلك فرع من العلوم الاجتماعية يُسمى (علم الاجتماع اللغوي)، يحاول الكشف عن العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية، ويبين أثر تلك الحياة الاجتماعية في الظواهر اللغوية المختلفة»(١٦). ومن الدارسين من سمّى هذا العلم «علم اللغة الاجتماعي»(١٧)، وحدّد إطاره أو موضوعه، فقال: «إنه دراسة الصلة بين اللغة والمجتمع»(١٨).

---

(١٣) المصدر السابق ص١٦٧.

(١٤) اللغة والمجتمع، ثريا عبد الله ص٢٥ دار المعارف.

(١٥) اللسانيات وأسسها المعرفية. د. عبد السلام المسدي ص١٠٠.

(١٦) المدخل إلى علم اللغة. د. رمضان عبد التواب ص١٢٥.

(١٧) Grolier International Encyclopedia book 12 page 358 U. S. A. 1994.

(١٨) المصدر السابق. الصفحة نفسها.

ومن ينقّر عن تأثير المجتمع في اللغة يقف على أشياء كثيرة : أبرزها أن مستوى التطور الاجتماعي يرسم مستوى التطور اللغوي . فالمجتمع البدائي لم يَرْقَ تصوُّرُه للمعاني من الجزئي إلى الكليّ ، ولهذا جاءت لغته مجزّأة في التعبير عن الكليات . إن المجتمع البدائي «قد توجد لديه كلمات خاصة للدلالة على المعاني الجزئية كغسل نفسه ، وغسل شخص آخر ، وغسل رأس شخص آخر ، وغسل وجهه ، وغسل وجه شخص آخر ... في حين أنه لا تُوجد لديه كلمة واحدة للدلالة على العملية البسيطة ، وهي مجرّد الغسل»(١٩) .

ومن الظواهر التي لاحظها الباحثون في ميدان علم الاجتماع اللغوي طغيان الحسّ على التجريد في لغات المجتمعات البدائية . إن تجريد المعاني العامة من المحسوسات الخاصة مرحلة متأخرة الظهور ، لا تتبدّى إلا حينما تُصيب المجتمعاتُ حظّاً من التحضر ، ولهذا تجد «اللغة في المجتمع البدائي كثيرة المفردات فيما يتعلق بالأشياء المحسوسة»(٢٠) ، قليلة المفردات في المجردات ، خالية من الألفاظ الشديدة التجريد كالعقل والغريزة والأمل والمنطق .

ومن ظواهره أيضاً قلة الألفاظ بصورة عامة ، حتى إن بعض اللغات لا تزيد مفرداتها على ثلاثمائة كلمة(٢١) . ولذلك اقترنت هذه اللغات بفيض من الإشارات ، ترافق النطق ، وتساعد على التواصل ، حتى إن أبناء بعض القبائل الهندية كقبيلة (أرباهو) كانوا عاجزين عن التفاهم في الظلام(٢٢) .

ولما كانت اللغة مرآة للحياة الاجتماعية فإن اللغة تعدُّ من أصدق الوسائل وأدقها في الكشف عن طبيعة المجتمعات وسماتها الحضارية . فاللغة العربية في العصر الجاهلي نقلت إلينا سمات المجتمع الجاهلي وخصائصه البدوية . إن مفرداتها «تشير إلى الحياة البدوية وما يتصل بها من مظاهر الطبيعة ، وحيوان الصحراء ، ومظاهر السلوك التي تناسب هذه الحياة . فلا عجب أن تجد فيها مئات الألفاظ بل آلافها التي تتحدث عن الإبل»(٢٣) . وحينما تحضر البُداة حفلت اللغة العربية بألفاظ تصوّر حياة الترف والسرف ، إمّا بتطوّر الألفاظ القديمة ، وإمّا بتبني مئات الكلمات الدخيلة المعرّبة .

---

(١٩) دور الكلمة في اللغة . ستيفان أولمان ص١١٦ ترجمة د . كمال بشر القاهرة ١٩٦٢م .

(٢٠) المدخل إلى علم اللغة د . رمضان عبد التواب ص١٢٩ .

(٢١) قصة الحضارة لول ديورانت ١٢٣/١ ترجمة د . زكي نجيب محمود . جامعة الدول العربية ودار الجيل بيروت ١٩٧١م .

(٢٢) المصدر السابق ١٢٤/١ .

(٢٣) مدخل إلى علم اللغة د . محمد حسن عبد العزيز ص٩٤ .

وذهب علم الاجتماع اللغوي إلى أن اعتزال فئة حرفية من فئات المجتمع أو طبقة اجتماعية من طبقاته يصنع لها لغة خاصة بها، لها مفرداتها ودلالاتها الخاصة. قال فندريس «كان عندنا حتى بداية القرن التاسع عشر هيئة منظمة حقّاً للأشقياء، وكانت لها لغتها الخاصة المتفق عليها، والتي كان يعمل كل عضو من أعضاء الهيئة على المحافظة عليها»(٢٤).

ولم يغفل الباحثون في علم الاجتماع اللغوي عن تأثير البناء الخلقي في البناء اللغوي، بل رصدوا تسرب الغرائز إلى اللسان، وضربوا أخلاق المجتمع على محكّ اللغة، فتبيّن لهم أن تعهّر المجتمع وسقوطه في الفواحش ينشران القحة والبذاءة في لغته، وأن سموّه بالغرائز، وحفاظه على نقاء الأعراض يطهّران كلامه من الرفَث والخَبث. «فاللغة اللاتينية لا تستحي أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة، ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة. على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الحيل، وأدناها إلى الحشمة والأدب في التعبير عن هذه الشؤون، فتلجأ إلى المجاز في اللفظ، وتستبدل الكناية بصريح القول، ﴿واهجروهن في المضاجع﴾(٢٥) ﴿أو لامستم النساء﴾(٢٦) أو ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾(٢٧)»(٢٨).

ولك أن تعدّ اللهجات العامية المنحدرة من لغتنا الفصحى شكلاً من أشكال التأثير الاجتماعي في اللغة. وهذا التأثير خلّف في الأقطار العربية لغتين أو طريقتين من طرائق التعبير: لغة المثقفين الفصيحة التي صانها القرآن الكريم، واتخذها الأدب والعلم وسيلة للتعبير الفكري الراقي، ولغة السُّوقة العامية التي تشيع في الحياة اليومية، وتختلف من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم في القطر العربي الواحد(٢٩).

وللمجتمع سلطان يفرضه على اللغة وعلى الفرد، ويتبين لك جبروت هذا السلطان إذا أصغيت إلى السخر الذي يقابَل به من يخالف أسلوب المجتمع في الكلام. فما خرج على طرائق التعبير المألوفة خارج إلا استنكر القوم خروجه، حتى يردّوه إلى ما ألفوا. وكأن هذا السلطان سور يحوط اللغة ويصونها من التغير، وإذا حدث فيها بعض التغير لم يكن الجديد من صنع فرد، بل من صنع الجماعة. ولهذا تقرر في علم اللغة الاجتماعي «أن تغير آلية اللغة يمكن

---

(٢٤) اللغة لفندريس ص٣١٦ ترجمة عبد الحميد الدواخلي، و د. محمد القصاص القاهرة ١٩٥٠م.

(٢٥) النساء ٣٤.

(٢٦) النساء ٤٣.

(٢٧) البقرة ٢٢٢.

(٢٨) اللغة والمجتمع للدكتور علي عبد الواحد وافي ص١٣ دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٤٦م.

(٢٩) مدخل إلى علم اللغة د. محمد حسن عبد العزيز ص٩١.

فهمه من خلال دراسة القوى الاجتماعية التي تستعمل اللغة بصور مختلفة »(٣٠) .

وأسرف بعض العلماء الذين نَحَوْا في دراسة اللغة نحواً اجتماعياً محضاً ، حتى أفضى بهم الإسراف إلى الإجحاف ، وإلى الحيف على العلوم الأخرى ، وعلى اللغة نفسها . إن إيمانهم المطلق بأن اللغة ظاهرة اجتماعية حملهم على أن يعدّوها عادة من عادات السلوك . وكادوا ، في غمرة التعصب لعلم الاجتماع ، أن يسقطوا من دراستهم اللغوية دلالات الألفاظ ، وارتباط هذه الدلالات بالعقل . « لقد كان العالم اللغوي سكينر SKAINER من أشهر العلماء اللغويين في عصره ، وكان يعمل في جامعة هارفارد ، وله كتاب بعنوان (السلوك اللغوي) . ومما يؤخذ على أصحاب هذا الاتجاه إهمالهم لدراسة المعنى ، فقد نظر سكينر إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية ، تستحق الدراسة والعناية ، مثلها في ذلك مثل أية عادة سلوكية »(٣١) .

ولا بدّ قبل الفراغ من الحديث عن علم اللغة الاجتماعي من الإشارة إلى أمرين :

أولهما أن هذا العلم وليد لمّا يبلغ أشدّه ، ولمّا يعرّفه أربابه تعريفاً يوضح حدوده ، ويميزه بسمات تفرده ، ولهذا عرض له ما يعرض لغيره من العلوم الناشئة ، فخالطه مصطلح آخر ، وهو (علم الاجتماع اللغوي ، أو علم اجتماع اللغة) The Sociology of Language . وهذا المصطلح يجعل الاجتماع أصلاً واللغة فرعاً ، ولمّا كان علم اللغة الاجتماعي يجعل اللغة هي الأصل ، فهو آثر لدينا وأَوْلى عندنا بالتقديم .

وثانيهما أنه ظهرت علوم لغوية فرعية أخرى ، قد تلامس علم اللغة الاجتماعي أو تلابسه ، أبرزها علم اللغة الأنثروبولوجي Anthropological Linguistics وعلم اللغة الإثنولوجي Ethnolinguistics ، وكلاهما موصول النسب بالإنسان وبالدراسات الإنسانية اللغوية . « الأول يدرس كيف يمكن للظواهر اللغوية أن تكشف عن هوية الفرد ، أو أن تنسبه إلى عضوية دائرة اجتماعية ، أو جماعة دينية ، أو وظيفية ، أو قرابة معينة ، كما تكشف عن ثقافته بطبيعة الحال »(٣٢) . والثاني « يعنى بدراسة اللغة في علاقتها بالبحوث الخاصة بأنماط السلالات البشرية ، وأنماط سلوكها »(٣٣) . وتستطيع أن تعرِّفه بقولك : « هو علم اللغة العرقي ، أو علم لغة السلالات »(٣٤) .

---

(٣٠) Funk and Wagnalls Encyclopedia book 16 page 147.

(٣١) المسار الجديد في علم اللغة العام د . وليد محمد مراد ص١٠٨ دمشق ١٩٨٦م .

(٣٢) علم اللغة الاجتماعي (المدخل) د. كمال محمد بشر ص٤٤ دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٥م .

(٣٣) المصدر السابق ص٤٤ .

(٣٤) المصدر السابق ص٤٤ .

ولا يُفهمنَّ من هذه المصطلحات أنها عنوانات لعلوم اتضحت معالمها ، ورُسمت الحدود الدقيقة لها ، أو أنه غدا لكل علم منها بحوثه التي استقلّ بها ، فلم يشركه فيها قسيمُه ، وإنما هي علوم متداخلة متكاملة تتردد بين قطبين : اللغة والإنسان ، اللغة بمفهومها العام غير المقتصر على أمة واحدة ، أو شعب معين ، أو قبيلة معروفة . والإنسان بوصفه مخلوقاً اجتماعياً ، يتكلم لغة من اللغات ، وينتمي إلى شعب من الشعوب ، ويصطبغ بصبغة ثقافية معينة ، ويدين بدين من الأديان . وهذه العلوم ترمي إلى دراسته في هذه الميادين كلها تحت مظلة واسعة ، عمودها اللغة ، وأسلاكها هي هذه العلوم المستحدثة .

نخلص مما عرضنا إلى أن علم اللغة الاجتماعي أصبح من العلوم البارزة في ميدان الدرس اللغوي . ولا يؤخذ عليه إلا غلوُّ نفر من أصحابه في فرض آرائهم ، وفي تعليلهم كلّ طارىء يطرأ على اللغة ، أو بدعة تُبتدَعُ فيها بعلل اجتماعية خالصة . قال الدكتور علي عبد الواحد وافي : « يتبين لنا فساد ما يذهب إليه بعض المتطرفين من علماء الاجتماع كالعلامة السويسري دو سوسير De Saussure ومن نحا نحوه ، إذْ يقررون أن جميع المؤثرات في حياة اللغة ترجع إلى أمور اجتماعية »[٣٥] .

ثانياً ـــ علم اللغة وعلم النفس

من العلوم الموصولة النسب بعلم اللغة علمُ النفس . وإذا عمّمت دلالة (النفس) فعنيت بها الفكر والشعور جميعاً أدركت أن الصلة بين علمي اللغة والنفس ليست صلة مجازية ، يُراد بها تقارب العلمين أو تجاورُهما أو التقاؤهما في ميدان الدراسات الإنسانية . وإنما هي صلة نسب وانتماء . ولسوف يتبين لك أن الفكر أنجب اللغة ، وأن علم اللغة أنجب علم النفس اللغوي ، فكلاهما إذن والدٌ للآخر وولد . ولهذا يحقُّ لك أن تحمل انتساب أحدهما إلى الآخر على محمل الحقيقة لا المجاز .

والدليل على زعمنا أن الموسوعة الدولية ذكرت علم اللغة النفسي Psycholinguistics بين العلوم المتفرعة من علم اللغة Linguistics ، وحددت موضوعه ، فقالت : « إنه يدرس العلاقة بين اللغة والعقل »[٣٦] . وجعله جيمس ديز James Deese عنواناً لكتاب مستقل ، هو : Psycholinguistics درس فيه تلك العلاقة دراسة موسعة معمقة ، وقال في مقدمته :

---

(٣٥) اللغة والمجتمع د . علي عبد الواحد وافي ص١٣٧ .

(٣٦) Grolier International Encyclopedia book 12 page 358.

«أصبح علم النفس اللغوي في السنوات القليلة الماضية قسماً بارزاً من علم النفس الحديث»(٣٧) . وقال أيضاً : «إن موضوع اللغة يجب أن يتعلق بنوع المقدرة الإنسانية العقلية . ووفق هذا المعنى تُعدُّ اللغة موضوعاً نفسيّاً»(٣٨) .

ولإبراز المكانة التي تبوّأها علم النفس اللغوي في ميدان الدراسة اللغوية الحديثة ذهب أرباب هذا العلم إلى نوع من التحليل الدقيق أفضى بهم إلى التمييز بين أفقين من آفاق الفكر ، تنطوي عليهما اللغة : أفق محلي قومي ، وأفق إنساني عام .

في الأفق الأول يقرر علم النفس اللغوي أن ألفاظ كل لغة من اللغات تتضمّن محتوىً فكرياً خاصّاً موسوماً بسمات تحدّد شخصية اللغة ، وشخصية الأمة الناطقة بها ، وهذا المحتوى يظلُّ ملكاً خاصّاً للناطقين بها(٣٩) .

وفي الأفق الإنساني العام تجد في كلّ لغة عناصر تتشابه فيها اللغات ، وهذه العناصر تتضمن الفكر المطلق غير المصطبغ بالصبغة القومية أو المحلية . وهذا المحتوى الإنساني لا يتأثر بطبيعة اللغة أو بسماتها ، بل يلتقي بما يضارعه في اللغات الأخرى(٤٠) .

وإذا كان علم الاجتماع اللغوي قد بالغ في تعليل الظواهر اللغوية بعلل اجتماعية ، فإن علم النفس لم يبرأ من المبالغة ، إذ ذهب أربابه إلى أن المتكلم يقحم مشاعره في كلامه كلّه أو جلّه ، لأن «الإنسان لا يستخدم اللغة للتعبير عن شيء فحسب ، بل للتعبير عن نفسه أيضاً»(٤١) . وهم لا يريدون بما ذهبوا إليه التعبير الأدبي وحده ، بل يوسّعون ما يعنون ، ويدخلون فيه المحاورات والأحاديث اليومية المتعلقة بتكاليف الحياة وشؤونها ، «لأن الإنسان كما يتكلم ليصوغ أفكاره ، فإنه يتكلم ليؤثر في غيره من الناس»(٤٢). ولا يستثنون من ذلك غير «التفكير العلمي واللغة العلمية التي يجب أن تكون معبرة عن الفكرة المحضة والحقيقة المجردة الخالية من الانفعالات النفسية»(٤٣) .

---

(٣٧) Psycholinguistics James Dees page III.

(٣٨) المصدر السابق page 35 .

(٣٩) انظر اللسان والإنسان للدكتور حسن ظاظا ص٧٠ دار المعارف القاهرة ١٩٧١م .

(٤٠) المصدر السابق ص٧٠ وما بعدها .

(٤١) هذا الرأي للباحث الألماني فون درغابلنتس . انظر علم اللغة والنفس الإنسانية للدكتور رمضان عبد التواب ص١٣٧ .

(٤٢) المصدر السابق ص١٤٠ .

(٤٣) المصدر السابق ص١٤٠ .

ومن هذه الثغرة ينفـذون «إلى دراسة العلاقـة بين نفسيـات الشعـوب المختلفـة ولغاتها»(٤٤). ويقولون: «عندما ندرس بنية اللغة في شعب ما فإننا ندرس صور وطرائق تفكيره. وعندما ندرس مفرداتها فإننا نكتشف نماذج مميزاته»(٤٥). وهم ــ على تعلّقهم بهذه الآراء ــ يعدون القيام بدراستها وممارستها حقّاً من حقوق علم النفس التربوي.

ولست في حاجة إلى أدلة عقلية، تساق بين يديك لتدرك مبلغ الترابط بين النفس والإنسان، بين الكلام والعقل، أي: بين الأصوات المنبثقة من الفم المتجهة إلى الأذن من ناحية، والفكرة المسافرة مع هذه الأصوات من مخ المتكلم إلى مخ السامع من ناحية أخرى.

وهبْك أغلقت أذنيك عما يقال حولك، وأدرت في نفسك فكرة خفية، لا يطّلع عليها إلا علّام الغيوب، فإنك في هذه الحالة تقوم بعمليات معقّدة، ينطقها عقلك بصوت غير مسموع. فإذا بحت بما يدور في خلدك تحولت الفكرة إلى لغة مسموعة أو مكتوبة. «فالفكر حديث باطني، والحديث تفكير بصوت عال»(٤٦). وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول ما قاله واطسن: «إن الفكر ليس شيئاً أكثر من الكلام الذي بقي وراء الصوت»(٤٧).

ثم هبْك مكثت ساكناً قانتاً لا تتكلم، ولا تُعِدُّ في خلدك كلاماً تريد أن تبوح به، بل تصغي إلى من يحدثك إصغاء التلميذ المؤدَّب، وتتلقى ما يلقيه محدثك في مسمعك تلقّي الجاهل الناهل من المعرفة، أفتظن أن الكلام الذي صنعه غيرك، ثم نفحك به يعفيك من العمل العقلي أو من التمرس النفسيّ باللغة؟

الحق أن سلسلة من العمليات اللغوية الصامتة المعقدة ــ شئت أم أبيت ــ تدور في نفسك، وتعمل عملها في أفكارك ومشاعرك. فأنت تحلّل الكلام المسموع وتركبه، وتربط ما فيه من دلالات بمعلومات قديمة يختزنها ذهنك، أو تستنبط أشياء لم يقلها المتكلم، أو تبني على كلامه نتائج وأحكاماً لم تخطر لقائله قط. ولهذا قرر علماء النفس اللغوي «أن فهم الكلمات وما يتعلق بها من حيث تكوينها وسماعُها مرتبط بسلسلة من العمليات العقلية»(٤٨)، كما قرروا «أن الفكر يصنع اللغة في الوقت الذي تصنعه فيه اللغة»(٤٩). فكيف تصنع اللغة

---

(٤٤) المصدر السابق ص١٤٦.

(٤٥) العلاقة بين اللغة والفكر د. أحمد عبد الرحمن حماد ص٢٢ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥م.

(٤٦) في فلسفة اللغة د. كمال يوسف الحاج ص٢٤ دار النهار بيروت ١٩٦٧م.

(٤٧) العلاقة بين اللغة والفكر د. أحمد عبد الرحمن حماد ص٢١.

(٤٨) علم اللغة د. محمود السعران ص٧٢ دار النهضة العربية بيروت.

(٤٩) الفلسفة، محمود عباس نور الدين ص٦٤ دار الفكر دمشق. والقول منسوب إلى الفيلسوف الفرنسي دولاكروا.

الفكر ؟ وممّ تصنعه ؟

تصنع اللغة الفكر من الدلالات والمعاني والمفاهيم التي تختزنها رموزها اللفظية . فمن المعروف أن الألفاظ رموز للمعاني ، أو أوعية تصب فيها الأفكار والنظريات ، وترصّ فيها الثقافات ، ومن المعروف كذلك «أن البشر لا يتعلمون عن طريق الخبرة المباشرة والملاحظة والتقليد فقط ، وإنما يتعلمون كذلك من خلال الخبرة التي تتراكم في صورة رمزية لغوية غالباً »[٥٠] . وليس من المستبعد أن ينتقل البشر أو أذكياؤهم على الأقل من مرحلة التعلم والاتباع إلى مرحلة الصنع والابتداع ، ولا سيّما في نطاق العلوم الإنسانية ، وبذلك تصنع اللغة الفكر ، أو تغدو وسيلة من وسائل صنعه .

وههنا يحتدم الصراع بين اللغة والفكر ، وبين علم اللغة وعلم النفس على الفوز بقصب السبق ، فأيُّهما السابق ؟ وأيُّهما اللاحق ؟

يرجح العلماء أن الفكر أسبق من اللغة ، فهو الوالد ، وهي المولودة ، ويسوقون لإثبات هذا الترجيح حججاً أبرزها اثنتان :

أولاهما أن الإنسان ، كما قرر أرسطو ، حيوان ناطق ، أي : عاقل مفكر ، فاللسان لا ينطق إلّا بأوامر تصدر إليه من الدماغ للتعبير عن فكرة متصوَّرة في النفس ، فإذا عثر اللسان في ترجمة الفكرة أو أبطأ فتعثره أو بطؤه دليل على أنه لمّا يتهدَّ إلى العبارة القادرة على مسايرة الفكرة ، وبرهان « من الناحية المبدئية على أن التفكير سابق على اللغة »[٥١] .

والحجة الثانية أن الفكرة الواحدة يمكن الإفصاح عنها بألسنة متعددة ، أي : « أن استعمالنا لأكثر من لغة واحدة للتعبير عن المعنى الواحد يكشف لنا عن أسبقية الأفكار بالنسبة إلى الوسائل اللغوية التي نعبر بها عنها »[٥٢] .

وإذا وافقنا علماء النفس ، وحكمنا لهم بأنهم الظافرون بقصب السبق ، وسلّمنا جدلاً بأن الفكر أسبق من اللغة في الظهور ، فإننا لا نستطيع أن نستفتي علم النفس في كل شأن من شؤون اللغة ، ولا أن نحكّمه في كل مشكلة من مشكلاتها ، ثم لا نقبل بأن نجعل ارتباط اللغة بالفكر حجة لغمط العلوم الأخرى أو ذريعة لبخسها حقّها في أن يكون لها من تفسير اللغة والمشاركة في دراستها نصيب . « إن علم اللغة يستعين بحقائق توصلت إليها علوم ودراسات أُخَرُ ، ولكنْ ليس معنى هذا أن تُتخذ مناهجُ علم النفس ووسائله مناهج له ووسائل ، كما أنه

---

(٥٠) مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ص١٦٧ .

(٥١) العلاقة بين اللغة والفكر ص١٩ .

(٥٢) المصدر السابق ص١٩ .

لا تتخذ مناهج علم آخر ووسائله »[٥٣] .

وإذا كان بعض الباحثين قد أقرّ بحاجة علم اللغة إلى علم النفس ، فإن بعضهم قد أقرَّ وحدّد ، وذكر الجوانب التي يفزع فيها اللغويون إلى علماء النفس يستفتونهم فيها ، فقال : « إن بحوث علم اللغة متصلة ببحوث علم النفس ، فكثير من المسائل التي يعرض لها يتوقّف شرحها وفهمها وبيان أصولها وأسبابها على الرجوع إلى ما يرتبط بها من الظواهر النفسية ، وإلى ما يقوله علم النفس في صددها : فتكوين المتكلم لعباراته وفق أفكاره ، وإدراك السامع الحديثَ وفهمه ، وصوغ العبارات وتدوينها كتابة ، وفهم القارىء لنقوش الكتابة ، وكسب الطفل للغته ، وأداء اللغة لوظائفها الدلالية »[٥٤] هذه الموضوعات كلها وموضوعات أخرى تتصل بها تحتاج حينما يتناولها اللغوي بالبحث إلى ما يقوله فيها عالم النفس .

ثالثاً ـــ علم اللغة وعلم الطبيعة

ذكرنا قبلُ أن علم اللغة الحديث أخذ يخرج خطوة إثر خطوة من إسار العلوم النظرية كالفلسفة والمنطق . ونذكر الآن أن هذا الخروج نجم عن إحساس الباحثين بعجز العلل والمقاييس العقلية المجردة عن الوفاء بما تتطلبه العلوم اللغوية الحديثة . « فالمنطق لا يمكّن من تفسير كثير من الظواهر اللغوية ، أو قد يفسّرها بطريق التعنت والتعسف ، وسبيل التأويل والتعقيد . أو قد يؤدي إلى الاستغراق في الجدال في مسائل لا طائل من ورائها ، أو من وراء الجدال فيها »[٥٥] . ولهذا حاول علم اللغة أن يقترب خطوة إثر خطوة من العلوم التجريبية كالتشريح والفسلجة وعلم الطبيعة .

وفي بداية الحديث عن هذه المحاولة يحسن بنا ألّا نُمنّي أنفسنا بكثير من المكاسب والمنجزات ، وأن نشير إلى أن « مادة اللغة لا تخضع لما تخضع له تلك العلوم من التجربة المعملية »[٥٦] لعلةٍ معروفة . وهي أن اللغة تتألف من كلمات ذوات دلالات ، يؤلّف منها الإنسان جُملاً وتراكيب ، يصبُّ فيها أفكاره ومشاعره ، ولا تتألف من جُسُوم ذواتِ أجرام وحجوم ، تجري فيها المباضع ، وتخضع للقياس ، وتقدّر بالموازين والمكاييل ، وتصلح للاختبار

---

(٥٣) علم اللغة د . محمود السعران ص٧٢ .

(٥٤) علم اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص٣١ دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ١٩٨٤ .

(٥٥) علم اللغة د . محمود السعران ص٧٤ .

(٥٦) المصدر السابق ص١٢ .

والتجريب لتستنبط منها قوانين مطردة ، لا يتخلف منها شيء ، ولا يشمس عليها شذوذ .

ومع ذلك ، فإن علم الطبيعة (الفيزياء) استطاع أن يُقرض علم اللغة أبعاضاً من أساليبه وتجاريبه ، وآلات مبتكرة من أدواته وأجهزته ، استفاد منها اللغويون وأفادوا . والمسوّغ الذي سوّغ علم اللغة أن يقترض من علم الفيزياء ـــ على ما بينهما من اختلاف في المادة والوسائل والمناهج ـــ هو أن في الفيزياء فرعاً يدرس الأصوات ، سواءٌ أصدرت عن الإنسان والحيوان أم صدرت عن المزامير والطنابير ، لأن لكل صوت مهما يجملْ أو يقبح ، ومهما يعلُ أو يخفت اهتزازاً يقبل القياس ، وخصائص يمكن أن تُحدد . « ويتم تحديد الأصوات بعدد الذبذبات التي تحدّدها صورها »[٥٧] . وهنا يلتقي العلمان : علم اللغة وعلم الفيزياء التقاء محصوراً في فرع واحد من علم اللغة ، هو دراسة الصوت .

ولكيلا يتبادر للذهن أن تأثير الفيزياء في الدرس اللغوي لم يكن إلا ترفاً فنياً لا جدوى منه رأينا أن نحصر كلامنا في أمرين اثنين ، يبرز فيهما هذا التأثير واضحاً غاية الوضوح : أولهما الآلات المستعملة ، وثانيهما النتائج التي أفضى إليها هذا التأثير .

استعمل علم اللغة مجموعة من الأجهزة الفيزيائية ، أشهرها أربعة ، وهي : السقف الصناعي ، والكاشف ، والمدوّن ، والمسجّل .

أما السقف الصناعي فآلة حدباء تشبه سقف الحلق ، تُطلى بطبقة من الحَكَك أو ما يشبهه ، وتوضع في الفم . فإذا نطق الناطق بحرف ضرب اللسانُ سقف الحلق ، فأثر في الحكك ، وحدّد مخرج الحرف . ومتى انحرف الصوت عن مخرجه ، ولم تستطع الأذن أن تدرك انحرافه أدركته « الأجهزة الحساسة مثل السبكتوغراف ، أو مسجّل تردّد الموجات الصوتية »[٥٨] .

وأما الكاشف فآلة أخرى توضع على العضو الناطق أو المشارك في النطق ، أو المتأثّر به ، أو المؤثر فيه . وهو طيّع ليّن الحركة ، فمتى تكلّم المتكلم المشدود إليه نقل الكاشف الحركة أو الحركات نقلاً أميناً ، فكشف عن خواص الصوت المنطوق .

ومن الكاشف تنتقل الحركة أو الحركات إلى المدوّن . والمدوّن آلة تشبه القلم ، وتتصل بالكاشف اتصالاً مرناً ، يتيح لها أن تتحرك حركات تعدل الحركات الصادرة عن العضو الناطق أو المتأثر بالنطق ، فيحمل الكاشف هذه الحركات إلى المدوّن ليدوّنها على شكل خطوط تختلف أطوالها وأشكالها باختلاف الأصوات المنطوقة . وهي شبيهة من حيث المبدأ

---

(٥٧) اللغة ، فندريس ص٤٤ .

(٥٨) أسس علم اللغة ، ماريوباي ، ص٤٥ .

والغاية بالآلة التي تدوّن أنباض المريض، وتحولها إلى خطوط تكشف عن أحوال الشرايين والأوردة والقلب.

والمدوّن مرتبط بالمسجل، والمسجل أسطوانة دوّارة حول محورها، وهي تدور دون المدوّن لكي تتيح له أن يدوّن عليها الخطوط التي تترجم الأصوات المسموعة إلى أشكال مرئية. ولا نستبعد أن يكون العلم السريع التطور قد صنع آلات أدقّ من هذه الآلات، وأقدر على رصد حركاتٍ لم ترصد من قبل، وقياس أصوات ونبرات أعيا قياسُها الآلات الأربع التي وصفناها.

تلك هي الآلات التي أهداها علم الفيزياء إلى علم اللغة.

أما النتائج التي أسفر عنها استعمال هذه الآلات فقد قيل في إطرائها والتنويه بها: «أحدث علم الأصوات الفيزيائي ثورة هائلة في الدرس الصوتي، وذلك بتقديمه وسائل جديدة لدراسة الأصوات ووصفها»(٥٩). وحُدّدت نتائج هذه الثورة الهائلة بثلاثة أمور:

أولها الكشف عن حقائق صوتية، لم يستطع علماء اللغة أن يكتشفوها قبل ظهور هذه الآلات، واقتحامها ميدان البحث اللغوي الصوتي.

وثانيها تعديل المناهج المتبعة في الدراسات اللغوية الصوتية، نجم عنه تعديل ملحوظ في الآراء القديمة، وتغيير للانطباعات التي كان يحملها علماء الصوتيات.

والثالث تأكيد بعض الحقائق الموروثة عن السلف، وتأييد كثير مما وصلوا إليه بالطرق التقليدية من نتائج(٦٠).

وإقراراً بالحقّ، ومن باب عزو الفضل إلى ذويه يحسن بنا ههنا أن ننوه بالبحوث الصوتية المخبرية التي اضطلع بها أستاذنا الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، وعرض فيها على محك هذه الآلات ما جاء في كتب علمائنا الأقدمين، ولا سيّما ما رواه سيبويه عن شيخه الخليل بن أحمد في مخارج الحروف وصفاتها، فتبين له أن كثيراً من آرائهم بلغت من الحصافة، وأن غرائزهم أوتيت من الرهافة ما جعل نتائجهم تقارب النتائج التي توصلت إليها الآلات(٦١).

وليس الأثر الذي أحدثه علم الطبيعة في علم اللغة مقصوراً على استخدام الآلات في

---

(٥٩) علم اللغة العام، د. كمال بشر ص٢٠ القاهرة ١٩٧٠م.

(٦٠) المصدر السابق ص٢٠ وما بعدها.

(٦١) من محاضرات غير منشورة ألقاها الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح على طلاب الدراسات العليا بجامعة دمشق ١٩٧٤م.

دراسة الأصوات ، وعلى ما نجم عن هذا الاستخدام من حقائق ، بل تجاوز أثره الحقائق إلى الطرائق ، إذ اصطبغت مناهج الدرس اللغوي الحديث بصبغة علمية تجريبية ، سيكون للحديث عنها موضع آخر .

رابعاً ــ علم اللغة وعلم وظائف الأعضاء

لا يغلو من يزعم أن علم وظائف الأعضاء ألصق العلوم غير الإنسانية بعلم اللغة ، وأنه من أكثر العلوم تأثيراً في دراسة الأصوات . وكان حقه أن يدرس قبل أن يدرس علم الطبيعة ، غير أن منهجه التجريبي ساوى بين العلمين ، « لأن علم الأصوات الفسيولوجي ، وعلم الأصوات الفيزيائي يستعينان ــ كل في مجاله ــ بالأجهزة العلمية الحديثة من الكترونية أو غيرها ، ويتبعان أحدث وسائل التجربة المعملية في وصف الأصوات وتحليلها إلى الحدّ الذي دفع علماء اللغة المحدثين إلى تخصيص فرع من فروع علم الأصوات ، يسمى علم الأصوات التجريبي »[٦٢] .

إذا أقررنا أرسطو على تعريفه الإنسان بأنه حيوان ناطق[٦٣] ، ووافقنا على أنه قدم في تعريفه الألزم على اللازم ، والأخطر على الخطير قلنا : إن الحيوانية مقدمة على النطق ، وإن حفظ الحياة أولى من اللغو . ويتفرع من قولنا هذا أن أعضاء النطق الممتدة من الشفتين إلى الرئتين مخلوقة للاضطلاع بوظائف حيوية مقدمة على وظائفها اللغوية ، فمضغ الطعام بالأسنان واللسان مقدم على صنع الكلام في حياة الإنسان ، واستنشاق الريح لحفظ الروح ألزم من زفرها لتحريك الوترين الصائتين في أعلى الحَنْجَرة .

ولو كانت أجهزة النطق مخلوقة لصنع الأصوات أولاً ، ومضغ الأقوات ثانياً ، أو لو كان النطق والمضغ متلازمين لنطق الأبكم والحيوان الأعجم ، أو لخمدت الحياة في صدور الناس حينما تصيبهم آفة من آفات النطق كالعيّ والحصر والفأفأة والخرس . « فالنطق في الواقع ليس أكثر من وظيفة ثانوية تؤديها هذه الأعضاء إلى جانب قيامها بوظائفها الرئيسية »[٦٤] .

فمن الشطط المقارب للغلط أن تنعت الأشياء بأقل النعوت دلالة على حقائقها ، وأن توصف الأعضاء بأضعف الصفات تحديداً لوظائفها ، فتسمى الأعضاء التي عملها الأول

---

(٦٢) علم اللغة وفقه اللغة د . عبد العزيز مطر ص٣٨ .

(٦٣) المنطق الصوري تاريخه ومسائله ونقده للدكتور رفقي زاهر ٨٥/١ دار المطبوعات الدولية القاهرة ١٩٨٠م .

(٦٤) أصوات اللغة د . عبد الرحمن أيوب ص٤٠ .

القضم والخضم، والقطع والبلع وتنقية الدم باسم (جهاز النطق). وأجزاء هذا الجهاز من الداخل إلى الخارج: الرئتان وما حولهما من عضلات الصدر، وما تحتهما من عضلات البطن، فالقصبة الهوائية المتوّجة بالحنجرة ذات الوترين الصوتيين، فالحلق أقصاه وأوسطه وسقفه، وما يتصل به من تجويف يخترق منخري الأنف، فالأسنان مع اللثة والمغارس، فالشفتان. وأهم من هذه الأعضاء كلها تلك المضغة الحمراء الدوّارة الموّارة التي تسمى اللسان. ولما كان اللسان أهم الأعضاء الناطقة فقد سميت اللغة كلها باسمه ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾(٦٥).

ومع أن الخالق ــ جلّت قدرته ــ منح الحيوان ما يعدل هذه الأعضاء الناطقة، فإن الحيوان لم يُؤْت من الذكاء والدربة ما يتيح له أن يستخدم أعضاءه تلك استخداماً يعينه على النطق. «إنه قد يستخدم نقطة ما من هذا الجهاز الصوتي، فيخرج صوتاً واحداً متشابهاً، أو صوتين متواليين دائماً»(٦٦)، ولكن الأصوات الحيوانية لا ترقى إلى أفق النطق الإنساني المبين.

ولا يذهبن بك الظن إلى أن البشر سواء في التمرس بالنطق أو في القدرة على الإبانة، أو في براعة الاستخدام للأجهزة الناطقة. فالشعوب السامية أقدر من الشعوب الهندية الأوروبية على توليد الأصوات وتنويعها. والعرب أقدر الشعوب السامية وأمهرها في النطق وفي الاستكثار من الأصوات. وتتميز «الحروف العربية بتوزعها في أوسع مدرج صوتي عرفته اللغات»(٦٧). وأدلُّ ما يدلك على هذه السعة امتداد المدرج الصوتي العربيّ من الشفتين إلى أقصى الحلق، وغزارة الأحرف الحلقية التي تعيا الشعوب الهندية الأوروبية بنطقها، لأنها «لم تستخدم كل إمكانات النطق في إخراج الأصوات من الحلق»(٦٨).

ولا يرجع هذا العيّ إلى ضعف في البنية العضوية، فالألسنة والشفاه والحناجر والحلوق سواء في المقدرة والتكوين والبراعة في أداء الوظائف، إذ لم يثبت علم التشريح وعلم الفسيولوجيا وعلم اللغة الفسيولوجي «وجود أي من الاختلافات العرقية الخاصة بين

---

(٦٥) النحل ١٠٣.

(٦٦) المدخل إلى علم اللغة د. رمضان عبد التواب ص٢٣. مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٥م.

(٦٧) فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك ص٢٤٩. بيروت دار الفكر.

(٦٨) المدخل إلى علم اللغة د. رمضان عبد التواب ص٢٩.

البشر »[٦٩] ، بل أثبت « أن كل شخص قادر على التلفظ بأي شيء دونما صعوبة »[٧٠] ، على أن يتمّ ذلك في فترة الطفولة التي تتميز فيها أعضاء النطق بالمرونة والاستعداد الفطري للمحاكاة .

تؤكد هذه العلوم كلها أن الطفل « يمكنه ، شريطة أن يكون لديه حافز كاف ، أن يصل إلى درجة من الإتقان السهل في نطق أية لغة يمكن أن يتصل بها . ولكن عندما نكبر ، ونحاول أن نتعلم لغة أجنبية يجب أن نعمل كثيراً من أجل تحقيق مستوى من الأداء مماثل لما يصل إليه الطفل »[٧١] . فما السنُّ التي يفقد فيها الطفل مرونة التقليد والقدرة على المحاكاة ؟

لقد أثبتت الملاحظة والتجربة أن هذه السن هي بداية المراهقة ، فيها تنتهي الطفولة ، وينتهي معها اقتدار الغلام على المحاكاة العفوية للكلام الأجنبي الغريب الأصوات . يقول ابركرومبي : « من الواضح أن هذه البراعة تتخلّى عن معظم الناس في وقت لا يبعد كثيراً عن دخولهم سنوات المراهقة . ومن المؤكد أن من يبلغ أشده يجب أن يكون على استعداد لأن يخصص قدراً كبيراً من الجهد والوقت لاكتساب نطق لغة أجنبية »[٧٢] .

إن محاكاة الطفل للأصوات اللغوية ميدان واحد من ميادين كثيرة ، يتجلّى فيها علم اللغة الفسيولوجي . ومن أبرز الميادين التي يبرز فيها عمل هذا العلم الدرسُ الوصفيّ المفصل لما تقوم به أعضاء النطق الكثيرة من استنشاق وزفر ، وضغط وحبس ، وضرب واهتزاز لتحقيق هذا الإنجاز الذي نسميه الكلام . ومن الخطأ أن نتوهم الكلام ثمرة تعاون بين أجهزة النطق وحدها ، لأن الاضطلاع بالنطق عمل معقد يحتاج إلى جهد ، يشترك في أدائه نصف الجسد البشري ، والملاحظة الدقيقة تقفك على هذه الحقيقة .

تستطيع أن تتصور أعضاء النطق آلةً عازفة معقدة من آلات النفخ ، أسفلها جَعْبة أو قِرْبة ذات جوفين متجاورين لاجتذاب الهواء ودفعه . وكلّ جوف منهما يتصل بقصبة صغيرة ، ثم تجتمع القصبتان الصغيرتان في قصبة واحدة كبيرة ، تشبه الناي ، ورأس الناي الأعلى صندوق صوتي ، تُوِّجت فتحته العليا بوترين ، يهتزان عند العزف ، فيتلاصقان أو يتباعدان ، أو يتوقفان عن الاهتزاز . وهما يفضيان إلى صندوق آخر أكبر من الأول ، وأعقد تركيباً ، وهذا

---

(٦٩) مبادىء علم الأصوات ، ديفيد ابركرومبي ص٣٥ ترجمة د . محمد فتيح القاهرة ١٩٨٨م .

(٧٠) المصدر السابق ٣٦ .

(٧١) المصدر انسابق ٣٦ .

(٧٢) المصدر السابق ص٣٦ .

الصندوق هو الجوف المفضي إلى الفضاء الخارجي عن طريقين يستطيع العازف أن يفتح أو يغلق أحدهما وفق حاجته إلى حبس الهواء أو إطلاقه .

الجعبة ذات الجوفين هي الرئتان ، والناي القصبة الهوائية ، والصندوق الصوتي الصغير حَنْجَرة المتكلم ، والصندوق الكبير فمه بما ينطوي فيه وعليه من حلق وأسنان ولسان . والطريقان اللذان يتعاورهما الفتح والإغلاق هما الأنف والفم .

متى همَّ الناطق بالنطق انطلقت الأوامر من عضو خفي في الرأس ، هو الفصّ الأيسر من المخ إلى أعضاء النطق[٧٣] ، فصدعت بالأمر ، وتأهّبت للقيام بالحركات المطلوبة على النحو التالي :

تتمدد عضلات البطن والصدر ، فتمتلىء الرئتان هواء ، ثم تتقلّص هذه العضلات تقلصات متعاقبة ، فيندفع الهواء من شعيبات الرئتين إلى القصبة ، ومنها إلى الحنجرة . فإن كان الصوت المنطوق مهموساً مرّ الهواء من بين الوترين رخيّاً ، فلم يحرّكهما . وإن كان مجهوراً هزّهما في أثناء عبوره من الحنجرة إلى الفم . وفي الفم يتحرك اللسان الحركة المناسبة ، فيرتفع أو ينخفض ، ويلتصق بسقف الحلق ، أو ينخفض ، أو يتقعر ، أو يضرب بعض الأسنان ، أو يلامس مغرساً من مغارسها ، ثم يندفع الهواء حاملاً معه إلى الفضاء الخارجي ما أحدث من صوت ، فتتلقّاه آذان السامعين .

ولا يكتفي علم اللغة الفسيولوجي بجعل الأذن عضواً من أعضاء النطق ، بل يضيف إليها العين . يقول ابركرومبي : « رغم أن الأذن ليست جزءاً من الآلية المنتجة للكلام فمن الواجب وضعها ضمن أعضاء النطق . فالكلام يبقى بلا فائدة كبيرة ما لم يُستقبل كما يُنْتَج ، وعضو الاستقبال الرئيسي هو الأذن . والعين عضو ثانوي ، لأن مشاهدة الناس حينما يتحدثون تسهم بلا شكّ في فهمهم ، وتصبح العين بالطبع العضو الرئيسيّ لاستقبال الكلام ، بل العضو الأوحد ، لا ريب ، بالنسبة للصمّ الذين يقرؤون الشفاه »[٧٤] .

وعلماء اللغة ليسوا سواء في تحديد أعضاء النطق : فمنهم من يوسّع إطارها ، فيدخل فيها الصدر وأعلى البطن والعين والأذن على النحو الذي فعله ابركرومبي . ومنهم من يضيّق إطارها ، ويجعلها موزعة على قوس تعدل نصف دائرة ، أولها الشفتان وآخرها الحنجرة ، وتتألف من أربعة عشر قسماً أو جزءاً لافظاً ، وهي : الشفتان ، والأسنان ، ومنبت الأسنان ، والغار ،

---

(٧٣) Merk Manual Harison page 1055 Edition 11 . وانظر تفصيل عملية النطق تشريحياً ونفسياً في كتاب علم اللغة النفسي للدكتور عبد المجيد سيد أحمد منصور ص٨٣ ــ ٩١ الرياض ١٩٨٢م .

(٧٤) مبادىء علم الأصوات ديفيد ابركرومبي ص٣٨ .

والطبْق، والطبْق الليّن، والذولق (رأس اللسان)، وظهر اللسان، والحلق، والوتران الصوتيان، والقصبة الهوائية، واللهاة، والمري، والحنجرة(٧٥).

مما عرضنا يتبين لنا مدى الاتصال بين علم وظائف الأعضاء وعلم اللغة. فالعلمان يلتقيان في ملتقى واحد، إذ يدرس الأول آلية النطق بدراسته وظائف الأعضاء الناطقة، ويدرس الثاني اللغة التي تصنعها هذه الأعضاء الناطقة.

خامساً ـــ علم اللغة والتاريخ

اللغة كائن حيّ، يعرض له ما يعرض لكل مخلوق من البشر والحيوان والنبات. تعرو اللغة أعراضُ القوة والضعف، ويصيبها التغير والتطور، وتمرّ بمراحل من الانبعاث والاندثار، ولذلك تتصل دراستها بدراسة التاريخ. «إن علم اللغة ـــ شأن سواه من العلوم الاجتماعية ـــ علم تاريخي على نحوٍ ما. فاللغة التي هي موضوعه لا غنى في دراسة تطورها وصلتها بالمجتمعات، وفي دراسة انقسامها إلى لهجات، ودراسة ظهور اللغات العامية، لا غنى في دراسة ذلك كله وسواه عن الاستعانة بمعلومات من التاريخ»(٧٦).

وإذا انتقلت من التعميم إلى التخصيص، أي: من دراسة اللغات عامة إلى دراسة العربية خاصة، ثم من دراسة العربية كاملة إلى دراسة جوانب جزئية من ألفاظها أصواتاً وصيغاً ودلالات وجدت نفسك أمام الحقيقة نفسها، حقيقة الارتباط بين الدرس اللغوي والجذور التاريخية للغة. «إن دراسة التغير الصوتي في العربية تُعدّ دراسةً صوتية تاريخية، ودراسة صيغ الجموع العربية بتتبع توزيعها، ونسبة شيوعها في المستويات اللغوية المختلفة عن الفروق موضوعٌ من موضوعات علم الصرف التاريخي»(٧٧).

ويتضح لك الارتباط نفسه اتضاحاً جلياً في ميدان الدلالات، إذْ يقفك تطور دلالات الألفاظ على حقيقة أخرى تشبه الأولى، وهي أن طائفة كبيرة من الألفاظ تحاول المعجمات ترسيخ معانيها، وحماية دلالاتها من الانزلاق والتبدل، لكنها تمرد على سلطان المعجم، وتتحرك ذات اليمين وذات الشمال، وتكتسب في حركاتها دلالات جديدة، وهكذا «تعد دراسة التغير الدلالي، وما يرتبط بها من إعداد المعاجم التاريخية من أهم مجالات علم

---

(٧٥) مدخل إلى الألسنية. بول فابر، كريستيان بايلون ص١٢٤. ترجمة طلال وهبة بيروت ١٩٩٢م.

(٧٦) علم اللغة د. محمود السعران ص٧١.

(٧٧) مدخل إلى علم اللغة د. محمود فهمي حجازي ص٢٥.

اللغة التاريخي . والمعجم التاريخي هو ذلك المعجم الذي يعطي تاريخ كل كلمة من كلمات اللغة الواحدة ، ويؤرخ لها ابتداء من أقدم نص وردت به إلى آخر نص ، يتتبع دلالتها وتغيرها »(٧٨) .

سادساً ــ علم اللغة والجغرافية

لمّا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية تتحرك في إطار تاريخي ، ولما كانت كل لغة لسان أمة أو جماعة تعيش في وطن خاص بها فإن كل لغة تصطبغ بصبغة محلية تخلعها عليها الظروف والأنواء . « فلطبيعة البلاد وللبيئة الجغرافية في سهولها وجبالها ، ولون مناخها أثر في الثقافة . وهذا الأثر لا بدّ أن يترك نتائجه في المسألة اللغوية »(٧٩) .

ويتجلى تأثير الجغرافية في علم اللغة ، وفي الدراسات الحديثة ذات الصبغة العلمية خاصةً ، بأوجه متعددة ، أبرزها دراسة اللغة في إطار الموضع أو المواضع التي تحيا فيها اللغة « فتتناول الانتشار اللغوي ، ودخول اللغة إلى مناطق جديدة ، وتبحث أيضاً الانحسار اللغوي عن مناطق بعينها . فالعربية مثلاً كان لها على مدى قرون وجودٌ في الأندلس وإيران ، وكانت لغة ثقافة في شبه القارة الهندية »(٨٠) .

ويتجلى تأثير الجغرافية في علم اللغة بصورة واضحة حينما تتجه الدراسة اللغوية إلى البحث في العوامل المؤثرة في ظهور اللهجات . فكثيراً ما تنعكس طبيعة الأرض وخصائص المناخ على طبيعة النطق وصفات الأصوات . فسكان الجبال أقسى نطقاً من سكان السهول ، وبدو الصحراء يؤثرون الأصوات المجهورة على المهموسة ، ويحرصون على إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة ، ولو كان في إخراجها ما يعنتهم أو يشق عليهم . وإن أبيت إلا الاحتكام إلى أمثلة محسوسة ملموسة فحسبك أن تقارن بين لهجتين فصيحتين أو عاميتين من اللهجات العربية المسموعة لتقف على الفروق . فأهل دمشق رققت الغوطة بنهرها وشجرها ألسنتهم ، فتراخت عندهم حروف المدّ ، وغدت جيمهم كالشين . وأهل حلب قست لهجتهم لقسوة بيئتهم ، ولوقوع حاضرتهم على حافة البادية الجافة .

إن علم الجغرافية يستطيع أن يقدم التفسير الصحيح لأكثر من ظاهرة لهجية ، ولهذا

---

(٧٨) المصدر السابق ص٢٦ .

(٧٩) التطور اللغوي التاريخي د . إبراهيم السامرائي ص٣١ بيروت دار الأندلس ١٩٨٣م .

(٨٠) مدخل إلى علم اللغة د . محمود فهمي حجازي ص٢٥ .

يفزع إليه اللغويون ليستفتوه في إثبات ما يثبتون ، وتعليل ما يعللون من خصائص اللهجات .

سابعاً ــ علم اللغة وبقية العلوم

ذكرنا قبل أن الدراسات اللغوية في إطارها العلمي الحديث تعدّ علماً جديداً ، يحاول أن يبتعد عن التجريد ، وأن يقترب من التجريب . وهو في محاولته تلك ينأى عن الفلسفة ، ويساور علوماً أخرى ، لم يكن الأقدمون يظنون أنها موصولة النسب بعلم اللغة ، أو يمكن أن يكون بينها وبين الدراسات اللغوية رابطة جامعة ، أو تقارض في التأثر والتأثير .

وليس من المعقول أن تكتسب الدراسات اللغوية طابعها العلمي ما لم تقطع صلتها بالنظريات الفلسفية ، ولذلك عجب ليونارد بلومفيلد من صنع اليونان القدماء حينما ذهبوا إلى أن لغتهم تمثل الأشكال العامة للتفكير الإنساني كله ، لا للتفكير اليوناني وحده ، وحينما بالغوا في هذا المذهب ، فادّعوا أنها تبرز نظام الكون كله ، وشفعوا مذهبهم هذا بملاحظات نحوية خاصة بلغتهم اليونانية ، وأبرزوها في حلة فلسفية(٨١) .

وفي العصر الذي شهد ازدهار الثقافة اليونانية وسيطرة الفلسفة والمنطق على العلوم اللغوية ذهب فريق من اليونان إلى تفسير النحو بالمنطق ، حتى إن الرواقيين « أنصار زينون الذين كانوا يردّون كل شيء إلى المنطق رأوا أن النحو ينبغي أن يطابق المنطق ، وأن الأقسام النحوية ينبغي أن تطابق الأقسام المنطقية » . وفي هذه الآراء ما فيها من تعسف وتكلّف وصلف مما دفع الباحثين المحدثين إلى التململ ثم إلى التحلل منها ومن الفلسلفة التي أنجبتها .

وبعد أن انتزعت اللغة نفسها من قيود الفلسفة اتجهت نحو العلوم التي ذكرناها قبلُ ، ونحو علوم أخرى أقل تأثراً بها وتأثيراً فيها ، منها علم الأجناس البشرية ، أو علم أصل الجنس البشري وتطوره Anthropology إذْ ذهب بعض الباحثين إلى أن « كثيراً من المسائل المتعلقة باكتساب اللغة لا معدى في التعرض لها عن الاستعانة بعلم الأجناس البشرية (الأنثروبولوجيا) ، وبعلم الوراثة ، وبعلم الحياة العام »(٨٢) .

حتى الرياضيات لم تجد عاصماً يعصمها من مخالطة الدراسات اللغوية الحديثة ، إذ توخّت هذه الدراسات أن تنطوي على سبب أو نسب يشدها إلى الرياضيات ، أو يسخر الرياضيات لخدمتها . وإذا لم يكن هذا المطلب قد تحقق حتى يومنا هذا ، فإن طموح بعض

---

(٨١) انظر .Language, Leonard Bloomfield page 5 First Published in Great Britain 1935

(٨٢) علم اللغة د . محمود السعران ص٦٩ ــ ٧٠ .

الدارسين حمله على أن يقول: «ليس هناك مايمنع من تصور اللغة موضوعاً رياضياً أو اجتماعياً أو نفسياً، وبالتالي تصور اللسانيات جزءاً من الرياضيات»(٨٣).

وإذا كنا نصدق أن كل علم جديد يبدأ بالتصور، وينتهي بالتصوير فإننا نؤثر الأناة، ونرفض أن نعد التصور المتوقع علماً كما رفضت اللسانياتُ الحديثة الدراسات القديمة المضمخة بالفلسفة، والآراء المعيارية القياسية. وربما كانت مدرسة تشومسكي التحويلية التوليدية أكثر المدارس احتفالاً بالرياضيات، وأشدها كلفاً باستخدام المعادلات والأشكال الرياضية والرسوم البيانية في دراسة اللغة، ولا سيما الكلف بتحليل الألفاظ إلى مورفيمات(٨٤).

مما سبق عرضه في الفصلين السابقين يتبين لنا أن علم اللغة أخذ يشق طريقه نحو العلم، وأنه منذ تخيّر هذا الاتجاه راح يلقي عن منكبيه رداء الدرس النظري الفلسفي، ويكسر مايقيد معصميه من قيود المنطق، ويمضي طليقاً نحو العلم التطبيقي مستعيناً بأساليب الملاحظة والاختبار، متعاوناً مع العلوم الإنسانية والتجريبية، زاهداً في الدراسات المقتصرة على لغة واحدة، طامحاً إلى دراسة الموضوعات العامة التي يتسع صدرها للغات البشر كافة. وأول هذه الموضوعات نشأة اللغة. فكيف ظهرت اللغة الإنسانية، وما آراء الباحثين وتفسيراتهم المختلفة لنشأة اللغة وتطورها وتوزّعها؟

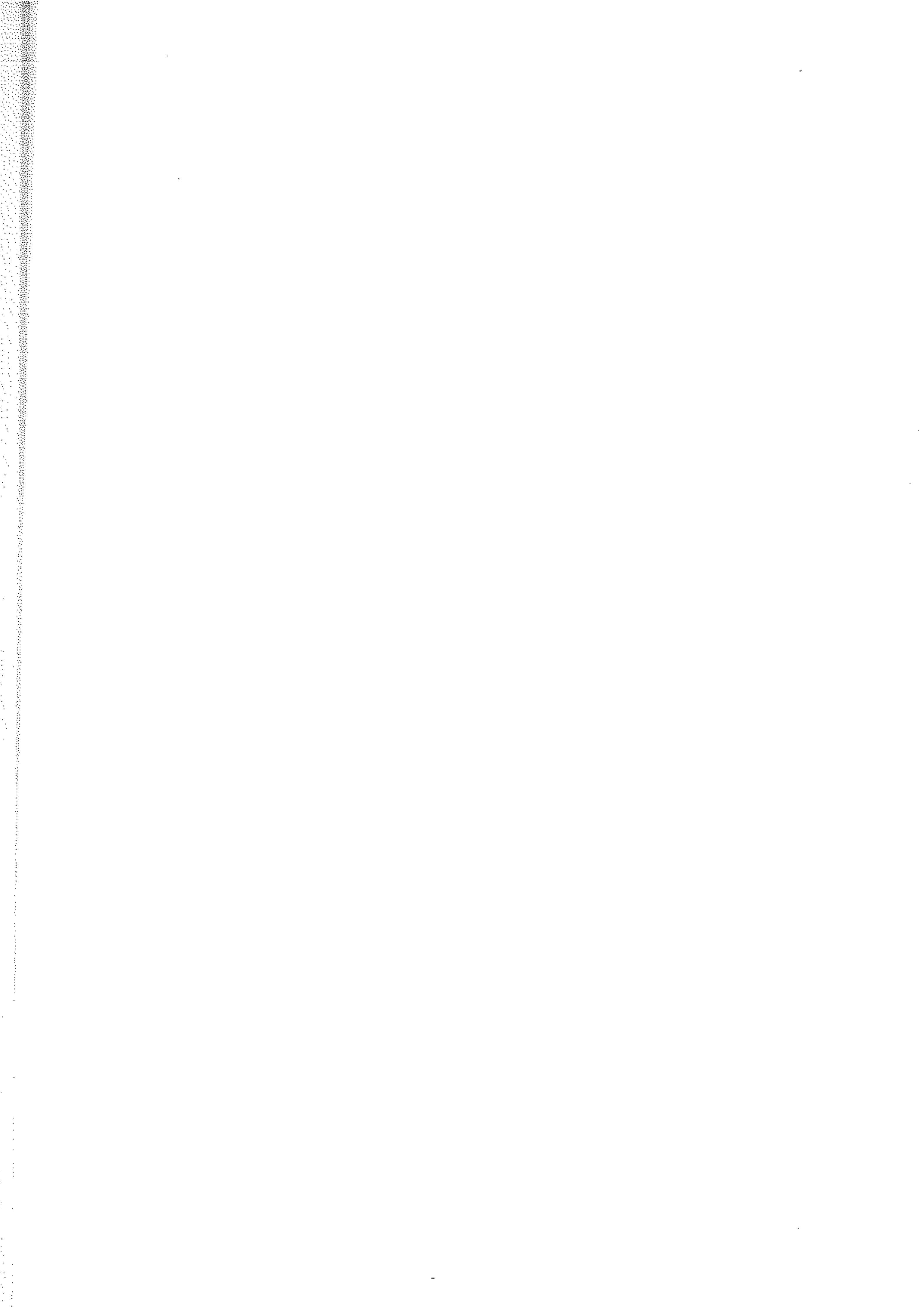
---

(٨٣) اللسانيات واللغة العربية د. عبد القادر الفاسي الفهري ص٤١ بغداد ١٩٨٥م.

(٨٤) تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه د. صبري إبراهيم السيد ص٨٠ ــ ٨٣ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٩م.

الباب الثاني

نشوء اللغات وتوزعها



الفصل الأول

نشأة اللغة

أولاً — قِدَم البحث في نشأة اللغة

لم تختلف آراء العلماء من قدماء ومحدثين في شيء كما اختلفت في هذا الموضوع: موضوع نشأة اللغة وأصلها. فقد كثرت فيه النظريات، وكثرت المحاورات، وقلّت النتائج، واضطر بعض العلماء آخر الأمر إلى طيّ المسألة، وإلى نصح الناس بأن ينصرفوا عن الخوض فيها لعقمها وضؤولة الفائدة منها، غير أن الناس — ونحن منهم — لم يأخذوا بالنصح، بل ظلوا يتساءلون عن سرّ اللغةِ حاملةِ الفكر وناقلته من جيل إلى جيل.

ولا يذهبن بك الظن إلى أن العلماء العرب من لغويين وفلاسفة وأصوليين هم السابقون الأولون إلى الخوض في هذا البحث. فإن ما عناهم من نشأة اللغة عنى غيرهم من أصحاب العقول في الأمم الأخرى، وفي العصور الضاربة في عمق التاريخ. «فمنذ هرقليطس وديمقريطس ومن قبلهما وجد البحث في أصل اللغة ونشأ الخلاف وتجذر»[1].

وبعد محاولات الإغريق التي لم تتمخّض عن نتائج تقبلها الشعوب الأخرى أدلى أحبار التوراة بدلوهم ليفسّروا نشأة اللغة على ضوء معتقداتهم، ووفق النصوص التي وجدوها في كتابهم المقدس، فلم يأتوا بما يقمع الجدال، فاستمرّ وتشعب، وظهرت نظريات كثيرة حاولت حلَّ الإشكال، وانتهى بعضها إلى ما يشبه المحال، فما أبرز هذه النظريات؟

---

(١) مجلة نهج الإسلام ص١١٠ العدد ١٣ حزيران ١٩٨٣م من بحث للدكتور عبد الإله نبهان.

ثانياً ــ الآراء والنظريات

تعددت آراء العلماء ونظرياتهم في البحث عن أصل اللغة، وتباينت دوافعهم وأساليبهم وفق تكوينهم الثقافي : فمنهم من استنزل اللغة من السماء، ومنهم من استنبتها من الأرض أو تصيّدها من أصوات الطبيعة، ومنهم من ربطها بالاجتماع المفضي إلى التواضع والوضع، أو بالانفعال الكظيم المؤدي إلى التنفيس عن الحسّ الحبيس، ومنهم من استعان على مناقشة الفكرة بما جدَّ في العلوم الأخرى، فانتهى إلى نظرية ادّعى أنها أوفر النظريات حظّاً من الصدق والعمق، وأقربها إلى الدقة والحق. وفي التعدد مجال للموازنة والترجيح.

آ) نظرية التوقيف أو الأصل الإلهي

إذا شئت أن تردّ هذه النظرية إلى مصدرها العربي الأول فردّها إلى تفسير مجاهد لقوله تعالى :

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾[٢]. قال مجاهد : « علمه اسم كل شيء »[٣]. وعن مجاهد نقل الطبري فقال : « إنها أسماء ذريته، وأسماء الملائكة »[٤].

ثم جاء المفسّرون وعلماء اللغة، فكان أحمد بن فارس اللغوي [ت : ٣٩٥هـ] أشدّ الناس تعلّقاً بهذه النظرية. قال : « أقول : إن لغة العرب توقيف »[٥]، واحتج بالآية السابقة. ولم يكتف بعزو الأصول إلى السماء، بل ذهب إلى أن اللغة العربية كلها أصولاً وفروعاً إلهية المنشأ، وأنها وصلت إلينا عن طريق الأنبياء على نحو متتابع حتى اكتملت بظهور الإسلام، فقال : « ثم علّم بعد آدم عليه السلام من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبيّاً نبيّاً ما شاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمّد ﷺ »[٦]. وهكذا اكتملت لغة العرب « ثم قرَّ الأمر قراره، فلا نعلم لغة من بعده حدثت »[٧].

---

(٢) البقرة ٣١.

(٣) تفسير مجاهد ص٧٢ تح عبد الرحمن الطاهر السورتي قطر ١٣٩٦هـ.

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ١/١٧٠ دار الفكر ١٤٠٥هـ.

(٥) الصاحبي في فقه اللغة لأحمد بن فارس تح سيد أحمد صقر ص٦ مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٧٧م.

(٦) المصدر السابق ص٧.

(٧) المصدر السابق ص٧.

وإذا شئت أن توغل في تاريخ النظرية إلى عهد أقدم من عهد العرب بها فَعُدْ بها إلى فلاسفة اليونان وأحبار اليهود تجد أن عزو اللغة اليونانية واللغة العبرية إلى مصدر إلهي رأيٌ رآه أكثر من عالم ، وتباهت بالأخذ به أكثر من لغة ، وأن آراء العرب لم تكن أكثر من حلقة في سلسلة هي تاريخ هذه النظرية .

وأعجب ما يثير العجب أن يتبنى اليونان هذه النظرية ، وهم وثنيون ، لا يؤمنون بدين سماوي أو بإله يعلم أنبياءه اللغة . ولعل اعتقادهم هذا مردود إلى إيمان فريق منهم بالمثالية التي آثرها أفلاطون على الواقعية الأرسطية . لقد اتهم أفلاطون البشر بالعجز عن صنع اللغة ، تلك المعجزة التي لم يستطع أن يجد لها تحليلاً وتعليلاً يقنعان العقل اليوناني ، ولهذا رأى « أن اللغة توقيفية ، لا يستطيع الإنسان إبداعها ، ولا تقوى إمكانياته على صنعها »[٨] .

ولم يكن أحبار يهود أضعف إيماناً بهذا المذهب ، فقد استنبطوا من التوراة أن اللغة صنع آدم وأن الله جبل الحيوانات والطيور من تراب الأرض ، ووضعها بين يدي آدم ، وأن آدم سماها بأسمائها . جاء في سفر التكوين : « فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها . وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها . فسمى آدم جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية »[٩] .

وإذا كان بين مذهبيْ اليهود والمسلمين من فرق فهو فرق يسير لا يمسُّ جوهر النظرية ، إذ يعزو الفريقان اللغة إلى غير البشر ، غير أن سفر التكوين يعزو وضعها إلى آدم بأمر من ربّه ، لأنه هو الذي سمى المخلوقات بأسمائها . والقرآن الكريم يرقى بها إلى الله عز وجلّ مصدر كل علم ، ويحصر عمل آدم وعلمه في تعليم ما تعلم ونقله من الله إلى الناس .

ب) نظرية محاكاة أصوات الطبيعة

يذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن الإنسان في نشأته الأولى ، وقبل أن يعرف اللغة حاكى أصوات الطبيعة الحية والجامدة . أصغى إلى أصوات الذئب والبعير والقطّ والرعد والبركان والريح . وقلّب هذه الأصوات في أذنه ، وردّدها بلسانه ، وصنع منها ألفاظاً تشبه في جرسها الأصوات الطبيعية وتدلّ عليها . ثم خطا في هذا الاتجاه خطوة أخرى ، فحمّل الألفاظ المحسوسة معاني مجردة ، فكانت اللغة .

ولما كان المصدر الذي استقت منه هذه النظرية مادتها الأولى هو الطبيعة التي يتساوى

---

(٨) دراسات في اللغة والنحو العربي ص٨ ــ ٩ حسن عون معهد البحوث مصر ١٩٦٩م .

(٩) سفر التكوين الأصحاح الثاني ٧ ــ ٢٠ المطبعة الأمريكانية ببيروت ١٩٤٨م .

في ملاحظتها العرب والأجانب فقد تساوى العرب والأجانب في اكتشاف هذه الحقيقة ، وبنوا عليها نظرات لا ترقى إلى درجة العلم .

ويُعَدُّ أبو الفتح عثمان بن جني [ت : ٣٩٢هـ] أبرز اللغويين العرب الذاهبين أو المؤيدين للذاهبين إلى أن لغات البشر بنات الأصوات الطبيعية . قال ابن جني : « وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدويّ الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونغيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل »[١٠] .

ومن الأجانب يُعدُّ العالم الألماني هَرْدَر من أبرز المنافحين عن هذه النظرية ، غير أنه رغب عنها فيما بعد لضعف الأساس الذي أقيمت عليه[١١] . صحيح أنك تجد الرقة في لفظتي وسوس وهمس ، وتجد القسوة في دقّ وطرق ، ولكنك لا تستطيع أن تربط هذه الألفاظ بأصوات محددة ، ولا تجد كل خشونة في الفعل مقرونة بخشونة في القول ، بل تجد اللفظ الرقيق كالسيف والرمس دالاً على أقسى المعاني ، وتجد اللفظ الجاسي كالبرقع والقطر والقلب دالاً على أرق المعاني . وهذا يعني أن الأمثلة القليلة التي تتصاقب فيها المعاني والألفاظ في العربية أو في الإنكليزية لا ترقى بهذا الرأي الفطير من أفق التخمين والرجم بالغيب إلى أفق اليقين والوصول إلى مرتبة العلم ، والقوانين تُبنى على الكثير المطرد لا على القليل والنادر .

ولا يخدعنك غلوُّ الغلاة في الانتصار لهذا الرأي ، ولا زعمُ من زعم أن التناسب بين اللفظ والمعنى أمر حتمي لارتباطه بالأصوات المفردة ، وارتباط الأصوات الإنسانية بأصوات الطبيعة . فالأمثلة القليلة التي ذكرها عباد بن سليمان الصيمري لا تقف حجة كافية أمام آلاف الأمثلة التي لم يذكرها ، والتي تأبى بناء هذه النظرية من القواعد .

وليس نقضها قاصراً على العرب وحدهم ، ولا الحجج التي دُمغت بها النظرية مستمدة من لغة العرب وحدها ، بل إنك لتجد أشدَّ المتعصبين لها في أول حياته وهو (هَرْدَر) أشدَّ المتنصلين منها في آخر حياته . وشبيه به في السخرية منها الألماني مكس مولّر[١٢] . وأقصى ما استطاعت هذه النظرية أن تفعله هو أنها استخرجت من كل لغة مجموعة من الكلمات أوحت مبانيها بمعانيها بعض الإيحاء ، وأنها استطاعت أن تظفر بمجموعة أقل من الأولى ،

---

(١٠) الخصائص لابن جني ١/٤٦ ــ ٤٧ .

(١١) المدخل إلى علم اللغة د . رمضان عبد التواب ص١١٢ .

(١٢) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص٦٣ وما بعدها .

تتقارب فيها المباني والمعاني برغم انتمائها إلى لغات مختلفة .

ج) نظرية الوضع والاصطلاح

إن لم تكن اللغة وحياً هبط من السماء إلى الأرض ، ولا إلهاماً نقله آدم عن ربه إلى البشر ، وإن لم تكن محاكاة استطاع الإنسان حينما مارسها أن يقلد أصوات الطبيعة ، فهل يمكن أن تكون اختراعاً صنعه البشر ؟

من المعرضين عن النظريتين السابقتين من ذهبوا إلى أن اللغة اختراع بشري خالص ، وأن الناس ـــ والقولُ لهؤلاء ـــ تواضعوا على أن يسموا الأشياء بأسمائها ، ثم تناقلت الأجيال هذه الأسماء ، واخترعت منها أو على طريقتها الأفعال والحروف وطوّرت ما اخترعته طوال قرون حتى اكتملت اللغة .

ومنهم من يجدون لما نقل عن سفر التكوين ، ولما نصّ عليه القرآن الكريم تأويلاً توفيقيّاً ، لا تعليلاً توقيفيّاً . فهم لا ينكرون الوحي ، ولا يغمطون الإنسان الأول عبقريته ، ولا يبخسونه جهده في صنع اللغة ، بل يذهبون إلى أن الله ألهم الناس القدرة ، فتواضعوا وصنعوا وأبدعوا . وهذا التفسير لا ينكر الوحي ، ولا ينكر الوضع ، فللغة أصلُها الإلهي ، وللإنسان إبداعُه المكمّل للوحي .

وربما كان ابن جني المتأثر بالاعتزال أوضح الأقدمين تعبيراً عن هذه النظرية بوجهيها المعتزل والمعتدل . فهو انطلاقاً من الاعتزال الذي يحتكم إلى العقل يقول : « ثم لنعد ، فلنقل في الاعتلال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحياً ، وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة . قالوا : وذلك كأنْ يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً إذا ذكر عرف به مسماه ليمتاز من غيره ، وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين »[١٣] .

وإيثاراً للاعتدال التمس ابن جني للنص القرآني تفسيراً يفضي به إلى المواضعة وينزع اللغة من التوقيف الإلهي ليغرسها في الاصطلاح البشري ، فقال : « إن أبا عليّ رحمه الله قال لي يوماً : هي من عند الله ، واحتج بقوله سبحانه : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾[١٤] . »[١٥]

---

(١٣) الخصائص ١/٤٤ .

(١٤) البقرة ٣١ .

(١٥) الخصائص ١/٤٠ .

فالقول بأن اللغة من عند الله اعتماداً على الآية الكريمة المذكورة هو قول أبي علي الفارسي، ولكن ابن جني لم يقف عنده، بل جاوزه، وفسّر الآية تفسيراً يُحمّلها معنى المواضعة فقال: «يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها»[١٦].

ولم ينج هذا المذهب من سهام النقد، وأنفذ هذه السهام أن المتواضعين في حاجة إلى لغة يتفاهمون بها، فإن لم يكن لديهم لغة سبقت اللغة التي تواضعوا على صنعها فكيف تواضعوا؟ وإن كانت لديهم لغة سابقة فمن الذين صنعوا اللغة السابقة، وكيف صنعوها؟

والسهم الثاني أن هذا المذهب لا يستند إلى سند عقلي أو نقلي، ولا يشفع له ناموس من نواميس التطور أو نظام من الأنظمة الاجتماعية «وعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً، ولا تخلق خلقاً، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها»[١٧].

د) نظرية التنفيس الانفعالي

فحوى هذه النظرية أن اللغة الإنسانية الأولى نشأت من أصوات عفوية فطرية أطلقها الإنسان الأوّل تعبيراً عن سرور أو نفور، وترجمة لقبول أو رفض، وبوحاً بحبّ أو بغض. ثم تطورت هذه الأصوات المنفعلة، فآضت الصرخاتُ كلمات فاعلة، ثم غدت الكلمات جملاً مفيدة.

نقل فندريس هذه النظرية عن أصحابها، وذكر تصوّرهم لما وقع قبل آلاف السنين. لقد زعم هؤلاء أن دماغ الإنسان كان عاجزاً عن صنع الكلمات، فنفّس عن نفسه بالصراخ، ومن التنفيس عن الحسّ الحبيس المشوب بالحركة، وبالغناء المصاحب للعمل وُلدت الكلمات الأولى، ثم تحولت هذه الكلمات إلى رموز تعبر عمّا يصحب العاطفة من فكرة، وراحت هذه الرموز تنتقل من سلف إلى خلف، فكانت اللغة[١٨].

وأبرز السمات التي توسم بها هذه النظرية قيامُها على افتراض متخيّل، «تبدو عليه مخايل الصدق، وإن لم يكن ممّا يمكن البرهان عليه»[١٩]، ثم التصاقُها بشعور الإنسان، وصدورها الفطري عنه على نحو يخلو من التعقيد. وأخذها بالتدرج البطيء الذي يسم الظواهر الاجتماعية.

---

(١٦) الخصائص ١/٤٠.

(١٧) المدخل إلى علم اللغة د. رمضان عبد التواب ص١١١.

(١٨) انظر اللغة لفندريس ص٣٨ وما بعدها.

(١٩) المصدر السابق ص٣٩.

«ومع كل هذا فإنها نظرية ناقصة وغامضة : أما نقصها فلأنها لا تبين منشأ الكلمات الكثيرة التي لا يمكن ردُّها إلى أصوات انفعالية . وأما غموضها فلأنها لا تشرح لنا السرّ في أن تلك الأصوات الساذجة الانفعالية تحولت إلى ألفاظ أو أصوات مقطعية . فلهذين الأمرين انصرف عنها اللغويون ، وسخر منها مكس مولّر كذلك»[٢٠] .

هـ) نظرية الملاحظة والمحاكاة العملية

يذهب صاحب هذه النظرية ، وهو العالم الألماني غيغر Geiger إلى أن اللغة الإنسانية الأولى نشأت من الملاحظة والمحاكاة .

يعني بالملاحظة ملاحظة الإنسان أخاه الإنسان ، وهو يعمل ويتحرك ، ويعبّر عن معاناته في أثناء العمل بإشارات إرادية أو غير إرادية تأتيها جوارحه ، أو بانفعالات ترسمها قسمات وجهه ، أو بأصوات ــ والأصوات أهمُّ من الحركات ــ يطلقها فمه ، مرافقةً لأعماله ، مشفوعةً بإشارات تزيد أصواته وضوحاً في التعبير ، وقدرة على التأثير ، فتثبت في ذهنه الأصوات مقرونة بإشاراتها ، ويزيدها التكرار المستمر رسوخاً في النفس والذهن ، ثم تتحول إلى عادات مألوفة .

ويعني بالمحاكاة ما يعيده المشاهِد من أصوات المشاهَد مقرونة بحركاته ، إذا قُيّض له أن يلابس ما لابسه من تجربة وانفعال . وتفسير المسألة أن الملاحظة المستمرة تحمل من الممارس إلى المراقب موقفاً عملياً مشفوعاً بحالة نفسية ، وتعبير لغوي صوتي . وهذه المؤثرات المتعددة الأوجه تتخذ مكانها من نفس المراقب ، فيتأثر بها تأثراً آلياً ، كما يتأثر المراقبُ بالمتثائب فتعديه الثؤباء ، وكما يحاكي الصغيرُ الكبيرَ وفق قانون المحاكاة المنعكسة ، فتتجلى على وجهه أمارات التأثر ، وتندّ عن فيه أصوات عفوية تشبه أصوات الممارس . فإذا تكررت المواقف بدأت الأصوات تفارق الحركات ، واستقلالُها عنها قمين بتحويلها إلى رموز لغوية . فتكون اللغة[٢١] .

ومما سوّغ هذه النظرية في رأي واضعها أنه وجد في اللغات الأوروبية ألفاظاً متحدّرة من أصول قديمة موغلة في القدم ، بعضُها إغريقي ، وبعضُها سنسكريتي ، تفصح عما ذهب إليه ، إذ ارتبطت دلالاتها بالعمل الملائم لها ، أو بالشيء الذي يقع عليه العمل ، أو بالآلة المستخدمة في إنجاز هذا العمل . وهذا الاقتران يعني ببساطة أن اللغة وليدة العمل أو المحاكاة للأصوات المرافقة للعمل .

---

(٢٠) انظر كتاب المدخل إلى علم اللغة د. رمضان عبد التواب ص١١٧ وما بعدها .

(٢١) المصدر السابق ص١١٨ .

وإذا كنا ــ نحن العرب ــ لا نحسن لغات الإغريق والهنود ونعجز عن أن نتخير أمثلة مناسبة توضح هذه النظرية، فإن في العربية ما يفي بالحاجة. وحسبُك أن تستعرض أسماء الآلات العربية لتقف على ما يشبه هذه الظاهرة ظاهرة الاقتران بين العمل واللفظ، فإن كثيراً من الآلات في فصحانا جمع اشتقاقه بين لفظ الفعل وعمل الآلة، فالمطرقة للطرق، والمقرعة للقرع، والمنشار ينشر الخشب والمشرط يشرط الجلد، والمنظار يعينك على النظر. فلو لم يكن العمل مصدر اللغة ما احتفظت العربية بهذه الظاهرة.

وتستطيع أن تأخذ على هذه النظرية مآخذ، منها أنّها لا تقدّم قاعدة مطّردة يمكن تطبيقها على الكلام كله، بل تقدم قانوناً محدوداً تصدّقه أسماء الآلات، وتشذّ عليه طوائف كثيرة من الألفاظ ذوات الدلالات الحسية، وأكثر الألفاظ ذوات الدلالات المجردة. ومنها «أنها لا تستطيع أن توضح لنا بأسلوب مفهوم معقول كيف وُضعت تلك الأصول العامة الأولى التي يقول صاحب النظرية: إنها تتعلق بأعمال الإنسان أو إشاراته، والتي يعدها الكلمات الأولى التي اشتُقّ منها غيرها من الكلمات»[٢٢]. وآخر المآخذ أن النظرية شكل مطور محور للنظرية الثانية نظرية محاكاة الأصوات الطبيعية، الأولى ردت الكلمات إلى محاكاة الأصوات، وهذه قرنت الأصوات بالحركات، وكلتاهما لم تجاوز مرحلة الافتراض المتوهَّم المفتقر إلى الأدلة القاطعة.

و) نظرية الاستعداد الفطري

جوهر هذه النظرية أن الإنسان يمتلك القدرة على التعبير عن عواطفه وأفكاره بألفاظ يصوغها صوغاً عفوياً، وأن هذه القدرة كامنة فيه يفيد منها عند الحاجة. ويذهب مكس مولّر صاحب هذه النظرية إلى أن هذا الاستعداد الفطري شبيه بآلية الساعة التي تحرك النوابضُ عقاربها. ومما حمل مولّر على القول بما قال ملاحظته الأطفال يسمون الأشياء التي لم يتعلموا أسماءها بألفاظ يبتكرونها، لأن الحاجة تدفعهم إلى التعبير الفطري عمّا يراودهم من خواطر «فاستنبط من ملاحظته هذه أن الإنسان مزود بتلك القوة التي تنشأ عنها الألفاظ»[٢٣].

وفي هذه النظرية ثغرات غفل عنها صاحبها: أولها أن اللغة وعاء الفكر، ولا يمكن صنع اللغة بالطريقة الآلية التي تتحرك وفقها عقارب الساعة. وثانيها أن اللغة لو كانت بنت الفطرة

---

(٢٢) المدخل إلى علم اللغة د. رمضان عبد التواب ص١١٨.

(٢٣) المصدر السابق ص١١٧.

لتساوى الناس في الكلام لتساويهم في الغرائز وفي الملكات الفطرية . فلما اختلفت لغاتهم ولهجاتهم دلّ اختلافها على أنها ليست فيضاً عفوياً كما تدّعي هذه النظرية . وثالثها أن القدرة الفطرية الكامنة في نفس الإنسان المنطوية على ألفاظ مدخرة ولا تستيقظ من مرابضها إلا عند الحاجة أمرٌ متوهَّم . فمن أين هبطت هذه الذخيرة اللغوية على الإنسان ؟

ز) نظرية التطور اللغوي

لك أن تعد هذه النظرية بنت نظرية داروين Darwin في النشوء والارتقاء . فبعد أن نشر داروين نظريته في التطور العام خُيّل إلى أصحاب نظرية التطور اللغوي أن اللغة نشأت وتطورت على نحو بطيء يشبه المراحل التي يمرُّ بها الطفل في تعلمه الكلام ، وهي خمس مراحل :

أولاها مرحلة الأصوات العفوية التي كان الإنسان الأوّل يطلقها كما يطلق الوليد أصواتاً لا معنى لها ، تدل على أن أعضاءه الناطقة لم تزل غضة عاجزة عن الأداء السليم .

والثانية مرحلة إصدار الأصوات الانفعالية المشفوعة بإشارات كان الإنسان الأول يرسلها من فمه لتساعده على ترجمة رغباته ، وهي تعادل ما يستطيع الرضيع أن يصدره من الأصوات في عامه الأول للتعبير عن خوفه من الغرباء والاطمئنان في حضن أمه ، والفرح بمقدمها .

وثالثة المراحل مرحلةُ الأصوات المقطعية . وفي هذه المرحلة كان الإنسان الأول يكرر أصواتاً من مقطع واحد على النحو الذي يصنعه الطفل في ثلاثة الشهور الأولى من عامه الثاني ، فيلغو بأصوات من نحو : ما ، ما ، با ، با ... ولا يفتأ يكررها حتى تستقرّ في لسانه .

وفي رابعة المراحل انتقل الإنسان الأول من المقاطع إلى الكلمات ، أي : صنع من المقاطع الأحادية الجرس كلمات ، تتضمن الواحدة منها أكثر من مقطع واحد . وفي هذه المرحلة صنعت البشرية ألفاظاً متنوعة المقاطع والأصوات ، فجاءت أتمَّ من سابقتها . وكلامها هذا يشبه كلام الطفل في عامه الثاني ، ويدلّ على أن عقله وفمه أخذا يكتملان .

وفي المرحلة الخامسة ــ وهي خاتمة المراحل ــ اكتملت اللغة ، وانتقل الإنسان من القرزمة إلى الإبانة ، ومن صنع الكلمات البسيطة إلى الجمل المفيدة ، ثم إلى اختراع اللغة الكاملة بالمواضعة . وفي هذه المرحلة برهن الإنسان على نضج العقل ، واكتمال الأعضاء الناطقة ، والتهيؤ لصنع الحضارة . وأثبت أنه اكتسب قدراً عظيماً من الثقافة والمعرفة . وبعدها لا قبلها نستطيع أن نقول مطمئنين إلى ما نقول : إن الإنسان الأول راح بعد تاريخ طويل من التطور ، يصنع المصطلحات العلمية ، ويسمي الأشياء بألفاظ يبتكرها ، ويستودعها علومه

ومعارفه . وهذه المرحلة تعادل انتقال الطفل من البيت إلى المدرسة ليدرس العلوم والآداب والفنون(٢٤) .

ومن خصائص هذه النظرية إخضاعُها اللغة للتطور ، شأنها في ذلك شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى . وربطُها نموَّ اللغة بالظروف المحيطة بالإنسان ، وجعلُ تقدم اللغة وارتقائها تعبيراً عن تقدم الإنسان وارتقائه في جوانب الحياة المختلفة ، وإجراءُ نوع من التوازن بين التفكير والتعبير ، وفتحُ الأبواب أمام الابتكار والتجديد على أساس الاشتقاق والتوليد ، ومدُّ الجسور والقنوات بين اللغة وأوجه النشاط الفكري المختلفة ، والتخلص من النظرة الأحادية التي تعلل نشأة اللغة بعلة واحدة على النحو الذي تجلى في أكثر النظريات الأخرى .

قد تكون هذه النظرية أوسع أفقاً ، وأشمل نظراً من أخواتها ، وأحرص على الإفادة من جوانب الحياة المختلفة . لكنها ، كأخواتها ، لا تبرأ من النقد . فأنت تستطيع أن تأخذ عليها قيامها على أساس متخيل ، وقع كما تصوره أصحاب النظرية ، لا على أساس واقعي ، وقع كما تصور أصحاب النظرية وقوعه قبل ألوف السنين . ومنذا الذي يزعم أن كل ما يتصوره الإنسان حق ، ولو كان هذا الإنسان من علماء اللغة ؟(٢٥) .

والمأخذ الثاني أنه لو كانت هذه المراحل الخمس ، كما فصّلها مفصّلوها ، صحيحة كل الصحة لوجدنا القبائل البدائية التي لقيها المكتشفون في إفريقية والأمريكيتين تصنع لغاتها على هذا النحو ، فترقى بها بعد أن أخذت بأسباب الرقي . إن الذي وقع بالفعل هو أن هذه القبائل تخلت عن لغاتها ، وبعض هذه اللغات من ثلاثمائة كلمة ، واتخذت اللغات الأوروبية ، كما تخلت عن السهام والقسيّ وتسلحت بالبنادق والمسدسات .

وخلاصة القول في سبع النظريات السابقة التي حاولت أن تفسّر نشأة اللغة ، هي :

١ ــ نظرية التوقيف استوحت اللغة من السماء .
٢ ــ نظرية المحاكاة استخرجتها من تقليد الإنسان لأصوات الطبيعة .
٣ ــ نظرية الوضع والاصطلاح صنعت اللغة من العقل وبالعقل .
٤ ــ نظرية التنفيس عن الانفعال الحبيس استلهمتها من القلب .
٥ ــ نظرية المحاكاة العملية ربطت اللسان باليد ، واللغة بالعمل .
٦ ــ نظرية الاستعداد الفطري جعلت اللغة نشاطاً آلياً تقتضيه الحاجة الطارئة .

---

(٢٤) للوقوف على هذه المراحل مفصلة انظر المدخل إلى علم اللغة د . رمضان عبد التواب ص١١٩ وما بعدها .
(٢٥) انظر المصدر السابق ص١٢٢ .

٧ ــ نظرية التطور قرنت نشأة اللغة بنشأة الإنسان ، وتطورها بتطوره . ولم تنظر إلى اللغة بعين واحدة ، أو من زاوية واحدة .

وخلاصة الخلاصات في هذه النظريات كلها أن كلّ واحدة منها عاجزة عن تفسير نشأة اللغة ، وأن لكل منها أنصاراً وخصوماً ، وخصائص ونقائص .



الفصل الثاني

توزع اللغات وفصائلها

أولاً ـــ ابن جني يعلل تعدد اللغات

إذا عللنا نشأة اللغة بالعلل التي توصلت إليها نظرية المواضعة والاصطلاح فإن هذه العلل تضع بين أيدينا أسباب تعدد اللغات الإنسانية، وعوامل توزعها وتفرعها إلى فصائل وفروع منبثة في أنحاء الأرض، لأن هذه النظرية تعني أن كل مجتمع من المجتمعات القديمة كان قد تواضع على لغة خاصّة به.

وإذا أخذنا بنظرية التوقيف القائلة: إن اللغة الإنسانية إلهية المنشأ فهذا الأخذ يعني أن الناس جميعاً كانوا يتكلمون لغة واحدة، هي العربية أو السريانية أو لغة أخرى، نقلها آدم إلى بنيه. فما الذي جعل اللغة الواحدة المستوحاة من السماء لغات متعددة متوزعة على سطح الأرض، على هذا النحو الذي نجده اليوم، أو على النحو الذي وجده من كانوا قبلنا؟

يجيب ابن جني [ت: ٣٩٢هـ] عن هذا السؤال إجابة غير شافية، إذْ يذكر كلاماً يعزوه إلى غيره، ويذهب فيه قائله إلى أن الألسن المختلفة كلها توقيف، فيقول: «إن الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية، والفارسية، والسريانية، والعبرانية، والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات. فكان آدم وولده يتكلمون بها. ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا، وعلق كلّ منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه، واضمحلّ عنه ما سواها لبعد عهدهم بها»[١].

ثم يعلق ابن جني على هذا الرأي تعليقاً يوحي بأنه يتنصل من تبعته. وفي هذا التعليق

---

(١) الخصائص ص٤١.

تمريض وروغان يدلان على تردد أبي الفتح في قبوله ، فيقول : « وإذا كان الخبر صحيحاً قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده ، والانطواء على القول به »[٢] .

ثانياً ــ أسباب التعدد عند الباحثين المحدثين

عللت الدراسات الحديثة تعدد اللغات ، أو تحوّل اللغة الواحدة إلى لغات متعددة تعليلاً آخر ، إذ رأت أن لانقسام اللغة إلى لغات عوامل كثيرة منها انسياحُ اللغة في أقاليم واسعة من الأرض ، وبعد أن تنساح اللغة يفلت الزمام من أيدي الحراص على الوحدة اللغوية ، فتنشعب اللغة إلى لهجات ، وتتخذ كل لهجة سمات خاصة تميزها من أخواتها ، ثم تنقلب اللهجة مع مرور الأيام إلى لغة مستقلة[٣] .

ولا تنبع هذه السمات اللهجية التي تحوّل اللهجات إلى لغات من اتساع الأرض فحسب ، ولا من وجود حواجز طبيعية بين الناطقين بها كالجبال والأنهار والبحار فحسب ، بل يؤثر فيها ضعف السلطة المركزية . فمتى عجزت الحكومة المركزية عن الحفاظ على الوحدة السياسية راحت الدولة الكبرى تتحول إلى دويلات ، واللغة الأم إلى لغيّات .

فإذا أضفت إلى تأثير الأرض والسياسة تأثير الفروق الاجتماعية والأعراف والتقاليد ، وتأثير العرق واللون والثقافة والدين أدركت أن الانقسام واقع ، وأن وقوعه مرهون بعوامل تصنعه . ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾[٤] . ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين﴾[٥] .

إن تعدد اللغات آية من الآيات ، وحسبك دليلاً على صحّتها أن الإحصاء التخميني أبلغ عددَ اللغات في العالم إلى أكثر من ثلاثة آلاف لغة . فالمقلُّ من العلماء ذكر أن البشر يستخدمون (٢٥٠٠) لغة ، والمكثر ذكر أنهم يستخدمون (٣٥٠٠) لغة .

وهذه اللغات متفاوتة في أعداد الناطقين بها ، فالصينية يربو أبناؤها على مليار ناطق ، والكمشدالية (لغة سكان جزيرة كمشاتكا) لا يزيد الناطقون بها على ألفي ساكن . « وقد ظهر من الإحصاء الذي نشره تسنبير عام ١٩٢٨م أن تسعة وعشرين لساناً فقط كان لكل

---

(٢) الخصائص ص٤١ .

(٣) انظر معالم اللهجات العربية د . عبد الحميد محمد أبو سكين ص٣٠ وما بعدها القاهرة ١٩٧٨م .

(٤) هود ١١٨ ــ ١١٩ .

(٥) الروم ٢٢ .

منها ما يزيد على عشرة ملايين ناطق . أما عدد الألسن التي لها ثقافة من نوع ما فهو لا يزيد على سابقه إلا قليلاً . إذ ليس في العالم إلا خمسون لساناً فقط لها أدب مكتوب . وينخفض هذا العدد إلى نصفه إذا كنا بصدد الألسن ذات الأهمية من حيث اتساع رقعة الأرض التي تنتشر فيها ، أو من حيث الإنتاج الأدبي والعلمي الذي يكتب فيها »[٦] .

ومما سبق عرضه « يتبين خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء لغة عالمية (اسبرانتو Esperanto) يتحدث بها الناس جميعاً »[٧] ، لأن هذه اللغة « لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التي تخضع لها اللغات الطبيعية ، والتي خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان »[٨] .

ثالثاً ــ اللغات بين التعدد والتوحُّد

إن التفكير في إنشاء الاسبرانتو لتغدو اللغة الإنسانية الجامعة ضربٌ من التحدي للنواميس اللغوية . فإن فيه من الحماسة والغرور مثل ما في التعصّب للغة القومية حرصاً على الوحدة الثقافية للأمة . غير أنك تستطيع أن تستثني من هذه النواميس لغتنا العربية التي يعدُّ استمرارها موحدة معجزة نادرة ، كأن الناطقين بها هم المقصودون بما بعد (إلّا) من قوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾[٩] .

ومما يؤيد ظاهرة الإعجاز في اللغة العربية موت أترابها ولداتها من اللغات القديمة ، وبقاؤها وحدها حية فتية قوية . وتحوُّل اللهجات المتفرعة عن اللغات القديمة ، كاللاتينية ، إلى لغات قومية رسمية للناطقين بها ، وبقاءُ اللهجات العامية في الوطن العربي مسوخاً لا يُقرّهن نظام حاكم ، ولا يكتب بهن علم أو أدب .

« فاللغة الهندية الأوروبية الأولى قد انشعبت في ضحى الإنسانية إلى مجموعات كثيرة ... وقد بقيت اللاتينية مدةً لغةَ أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منها (الفرنسية ، الإيطالية ، الاسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا) لكنها لم تلبث أن تنحَّتْ عن ذلك بعد أن اكتمل نموّ هذه اللغات »[١٠] .

---

(٦) الوجيز في فقه اللغة محمد الأنطاكي ص٦٩ دار الشروق بيروت ١٩٦٩م .
(٧) علم اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص١٧٨ .
(٨) المصدر السابق ص١٧٨ .
(٩) هود ١١٨ ــ ١١٩ .
(١٠) علم اللغة علي عبد الواحد وافي ص١٧٢ .

ولا يفهمن مما سبق أن البنيات المتحدّرات من اللغة الأم يتدابرن ، فلا تبقى بينهن صلة جامعة ، أو يتنافرن ، فيعيا الباحث بالوقوف على ما بينهن من نسب ، بل يحافظن على قدر كبير من التشابه في المفردات والتراكيب والأصوات كما تتشابه الوجوه والجسوم والقسمات في أبناء العشائر المتفرعة من قبيلة واحدة . ولذلك تسمى كل مجموعة من المجموعات اللغوية المتشابهة فصيلة . فما الأسس التي اعتمد عليها الباحثون المحدثون في تمييز فصيلة لغوية من فصيلة أخرى ؟ وما أشهر الفصائل التي اكتشفوها ؟

رابعاً ــ الفصائل اللغوية

من أهم الأسس التي اعتمد عليها الباحثون في تصنيف اللغات وتقسيمها إلى فصائل مقدارُ التشابه أو التباين بين لغات الفصيلة الواحدة « في الكلمات وقواعد البنية والتركيب »[(١١)] ، أي : « أوجه الاتفاق أو الاختلاف في المفردات وقواعد الصرف والنحو »[(١٢)] وما يجمع بين لغات الفصيلة الواحدة من « روابط جغرافية وتاريخية واجتماعية »[(١٣)] . وأشهر النظريات في هذا الميدان نظريتان : نظرية ماكس مولر M. Muller ونظرية شليغل Schlegel .

آ) نظرية مولّر

أقام مولر نظريته على أساس علمي استنبطه من العناصر التي تتألف منها اللغات ، واعتمد في تصنيفه على مدى التقارب أو التباعد بين الألفاظ والأصوات والتراكيب . فتبين له أن طوائف من الألسن تتشابه في هذه العناصر كما يتشابه أبناء الأسرة الواحدة ، فحمله هذا التشابه على تقسيم اللغات الإنسانية إلى فصيلتين كبريين : فصيلة الألسن الهندية الأوروبية ، وفصيلة الألسن السامية الحامية ، ومجموعة ثالثة لا تدخل في هاتين الفصيلتين سماها فصيلة اللغات الطورانية .

١ ــ فصيلة الألسن الهندية الأوروبية : تضم هذه الفصيلة كثيراً من الألسن بعضها حيٌّ فتي واسع الانتشار ، وبعضها قديم شاخ ، فأهمله بنوه وحفدته ، أو كادوا يهملونه . وأبرز لغات هذه الفصيلة : الإغريقية ، واللاتينية ، والإيرلندية ، والروسية ،

---

(١١) دراسات في فقه اللغة د . صبحي الصالح ص٤١ دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٣م .

(١٢) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص٧٢ .

(١٣) دراسات في فقه اللغة ص٤١ .

والفارسية ، والسنسكريتية ، والأرمنية . واللغات المتفرعة عن اللاتينية ، وأهمها : الإيطالية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا . ومن اللغات الهندية الأوروبية لغات أوروبا الشرقية : البولونية والبلغارية والتشيكية والليتوانية . ومنها كذلك اللغات الجرمانية : الألمانية والهولندية والسويدية والدانيمركية . ومنها أيضاً اللغات الكلتية : الإنكليزية ولغة بريتاني (غربي فرنسا)[١٤] ... الخ .

وتستطيع أن تلخص ما عرفت به لغات هذه الفصيلة بالأمور التالية :

١ ـــ موطنها الأول أوروبا الشرقية أو بحر البلطيق .

٢ ـــ الألسن المنتمية إليها شديدة الاختلاف ، واختلافها الشديد يجعلها كأنها فصائل متباينة .

٣ ـــ بعضها جمد فلم يتطور كالليتوانية ، وبعضها تطور وازدهر كالإنكليزية والفرنسية والألمانية .

٤ ـــ الناطقون بها مختلفون في ألوانهم وأديانهم وثقافاتهم .

٥ ـــ الغزو الاستعماري نشرها في القارات الثلاث أمريكا وأوروبا وأستراليا وأجزاء من آسيا وإفريقية .

٢ ـــ فصيلة الألسن السامية الحامية : يدلّ الاسم الذي سمي به مولر هذه الفصيلة على أنها تضم مجموعتين : مجموعة اللغات السامية ، ومجموعة اللغات الحامية ، وتنطوي كل مجموعة منهما على عدد من اللغات نفصلها ونفرّعها على النحو التالي :

١) مجموعة اللغات السامية ، وهي شعبتان :

آ ـــ شعبة الساميات الشمالية وفروعها : الأكادية ، والآشورية ، والآرامية ، والكنعانية التي تفرعت إلى اللغتين العبرية والفينيقية .

ب ـــ وشعبة الساميات الجنوبية ، وفروعها : العربية ، واليمنية القديمة ، والحبشية السامية .

٢) مجموعة اللغات الحامية ، وهي ثلاث شعب :

آ ـــ الشعبة المصرية وتضم اللغتين : المصرية القديمة ، والقبطية .

ب ـــ الشعبة الليبية أو البربرية وتضم القبلية (لغة الجزائر القديمة) والشاوية (في الجزائر) والتماشكية (في صحراء المغرب) والشلحية (في جنوب المغرب قديماً) والجونشية (في شمال الصحراء الكبرى) .

ج ـــ الشعبة الكوشيتية (في قسم من شرق إفريقية) .

---

(١٤) انظر الوجيز في فقه اللغة ص٧٢ وما بعدها . وعلم اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص١٩٧ وما بعدها .

وإليك سمات الفصيلة السامية الحامية :

١ ــ موطنها الأول بلاد العرب ثم الجهتان الشرقية والشمالية من إفريقية .

٢ ــ الناطقون بها متجانسون يتلاقون في الأنساب ويتقاربون في الأوطان ، ويتفقون في أساليب الحياة ، وفي النظم الاجتماعية ، وفي طبيعة الحضارة بصورة عامة .

٣ ــ مجموعة اللغات السامية أشد تجانساً من المجموعة الحامية ، ويبلغ التشابه أحياناً حدّ التطابق في جذور الألفاظ وفي الأصوات وقواعد النحو حتى تبدو كأنها لهجات متفرعة من لغة واحدة .

٤ ــ المجموعة الحامية يعوزها التجانس ، وأوجه الاختلاف أظهر من أوجه الشبه ، حتى كأن الاسم لا الخصائص عنصر الوحدة الذي يجمعها .

٥ ــ العربية أقوى الساميات والحاميات ، والدليل على قوتها طمسها اللغات القديمة وبقاؤها ، وسيادتها في بقاع شاسعة ، وتأثيرها في اللغات المجاورة كالفارسية والهندية والتركية ، وانتشارها بين المسلمين في العالم كله[١٥] .

٣ ــ فصيلة الألسن الطورانية : تضم هذه الفصيلة مجموعة من اللغات لا يمكن إلحاقها بالفصيلتين السابقتين ، وأبرزها اللغة الصينية التي ينطق بها أكثر من مليار ناطق ، واليابانية ، والتركية والمغولية . ومن يقرن خصائص هذه اللغات بعضها ببعض يدرك أنه ليس بينها ما يجمعها في إطار واحد ، أو ما يسوغ تسميتها باسم واحد ، وأهم سماتها :

١ ــ الناطقون بها أكثر من الناطقين بالفصيلة السامية الحامية وأقل من الناطقين بالفصيلة الهندية الأوروبية .

٢ ــ ليس بين الشعوب الناطقة بها جامعة من نسب أو عقيدة أو حضارة .

٣ ــ ليس بين عناصرها اللغوية من أصوات ومفردات وتراكيب تشابهٌ يسوغ جعلها فصيلة واحدة . أي : أن اللغات التي تنتمي إليها تفتقر إلى مقومات الوحدة ، فالتسمية شكلية لا علمية[١٦] .

وخلاصة القول في نظرية مولر أنها قدمت للباحثين تصنيفاً تقريبيّاً يستعينون به على دراسة اللغات وتقسيمها إلى فئات . ولكنها لم تُقِمْ هذا التصنيف على أساس علميّ مستمد

---

(١٥) انظر الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص٧٤ ــ ٧٥ وعلم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٢٠١ وما بعدها .

(١٦) انظر علم اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص٢٠٦ ــ ٢١٦ فإن فيه دراسة مفصلة لهذه الفصيلة .

من عناصر اللغات : أصواتها ، وألفاظها ، وتراكيبها ، وأساليبها . وإذا كانت قد أصابت حظّاً من النجاح فنجاحُها يعود إلى دقتها في دراسة فصيلة واحدة أو شعبة واحدة من فصيلة واحدة ، هي شعبة اللغات السامية . وهذه الدقة لا تدلّ على مقدرة الباحث وحسب ، بل تدلّ كذلك على ما في اللغات السامية من ترابط ، وما في العربية من خصائص وضعت بين يدي مولر وأمثاله من الباحثين عناصر الدراسة جاهزة ، فوفق في دراستها ، ولم يوفق في دراسة الفصيلتين الأخريين .

ب) نظرية شليغل

يبدو أن شليغل Schlegel حاول ، وهو يصنف لغات البشر ، أن يستدرك ما فات مولر من أسس راسخة ، ينهض عليها التقسيم ، وأن يستمد مبادئه من عناصر اللغات . ولهذا أقام نظريته على أساسين : أحدُهما علمي يستنبط من طبيعة اللغة ، والآخر تاريخي يتألف من الزمن الذي ظهرت فيه اللغة ، والمراحل التي شهدت تطورها من طفولتها إلى شبابها ونضجها .

أما الأول فجوهره تحليل اللغة أصواتاً وألفاظاً وجملاً وصرفاً ونحواً لمعرفة العلاقة بين المبنى والمعنى . وأما الثاني فغايته أن يحث الباحث على مقارنة اللغات المتباينة في الخصائص ، ليعرف أيها السابقة وأيها اللاحقة . والاعتماد على هذين الأساسين أفضى بشليغل إلى التصنيف الثلاثي التالي :

١ ـــ **اللغات المتصرفة أو التحليلية** : أهمّ ما يميز هذه اللغات أن ألفاظها متصرفة ، تتغير أبنيتها تغيراً اشتقاقياً ، فيتولّد بعضها من بعض ، وتتغير معانيها بتغير أوزانها وصيغها . فمن (العِلْم) تشتق : علمَ ، يعلمُ ، تعلّم ، استعلم ... وغيرها من الأفعال ، والعالم والمعلوم والمتعلم ... وغيرها من الأسماء ، ولكل منها صيغة ودلالة . وأبرز اللغات المتصرفة اللغات السامية وأكثر الساميات تصرفاً العربية . ومن هذه اللغات أيضاً « الفارسية ، والهندية ، واللاتينية ، والإغريقية ، والجرمانية » .

٢ ـــ **اللغات اللصقية أو الوصلية** : سمتها الأولى أن ألفاظها تبنى بناء لصقياً ، أي : بإضافة مقطع إلى أول الكلمة ، ويسمى هذا المقطع سابقة Prefix ، أو مقطع إلى نهايتها ، ويسمى هذا المقطع لاحقة Sufixe . وبهذه السوابق واللواحق تغنى اللغات ، وتزداد مفرداتها ، وتتغير معانيها . ومن اللغات المنتمية إلى هذه الفصيلة « التركية ، والمنغولية ، والمنشورية ، واليابانية ، ولغات الباسك » .

٣ ـــ **اللغات العازلة** : تتألف الألفاظ في هذه اللغات من كلمات تلزم كلٌّ منها صورة ثابتة

لا تتغير، وتحمل دلالة واحدة لا تتبدل. وهذه اللغات تفتقر إلى الأدوات الرابطة التي تصل أجزاء الجملة بعضها ببعض، وتعتمد في تحديد المعاني، وفي ربط الكلام على ترتيب المفردات في الجملة الواحدة، أو على السياق العام. ومن اللغات الآخذة بهذا الأسلوب اللغة الصينية، ولغة التيبت[١٧].

وإذا أردت أن ترتب هذه الفصائل الثلاث ترتيباً زمنياً فقل: أقدمها ظهوراً اللغات العازلة، ثم اللغات اللصقية، وفي نهاية المطاف ظهرت اللغات المتصرفة، وهي، وإن كانت الأخيرة في الظهور، تُعدّ الأولى في النماء والارتقاء.

ومع أن نظرية شليغل حاولت أن تصنف اللغات تصنيفاً علمياً مستمدّاً من خصائص اللغات، فإنها لم تبرأ من الهنات، ولم تنج من النقد، إذ أخذ عليها النقاد عدة مآخذ أبرزها مأخذان:

أولهما أنها لم تتوصل في التصنيف إلى مقياس دقيق، إذ تجد العزل واللصق والتصريف سمات عامة في سائر اللغات، غير أن بعضها يرجح سمة على أخرى. فالعربية، على سبيل المثال، لغة متصرفة لكنها لا تخلو من الإلصاق كصياغة أكرم من كرم بإضافة الهمزة. ولا تخلو من العزل، نحو: ضرب أخي صديقي لاختفاء حركتي الإعراب، وتمييز الفاعل من المفعول بالاعتماد على الترتيب.

وثانيهما أن الترتيب الزمني افتراض تخميني، لا حقيقة يقينية. فربما كانت إحدى اللغات المتصرفة أسبق ظهوراً من بضع لغات عازلة أو لصقية.

وخلاصة القول في نظريتي مولر وشليغل أن اللغة ظاهرة إنسانية معقدة، وتعدد اللغات زاد في تعقيد السمات، ولهذا عجزت النظريتان كلتاهما عن الوصول إلى تصنيف علمي دقيق، تُسلك فيه اللغات الإنسانية كلها، غير أننا ــ ونحن نقرُّ بما أخذ على النظريتين ــ نتقبل تصنيف مولر، ونجعله منطلقاً إلى دراسة الفصيلة السامية، ثم إلى دراسة لغتنا العربية ضمن هذه الفصيلة.

---

(١٧) للوقوف على تحليل واف، ونقد شاف لنظرية شليغل انظر الوجيز في فقه اللغة، لمحمد الأنطاكي ص٧٠ وما بعدها، وعلم اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ص١٩٥ وما بعدها.

الفصل الثالث

اللغـات الساميـة

أولاً ـــ تصنيف اللغات السامية وأشهر دارسيها .

ذكرنا قبل أن اللغات السامية والحامية إحدى الفصائل اللغوية الإنسانية ، ونزيدها توضيحاً فنقول : « هي جملة من اللغات كانت شائعة منذ أزمان بعيدة في بلاد آسيا وإفريقية ، سواء منها ما عفت آثاره وما لا يزال باقياً إلى الآن »[١] ، وتقسم بحسب اندثارها وازدهارها ثلاث زمر :

١ ـــ زمرة اللغات المندثرة ، وهي التي انطوت فلم يبق منها إلا عبارات يسيرة ، ومثالها الكنعانية القديمة .

٢ ـــ زمرة اللغات ذوات النصوص المكتوبة ، وهي التي انحسرت عن الحياة اليومية ، وخلفت نصوصاً مكتوبة تدل عليها ، وأكثر نصوصها نقوش تحفظها ألواح الحجارة والفخار ، ومثالها الأكادية ، والسبئية .

٣ ـــ زمرة اللغات الحية المزدهرة ، وهي التي أوتيت من القوة ما حفظ لها البقاء ، وأمدها بعوامل النماء ، وأقواها العربية ، وتليها العبرية ، والسريانية ، والحبشية السامية[٢] .

ويجمع الباحثون المحدثون على أن أول من سماها باسمها (اللغات السامية) هو العالم الألماني شلوتسر Shlozer في بحث نشره عام ١٧٨١م . ثم شاعت هذه التسمية »[٣] . ولكن السبق إلى التسمية لا يعني السبق إلى الدراسة . فقد عني العرب المسلمون أو من عايش

---

(١)   تاريخ اللغات السامية ، إسرائيل ولفنسون ص٢ مصر ١٩٢٩م .

(٢)   مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية ، د . هاشم الطعان ص٣ العراق ١٩٧٨م .

(٣)   المصدر السابق ص٣ .

المسلمين من اليهود بدراسة ما تدعو الحاجة إلى دراسته من اللغات السامية غير العربية .

ورد في الأثر «أنه كانت ترد على رسول الله ﷺ كتب بالسريانية ، فأمر زيداً فتعلمها » . و« ذكروا أن أبا سليمان داود بن إبراهيم الفاسي ألف معجماً ضخماً للغة العبرية ، يقع في مجلدين ، وجعل شرحه للألفاظ بالعربية »[٤] . ومن يعد إلى مروج الذهب للمسعودي يجد فيه ذكراً « لأسماء شهور السريانيين ، ولوصف موافقتها لشهور العرب »[٥] . وقد نقر الدكتور هاشم الطعان عما أسهم به علماء العرب القدماء في هذا الميدان ، فتحصل له قدر وافر من الإشارات والأخبار الدالة على أن العرب لم يغفلوا عن دراسة اللغات السامية ، ولا عن مقارنتها بلغتهم العربية[٦] . ولكنهم لم يبلغوا في هذا الميدان مبلغ الدارسين المحدثين من عرب ومستشرقين .

ومع ازدهار النهضة الأوروبية واكتشاف الآثار والأوابد والألواح الحجرية التي نقشت عليها نصوص باللغات السامية ، ومع تنافس المؤسسات العلمية والتعليمية والإعلامية في السيطرة على الشرق ازدهرت الدراسات الشرقية ، وازدهرت معها دراسة اللغات السامية ، وراحت الجامعات في أسبانيا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا تنشيء الكراسي المتخصصة بتدريس اللغات العربية والعبرية والسريانية ، مدفوعة إلى ذلك كله بمطامع استعمارية ، ومشفوعة بنوازع دينية ، أو بدوافع بابوية .

ومن أشهر الدارسين الغربيين الذين عنوا بدراسة اللغات السامية رينان Renan ونولدكه Noldeke وريت Wright وزيمر Zimmer وبروكلمان Brokelman[٧] . ومن يراجع كتاب (المستشرقون) للدكتور نجيب عقيقي يجد فيه عشرات الدارسين من هذه الطبقة المتخصصة ، أو من طبقة أدنى منها ، ويجد مئات البحوث والكتب التي تناولت بالتأريخ والدرس والتحليل والمقارنة لغات الشرق السامية[٨] .

ثانياً ــ أقدم اللغات السامية

ذكرنا قبلُ أن شلوتسر أطلق على مجموعة اللغات التي كانت شائعة في القسم الجنوبي

---

(٤) المصدر السابق ص٨ .

(٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ٢/١٧٨ دار الأندلس بيروت .

(٦) الفصل الأول من (مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية) .

(٧) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٤ ــ ٥ الطبعة السادسة دار نهضة مصر القاهرة .

(٨) انظر (المستشرقون) لنجيب عقيقي دار المعارف ١٩٨٠م .

الغربي من آسيا وفي القسم الشمالي الشرقي من إفريقية اسم (اللغات السامية) . ومع أن هذه التسمية لم تنج من نقد العلماء الآخرين ، فقد شاعت ، ودل شيوعُها على أنها « أصلح وأدق ما اهتدى إليه العلماء »[٩] .

ومما يسوغ قبول هذه التسمية أنك لو قارنت مجموعة الشعوب الناطقة بفصيلة اللغات السامية بمجموعات الشعوب الناطقة بالفصائل اللغوية الأخرى لوجدت شعوب المجموعة السامية أكثر تجانساً في الأعراق والأخلاق ، وأشد تقارباً في الأمكنة والألسنة . غير أن شرف الفوز بالبذرة السامية الأولى أو بالجذر السامي الأول موضع تنافس ، إذ يتنازع قصب السبق أكثر من شعب ، وأكثر من أرض . وآراء العلماء في هذا الميدان يمكن تقسيمها إلى مجموعتين : إحداهما ضعيفة تعوزها الأدلة المرجحة ، والثانية قوية تستند إلى أدلة معقولة .

١ ــ تضم مجموعة الآراء الضعيفة ثلاثة أقوال :

أولها يذهب إلى أن الساميين الأوائل هم أهل الحبشة ، ومن باب المندب رحلوا عنها إلى جزيرة العرب .

وثانيها أنهم ظهروا في أعلى إفريقية ، فلما كثروا نفروا إلى أدنى آسيا .

وثالثها أنهم من أرمينيا جارة كردستان . وليس بين هذه الآراء رأي واحد يرقى من أفق التخمين إلى أفق اليقين .

٢ ــ وتضم مجموعة الآراء القوية ثلاثة أخرى ، تستند إلى أدلة تاريخية وشواهد حضارية ترجحها :

أولها رأيٌ رآه غويدي Guidi وخلاصته أن المهد الأول للساميين هو القسم الجنوبي من العراق[١٠] ، ودليله مجموعة من الكلمات السامية القديمة متصلة أشدّ الاتصال بطبيعة جنوب العراق مبثوثة في اللغات السامية كلها . وهذا يعني أن تلك الألفاظ خرجت مع الموجة السامية الأولى التي نزحت من العراق ، ثم ثبتت في الألسنة السامية الأخرى بعد أن تشكلت واستقلت . غير أن نولدكه رفض هذا الرأي . وحجته أن نظرية خطيرة في مثل هذا الشأن ، ولها مثل هذا الوزن لا يمكن إثباتها ببضع كلمات . ومما يجعل حجة غويدي داحضة أن في اللغات السامية ألفاظاً كثيرة لا صلة لها بمنطقة العراق الجنوبية ، وهي من الكلمات التي تشترك الساميات في استخدامها . وهذا يعني أن السامية الأولى لم تخرج من سواد العراق إلى المناطق التي تجاوره .

---

(٩) الوجيز في فقه اللغة ص٨٠ .

(١٠) فقه اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص٦ .

وثاني الآراء القوية أن المهد السامي الأول سورية لا العراق . ففي بلاد الشام ازدهرت حضارة كنعان منذ أزمنة موغلة في القدم ، لأن التاريخ لم يرو ، فيما روى ، أن سورية شهدت حضارة أقدم من حضارة الكنعانيين . أما القسم الجنوبي من العراق فتابع في الحضارة لا متبوع ، إذ سبقت حضارته الأكادية حضارةٌ أخرى هي حضارة سومر ، والسومريون أنفسهم نازحون من سورية لا عراقيون . فإذا أخذنا بهذا الرأي ثبت لنا أن السوريين الكنعانيين أسبق الساميين إلى الحضارة ، أي أنهم المبتكرون الأوائل للغة السامية الأولى . وعنهم أخذ السومريون والأكاديون هذه اللغة ، ثم غيروا وطوروا قبل مولد المسيح عليه السلام بنحو ثلاثين قرناً .

وثالث الآراء القوية وأقواها قول من قال : إن المنابت الخصبة الأولى للسامية والساميين بلاد نجد والحجاز واليمن . وبهذا الرأي أخذ أكثر المستشرقين ، وعلى رأسهم رينان الفرنسي ، وبروكلمان الألماني[١١]،وشفعوا رأيهم بأدلة تاريخية وجغرافية ولغوية ، تثبت أن أرض العرب التي أهدت العالم الإسلام بعد المسيح بستة قرون هي التي أهدت العالم اللغة السامية الأولى قبل المسيح بقرون كثيرة .

أما الدليل التاريخي فخلاصته أن الهجرات البشرية كانت تسير في اتجاه واحد ، إذْ تخرج من اليمن والحجاز إلى العراق والشام على نحو متواتر . فمن هذه البقاع خرج الساميون السابقون إلى سومر في العراق ، وأقاموا حضارة بابل . ومنها خرج الساميون اللاحقون إلى سورية ، فشادوا حضارة كنعان . ومنها خرجت ثمود ، فأقامت حضارة خاصة بها في القسم الشمالي من الحجاز . ومنها خرج بنو قيدار ، فبنوا مدائن صالح ، ثم اتجهوا نحو خليج العقبة فعمروه وحضروه . ومنها نبت بنو نابت المعروفين باسم النبط ، فشادوا دولة الأنباط في القسم الجنوبي من بلاد الشام . ومنها خرج الغساسنة إلى جِلّق ، والمناذرة إلى الحيرة . وآخر الهجرات وأبقاها أثراً ، وأوسعها حضارة تلك التي انبثقت من الحجاز مع انبثاق الإسلام ، فكانت هذه الموجة خير أمة أخرجت للناس ، وبقيت لغتها خير لغة أنجبتها السامية ، وأرقاها حتى يومنا هذا .

وأما الجغرافيون فيقولون — والقول بلسان الأمير كيتاني دوتيانو Caetani De Teano[١١] — : إن الجزيرة العربية من اليمن إلى الحجاز فنجد كانت كثيرة النبات والأقوات ، ثم حلّ بها الجدب بعد الخصب ، فنزح أكثر الخلق إلى الشمال ، نحو بردى والعاصي والفراتين ، وحملوا معهم فيما حملوا لغتهم أم اللغات السامية .

---

(١١) المصدر السابق ص٩ .

وأما الدليل اللغوي فجوهرُه أن اللغات السامية بنات البداوة ، والبداوة بنت الشمس الدائمة البزوغ ، وأم الصراحة الكارهة للغموض ، والعربية ألصق الساميات بهذه السمات ، ولهذا كثرت في مفرداتها الألفاظ الحسية ، حتى إنك لتستطيع أن تردّ أعمق الألفاظ المجردة ، وألصقها بالعقل والنفس إلى أمور حسية . فالعقل نفسه من عقال الجمل ، والنفْس من النَّفَس المتردد في الصدر ، والروح من رواح الريح وغُدوِّها ، والعفو عن الذنب متحدر من الريح التي تعفو آثار الديار . كل ذلك يدل بلا ريب على أن العربية هي السامية الأولى ، وعلى أن المهد الأول للساميين هو الهلالُ الذي أعلاه نجد ، وقوسه الحجاز ، وأدناه اليمن .

وإذا رجح لديك أن جزيرة العرب مهدُ الساميين الأوائل ، فقد رجح لديك كذلك أن لغتهم أمُّ اللغات السامية . غير أن هذا الرجحان لا يعني أن أمّ الساميات هي عربية امرىء القيس والشنفرى ، وإنما هي الجدة العجوز السحيقة الغور في تاريخ هذه البلاد . وهذه الجدّة الولود كانت قد تمخضت عن لهجات قبلية كثيرة ، تحولت فيما بعد بعوامل الانفصال والاستقلال ، واختلاف الأمكنة والأزمنة من لهجات إلى ألسنة ، هي الأكادية والكنعانية

وحرصاً على توضيح الروابط التي تشد هذه اللغات بعضها إلى بعض ، وفروعها إلى أصولها رأينا أن نسلكها في مخطط مشجّر ، يتيح للقارىء بالنظرة العجلى أن يعزو كل بنت إلى أمها . وقد استنبطنا هذا المخطط الذي أسميناه (شجرة اللغات السامية) من بحث مفصل للدكتور علي عبد الواحد وافي[١٢] ومن مخططين : أحدهما للدكتور رمضان عبد التواب[١٣] ، والآخر للأستاذ محمد الأنطاكي[١٤] .

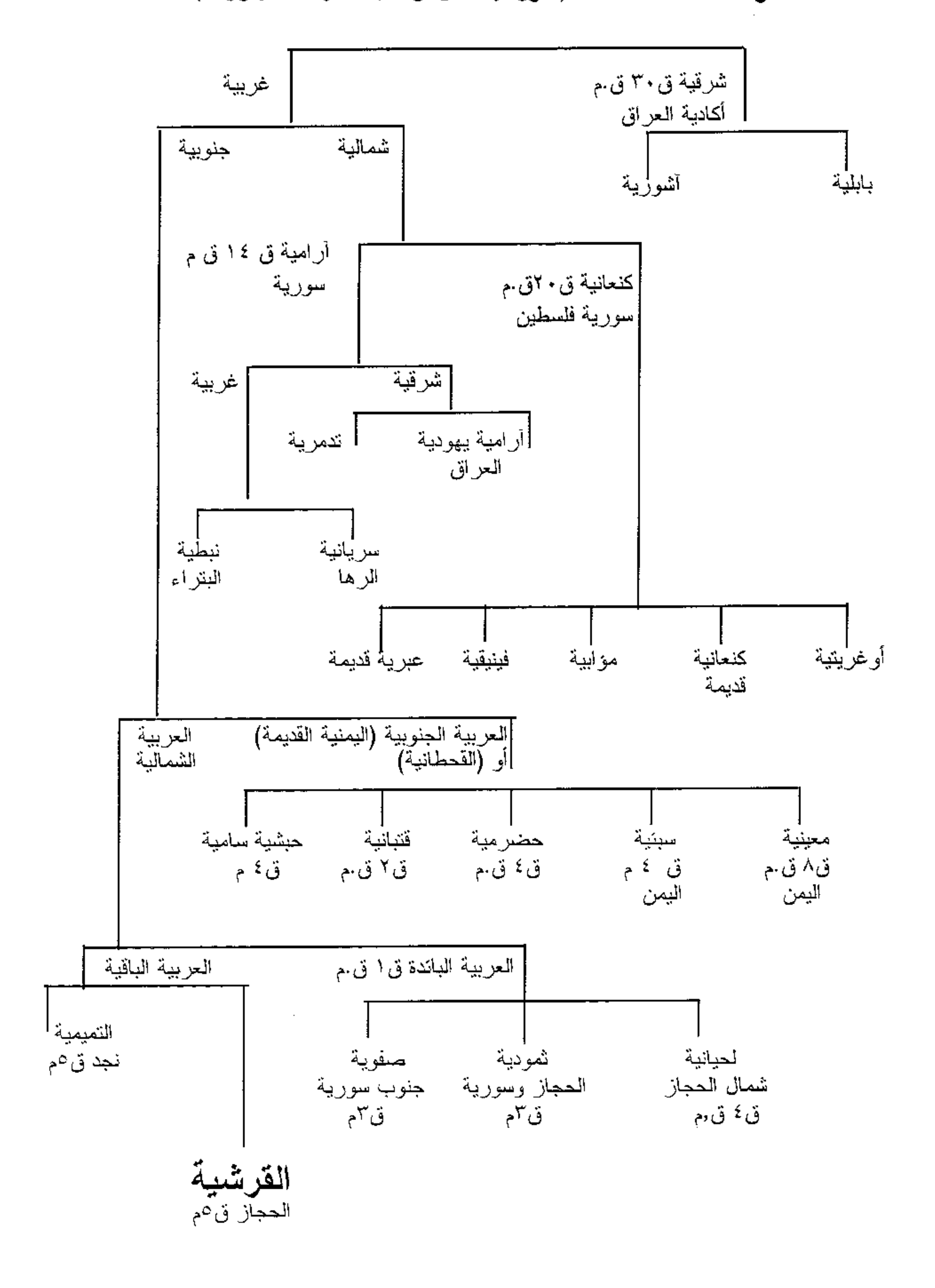
---

(١٢) فقه اللغة ص١٥٧ .

(١٣) فصول في فقه اللغة العربية ص٣٦ .

(١٤) الوجيز في فقه اللغة ص١٤٥ .

ثالثاً ــ شجرة اللغات السامية (فروعها ، ومواطنها ، أزمنة ظهورها)



رابعاً ـــ أبرز اللغات السامية

سواء أكانت العربية الأم الكبرى للغات السامية أم البنت الصغرى لها، فحسبها وحسب الناطقين بها شرفاً إجماع المستشرقين المنصفين على أن أهلها قدموا للبشرية أكثر من موجة مهاجرة، شادت أكثر من حضارة، وابتكرت أكثر من لغة، بعضها ساد ثم باد، وبعضها ما زال حيّاً قوياً يثبت حيوية هذه الفصيلة من البشر ومن الألسنة، كما يبرهن على خصبها الحضاري المتجدد الذي لم ينفد مخزونه منذ أربعين قرناً حتى يومنا هذا.

ولما كانت شجرة اللغات السامية كثيرة الأفنان مثقلة بالثمار اليابسة واليانعة ففي عرضها كلها إطالة وملالة، ولذلك تخيرنا ما نظن أنه أجدر من سواه بالعرض والموازنة.

آ) اللغة الأكادية(١٥)

في الألف الرابع قبل الميلاد شاد السومريون ـــ وهم شعب غير سامي ـــ بين نهري دجلة والفرات دولة مزدهرة. وفي الألف الثالث غزا هذه الدولة الأكاديون، وهم شعب سامي خرج من جزيرة العرب، ويمم شطر العراق، واجتاح بلاد سومر، ومن امتزاج السومريين والأكاديين وعلى أنقاض سومر المنهارة نهضت دولة بابل، ثم دولة آشور. أشهر الزعماء البابليين حمورابي [ت: ٢٠٨١ق. م](١٦) صاحب القوانين المشهورة، ونبوخذ نصر صاحب الحدائق المعلقة، وأشهر ملوك آشور تفلث قلاصر الأول رجل السيف المحارب الغليظ الكبد، وآشور بانيبال باني النهضة وراعي الأدب [ت: ٦٢٦ق. م](١٧). ومع أن دولة آشور ورثت دولة بابل، ومع أن بناة الدولتين ساميون متحدرون من عرق واحد، فقد كان لكل دولة منهما لغتها وأدبها وفنونها. وسمى الباحثون المحدثون كلتا اللغتين باسم واحد هو اللغة الأكادية.

لولا التنقيب عن آثار الدولتين الذي أظفر المنقبين بالنقوش المكتوبة ما كشف النقاب عن اللغة الأكادية. «وأول من بدأ الحفر في بلاد الرافدين هو بوتّا Botta قنصل فرنسا في الموصل عام ١٨٤٢م... ثم توالت الاكتشافات بعد ذلك، وشارك فيها كثير من علماء

---

(١٥) في بعض المصادر ترسم أكدية بحذف الألف ورسمها في المصادر الأجنبية Akkad والمنسوب إليها Akkdian أي أكادي.

(١٦) قصة الحضارة، ول ديورانت ١٨٨/٢.

(١٧) المصدر السابق ٢٩٩/٢.

الآثار الفرنسيين والإنكليز والأمريكان ، مثل باروت Parot ولايارد Layard ومالون Mallown »[18] .

وفي عام ١٨٤٧م استطاع الباحث هنري رولنسن H. Rawlinson أن يحلّ رموز الكتابة الأكادية حينما وجد صخرة نقشت باللغات الثلاث : الفارسية والآشورية والبابلية ، فكانت منزلة هذه الصخرة في علم اللغات كمنزلة حجر رشيد في الكشف عن لغة الفراعنة .

ومن يتعقب أطوار اللغة الأكادية بفرعيها البابلي والآشوري يجدها أربعة أطوار :

في الطور الأول (في القرن العشرين قبل الميلاد) سادت البابلية .

وفي الطور الثاني (من القرن العشرين إلى القرن السابع قبل الميلاد) ضعفت دولة بابل وظلت لغتها سائدة .

وفي الطور الثالث (طوال القرن السادس ق . م) سقطت الدولة في قبضة الفرس ولم تسقط لغتها .

وفي الطور الرابع فرض الآراميون المغيرون على العراق لغتهم على بابل ، فانهزمت الأكادية ، وتحولت إلى لغة دين وأدب[19] .

ب) اللغة الكنعانية وما تفرّع منها

يرجح الباحثون المحققون أن الكنعانيين شعبٌ سامي ، نزح من اليمن والحجاز إلى فلسطين وسورية ، وأنه بدأ مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد ينشىء ممالك قوية ، أخذ سلطانها يمتد حتى شواطىء أوروبا الجنوبية . وأشهر الشعوب الكنعانية الفينيقيون والعبريون :

آ ــ **الفينيقيون ولغتهم** : لم يبرع الفينيقيون في شيء براعتهم في التجارة والكتابة ، وتفوقُهم في الأولى يسّر لهم سبل التفوق في الثانية . فقد تمخضت تجارتهم التي وصلت إلى رأس الرجاء الصالح عن ثراء عريض ، حتى قيل عن مدنهم : « إن الذهب فيها كالوحل ، والفضة كالتراب »[20] . وحملتهم التجارة المزدهرة على ابتكار وسيلة كتابية سريعة ، فاخترعوا أعظم المخترعات الثقافية وهو الرسم الأبجدي ، أي الكتابة بالحروف Alphabet .

أهم خصائص هذه الكتابة استخدام الرموز أي الحروف التي يرمز كل حرف منها

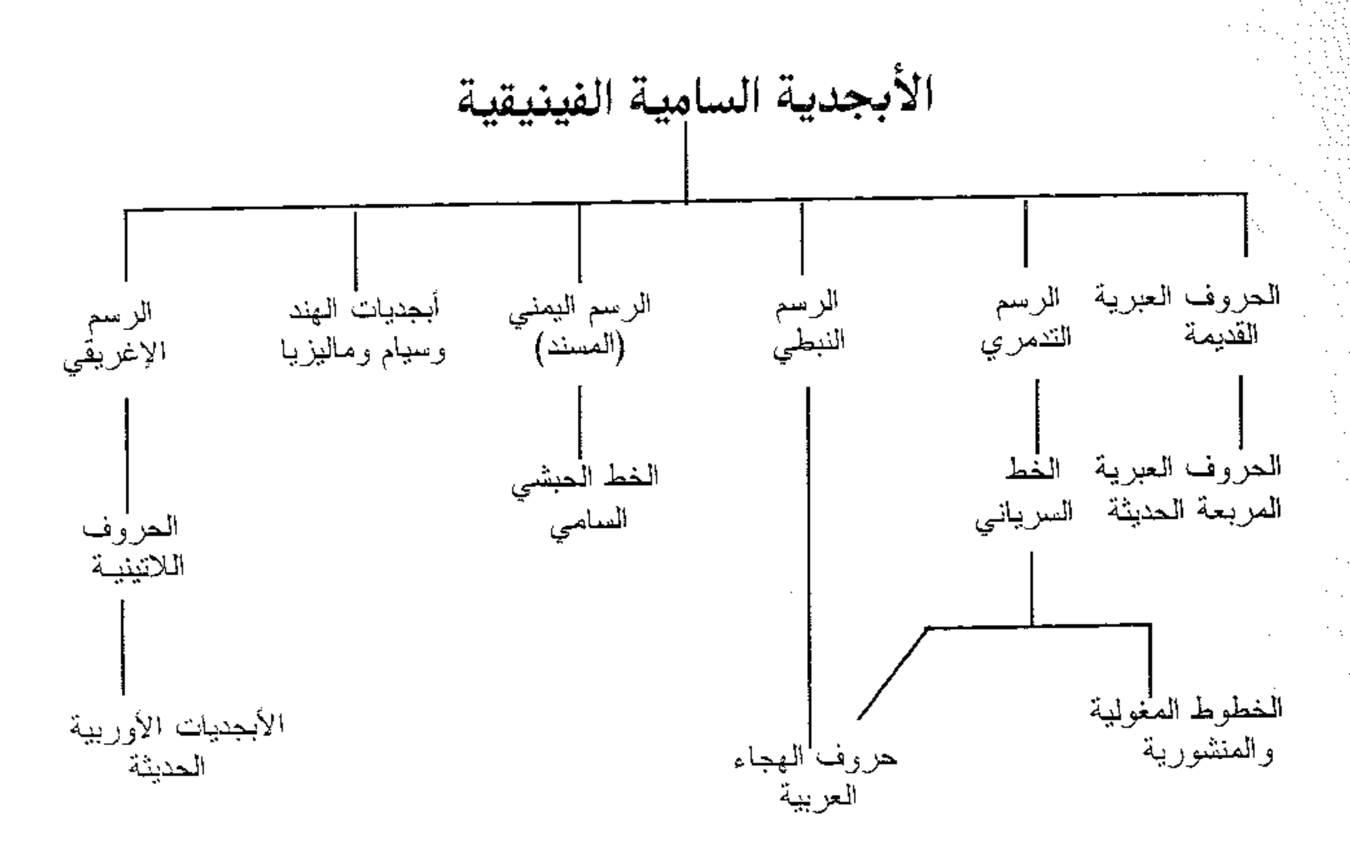
---

(١٨) فصول في فقه اللغة ص٢٦ .

(١٩) انظر فقه اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص٢٨ ــ ٢٩ .

(٢٠) قصة الحضارة ٣١٤/٢ .

لصوت . وهذا الأسلوب يُعدُّ «أسرع الأساليب وأدناها إلى الكمال»(٢١) . ولذلك برّت الأبجديةُ الفينيقية الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة ، والخطّ المسماري الأكادي . فشاعت وتقبلتها الشعوب واللغات ، وتفرعت منها «جميع حروف الهجاء التي استخدمت فيما بعد في مختلف اللغات الإنسانية»(٢٢) ، على النحو الذي يوضحه هذا التخطيط الذي يسمى شجرة الأبجدية السامية الفينيقية :



وكان المؤرخون يظنون أن الأبجدية الفينيقية ولدت مع مولد القرن التاسع قبل الميلاد ، ودليلهم نقش يعود إلى سنة ٩٠٠ ق . م صنعه الملك المؤابي (ميشع) ليسجل فيه بالأبجدية الفينيقية انتصاره على ملك اسرائيل . ثم اكتشف المنقبون في سيناء نقشاً أقدم من نقش ميشع ، يقدر عمره بخمسة وثلاثين قرناً على الأقل . وهذا يعني أن الأبجدية الفينيقية

---

(٢١) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٣١ .

(٢٢) فقه اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص٣١ .

استخدمت قبل المسيح عليه السلام بنحو خمسة عشر أو عشرين قرناً[٢٣] .

ولم تبرأ الأبجدية الفينيقية ـــ على جمالها وكمالها ويُسرها ـــ من النقد . وخلاصة ما أُخذ عليها أنها وضعت رموزاً للحروف السواكن (ب ، ت ، ث ...) ولم تُعن العناية الكافية بحروف المدّ اللينة (ا ، و ، ي) . ولهذا اضطرت الأبجديات المشتقة منها إلى أن تضيف رموزاً جديدة ، تمثل حروف المد الطويلة ، (ا ، و ، ي) ورموزاً أخرى تمثل حروف المد القصيرة : الفتحة والضمة والكسرة . وهذه الضوابط القصيرة تعلو الحروف أو تنحطُّ عنها لتضبط حركاتها في الخطّ العربي . وتعلوها في أغلب الأحيان عند السريان ، وتنحط عنها في الخط العبري[٢٤] .

ولما كانت اللغة أصواتاً منطوقة مسموعة قبل أن تكون رموزاً مكتوبة ، فقد درس علماء اللغة ما ظفروا به من نقوش اللغة الفينيقية في جبيل وصيدا وصور وقبرص ليقفوا على نطقها وصرفها ونحوها ، ثم ليقارنوها بالعربية والعبرية . فتبين لهم أنها في النحو والصرف أقرب إلى العربية ، وأنها تبتعد عن العبرية في تركيب الجمل ، ولا تشبهها إلا في الجذور أي : في الحروف الأصلية التي تبنى منها الكلمات المشتقة[٢٥] .

ج) اللغة العبرية

يعتقد اليهود أنهم في عام ٢٢٠٠ق . م قدموا من سومر إلى فلسطين ، فنزلوا على سواحلها . وهذا النزول وضعهم بين حجري الرحى : المصريين في الجنوب والفينيقيين في الشمال . وإن شئت أن تضيف حجراً ثالثاً فأضف الآشوريين في الشرق . ولذلك لم يستقر بهم المقام ، وتعرضوا لغزوات كثيرة ، فنزح كثير منهم إلى مصر ، ثم كثروا بالتناسل أيام موسى ، وتعرضوا لغزو الكنعانيين .

واللغة العبرية التي تعد لهجة كنعانية لم تكن لسان العبريين جميعاً ، وإنما كانت لسان « فرع واحد من فروعهم ، وهو فرع بني إسرائيل ، وقد نزح بنو إسرائيل من شبه جزيرة سينا ، وأغاروا على بلاد كنعان »[٢٦] . « وأهم نص كتب بها هو كتاب العهد القديم »[٢٧] .

---

(٢٣) المصدر السابق ص٣٣ .

(٢٤) المصدر السابق ص٣٤ .

(٢٥) المصدر السابق ص٣٧ وما بعدها .

(٢٦) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٤١ .

(٢٧) فصول في فقه اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص٢٨

ثم اصطلحت على العبرية عوامل كادت تحطمها، «إذ كان السبي البابليّ، وتخريب بيت المقدس على يد بختنصر سنة ٥٨٦ق. م تجربة قاسية للغة العبرية»[٢٨]. «ومع ابتداء العصر الهليني انتهت حياة اللغة العبرية، إذ لم يستطع ذلك العدد الضخم من اليهود الذين رحل معظمهم حينذاك ناحية الغرب أن يحتفظ بلغته الأصلية في وسط يتكلم الإغريقية»[٢٩].

«وكان زوال ملك اليهود السياسي، وتدمير بيت المقدس، عام ٧٠م بأيدي الرومان من أعظم الحوادث التي أثرت في تاريخ اليهود الديني واللغوي، وغيرت مجراه. فقد أدى شتاتهم في بلاد العالم إلى تأثرهم بلغات تلك البلاد. وكان أكثرها أثراً في لغتهم هي اللغة العربية بعد الفتح الإسلامي. وقد بلغ هذا التأثر درجة جعلت اليهود ينظمون قواعدهم على غرار قواعد النحو العربي، كما اتخذ شعراؤهم من أوزان الشعر العربي قوالب يصبّون فيها أشعارهم»[٣٠].

وربما كان لتدوين العهد القديم بأسفاره الخمسة، ثم لتدوين المشنا والتلمود بشروحه المفصلة الأثر الأول في الحفاظ على اللغة العبرية من الانهيار والاندثار، إذ جعلها هذا التدوين لغة دينية عند اليهود كافة لا عند بني إسرائيل خاصة. غير أن التدوين فصل العبرية الحديثة عن القديمة. «فعبرية اليهود الآن في أوروبا تختلف اختلافاً بيّناً عن العبرية القديمة، سواء في ذلك القواعد والمفردات والأصوات. وذلك بسبب من تأثيرات لغوية محلية. واليهود الشرقيون الذين يعيشون في الأرض المحتلة اليوم يقلدون اليهود الآخرين القادمين من أوروبا في كل عاداتهم اللغوية»[٣١].

وليس الخروج عن النطق الصحيح أمراً طارئاً على اللغة العبرية، فقد أصاب لهجاتها المنطوقة، حتى قبل أن يدون بها العهد القديم والمشنا والتلمود، قدر كبير من التحريف. «ويفهم مما ورد في الأصحاح الثاني عشر من سفر القضاة أن النطق ببعض الكلمات كان يختلف باختلاف المناطق، وأن بعض المناطق كان يصعب على أهلها النطقُ بكلمات منتشرة في مناطق أخرى»[٣٢].

---

(٢٨) المصدر السابق ص٢٨ ــ ٢٩.

(٢٩) المصدر السابق ص٢٩.

(٣٠) المصدر السابق ص٣٠.

(٣١) الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي ص٩٣.

(٣٢) فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وافي ص٤٣.

ومهما يكن من أمر الحفاظ على النطق القديم أو التفلّت منه، فإن التطور الذي حققته اللغة العبرية في العصر الحاضر مرتبط بعاملين: تعلق دولة إسرائيل بتراثها الديني والأدبي، وتعصب اليهود في العالم عامة، وفي أوروبا الشرقية خاصة، وسعيهم إلى إحياء قوميتهم، واستعمال لغتهم في الأدب والصحافة والتخاطب اليومي. لكن هذين العاملين عجزا عن الاحتفاظ بفصاحة النطق القديم، حتى إن العرب الذين يتعلمون العبرية تعلماً أفصحُ نطقاً من اليهود الأوروبيين ويهود إسرائيل نفسها.

أما الخطُّ العبري فقد وقفتك شجرة الأبجدية الفينيقية على أنه فرع من فروع الخط الفينيقي الأول. غير أنه بعد أن تأثرت العبرية بالآرامية اتخذ الرسم العبري شكلاً آخر، هو الحروف المربعة القائمة أو الحادة الزوايا، وهو الخط الذي رسم به العهد القديم، والخط المطبعي العصري. ولم يطرأ عليه إلا تغير طفيف اقتضته العناية بالنطق والحرص على تمثيل أحرف المد القصيرة، وهي الفتحة والضمة والكسرة، والضمة الممالة (O) والكسرة الممالة (e). ولهذا ذيلت الحروف المربعة بإشارات ونقاط كثيرة، تمثل الحركات المختلفة.

ولما كان رسم الحروف المربعة يحتاج إلى أناة وجهد، فقد ثقل هذا الخط المطبعي على أيدي الناشئة، فلانت زواياه المكسرة، ومرنت خطوطه المستقيمة وانحنت. فظهر خط يدوي مدور الحروف قليل الحركات والنقاط سريع الأداء.

د) اللغة الآرامية

بعد ألف سنة من هجرة القبائل الكنعانية إلى الشام والعراق من جزيرة العرب أخذت أرض الجزيرة تضيق بمن بقي فيها، فانطلقت منها موجة أخرى. انطلقت القبائل الآرامية السامية من بيدائها تيمّم شطر الشام والعراق. ولم تكن غازية مدمرة، بل كانت مسالمة، تزحف زحفاً بطيئاً، وتسعى إلى وطن آمن تستقر فيه. فلما قويت فرضت سلطانها على آشور وكنعان. وقد سلكت هذه الموجة الآرامية المهاجرة طريقين، فتحولت إلى فريقين:

أولهما اتجه نحو الشمال الغربي حتى انتهى به المطاف إلى الشام، فزاحم الكنعانيين، ثم زحمهم، وراحت كل قبيلة تنشىء لنفسها وطناً ودولة، وتستعير من الكنعانيين الثقافة والأدب وتفرض عليهم لغتها.

والثاني اتجه نحو الشرق حتى بلغ العراق، وبدأت لغته تصارع الأكادية، وتنتزع منها معاقلها، «فلم ينتصف القرن الرابع ق. م حتى كانت الآرامية قد طغت على جميع الألسنة

في هذه المناطق ، وكانت الأكادية في عداد اللغات الميتة في المحادثة »[٣٣] .

والحق أن الآرامية طمست ثلاث لغات ، كانت سائدة في هذه البقاع لا لغة واحدة . « وقد نجم عن غزو الآراميين للبلاد الناطقة بالأكادية والفينيقية والعبرية أن تغلبت لغتهم على هذه اللغات ، مع أن الآراميين المغيرين كانوا في هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين »[٣٤] .

ولم تقنع الآرامية من النصر بطرد اللغات القديمة من الأسواق والمزارع والشوارع ، بل طردتها من ميادين الفكر ومحافل الشعر ، « وأصبحت لسان الأدب والفكر لكل سكان العراق والشام وجزء من الأناضول لعدة قرون »[٣٥] . « ثم امتد نفوذ الآرامية إلى بلاد تدمر والنبط وشبه جزيرة سينا ، كما يظهر ذلك من الآثار التي عثر عليها في هذه المناطق »[٣٦] . « وقد بلغت عنفوان مجدها ، ووصلت منطقتها إلى أقصى درجات اتساعها في المرحلة المحصورة بين ٣٠٠ق . م و ٦٥٠ب . م . فقد بلغت في هذه المرحلة مساحة البلاد الناطقة بالآرامية نحو ٦٠٠ ألف كم مربع »[٣٧] .

ثم أدرك الآرامية الشتاتُ بعد الثبات ، والهرم بعد الشباب ، فانشعبت مجموعتين :

أولاهما المجموعة الغربية التي انتشرت غربيّ نهر الفرات ، وأشهر لهجاتها : الآرامية الفلسطينية التي استخدمها اليهود في ترجمتهم للعهد القديم عن العبرية ، ثم في شرح المشنا المعروف باسم الجمارا ، ومن المشنا والجمارا يتألف التلمود ثاني الكتب اليهودية المقدسة بعد التوراة .

والثانية المجموعة الشرقية المنتشرة شرقي نهر الفرات ، وأشهر لهجاتها : السريانية ، وهي لسان مدينة إدسّا Edessa كما كان يسميها اليونان ، أو الرها كما كان يسميها العرب . ونجمت شهرة هذه اللغة عن غزارة الآثار الفكرية والدينية والأدبية التي كتبت بها ، ثم عن احتكاكها باليونانية ، إذ أتاح لها هذا الاحتكاك أن تقتبس كثيراً من مفرداتها ومصطلحاتها

---

(٣٣) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٥٣ .

(٣٤) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٢٣٢ .

(٣٥) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص٩٤ .

(٣٦) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٥٤ .

(٣٧) المصدر السابق ص٥٣ .

العلمية وأساليبها الأدبية ، ومناهج التفكير اليوناني . فغزرت مادتها ، وغدت قادرة على تمثل العقائد والفلسفات والعلوم .

ومع أن الآرامية انقرضت تماماً ، ففي العصر الحاضر بعض القرى المسيحية — وأشهرها معلولا الجبلية — لم تزل متعلقة باللهجة السريانية الغربية كتعلق بعض المناطق الجبلية في شمال العراق بالسريانية الحديثة . وكلتا اللهجتين « أصابها تغير كبير أبعدها عن أصولها الأولى تحت تأثير ما انتابها من عوامل التطور الطبيعي ، وكثرة المراحل التي اجتازتها في هذا السبيل ، وطول عمرها ، وتأثرها باللغات التي احتكت بها ، وخاصة العربية والفارسية والكردية »[٣٨] .

هـ) اللغات اليمنية القديمة

يذكر المؤرخون أن اليمن كانت من البقاع التي نبت فيها الساميون ، وشادوا ممالك ذوات بأس وحضارة . ثم انتشروا ونشروا حضارتهم في بلاد كنعان والحبشة . « وأقدم هذه الممالك مملكة معين التي ظهرت قبل مولد عيسى بن مريم عليه السلام بأربعة وعشرين قرناً . ومملكة سبأ التي ازدهرت بعد مملكة معين بأربعة عشر قرناً ، وجعلت مدينة مأرب حاضرة لها . ثم مملكة حمير التي قهرت مملكة سبأ سنة ١١٥ق . م وانتزعت منها الرئاسة في السياسة ، والمهارة في التجارة »[٣٩] .

ولغات اليمن أسرة متفرعة من الفصيلة السامية ، يذكرها المؤرخون والمستشرقون بأسماء مختلفة . فمن أَجْمَلَ سمّاها العربية الجنوبية ، ومن فصَّل سماها بأسمائها الفرعية مثل الحميرية والسبئية .

ولا يذهبن بك الظن إلى أنها شديدة الشبه بالعربية الفصحى لغة القرآن الكريم ، فهي تخالفها مخالفة جوهرية . ولا يبالغ من يزعم أن السريانية والعبرية أقرب إلى العربية من اللغات اليمنية التي تمثلها النقوش . والأدلة على اختلاف عربية النقوش اليمنية عن عربية القرآن الكريم

---

(٣٨) المصدر السابق ص٦٧ .

(٣٩) الوجيز في قصة الحضارة لول ديورانت ٣/١٥ — ١٦ أوجزه د . غازي مختار طليمات دمشق دار طلاس ١٩٩٤م .

كثيرة . أولها « أن كثيراً من عباراتها لا يزال غير واضح الدلالة ، وذلك لما تشتمل عليه من عبارات دينية مبهمة ، واصطلاحات غامضة ، تتعلق بفن المعمار ، وكلمات غريبة لا نظير لها في اللغات السامية الأخرى . ولذلك كثيراً ما يقنع الباحثون في مثل هذه العبارات باستخلاص معناها العام في صورة تقريبية ظنية على ضوء سياق الحديث »(٤٠) .

وثانيها ما أشار إليه أبو عمرو بن العلاء في القرن الثاني الهجري ، حينما راعه البون الشاسع بين اللغتين الحجازية واليمنية ، فقال : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »(٤١) .

وثالثها أن أبا منصور محمد بن أحمد الأزهري [ت : ٣٧٠هـ] وأحمد بن فارس اللغوي [ت : ٣٩٥هـ] ـــ وكلاهما من علماء اللغة الأعلام ـــ حملا على أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي اليمني [ت : ٣٢١هـ] لإدخاله بعض المفردات اليمنية في معجمه (جمهرة اللغة) . فرمياه باختلاق العربية ، وتهجينها بما ليس منها . قال الأزهري : « وممن ألف في عصرنا الكتب ، فوُسم بافتعال العربية وتوليد الألفاظ التي ليس لها أصول ، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامهم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي »(٤٢). وقال ابن فارس : « النتك هي من يمانيات أبي بكر . قال : وهي شبيهة بالنتف »(٤٣) .

ويقرر الباحثون أن اليمن لم تكن تنطق بلغة واحدة ، بل شاعت فيها لغات ولهجات عديدة ، أبرزها المعينية في جنوب اليمن ، موطنها مملكة معين ، وحاضرتها (قرنا) أو (قرنانا) . ويختلف الباحثون في تقدير عمرها : فمنهم من يحدد ظهورها بالقرن الثامن قبل الميلاد(٤٤) ، ومنهم من يعود بها إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد(٤٥) . وأشهر ما اشتهرت به هذه المملكة التجارة . والمصدر الوحيد لمعرفة هذه اللغة النقوش التي عثر عليها المنقبون في اليمن أو في الثغور التجارية القريبة من البلاد الكنعانية والآرامية .

وبعد اللهجة المعينية ظهرت اللهجة السبئية ، وهي لسان المملكة التي قوضت ملك المعينيين ، وشادت من أنقاضه حاضرتها الواسعة الشهرة وهي مدينة (مأرب) . واتسعت هذه المملكة ، وطال عمرها حتى قضى عليها الأحباش سنة ٣٧٥م ، ولكنهم عجزوا عن طمس اللغة السبئية(٤٥) .

---

(٤٠) فقه اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص٧١ .

(٤١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١١/١ تح محمد محمود شاكر مطبعة المدني .

(٤٢) تهذيب اللغة للأزهري ٣١/١ تح عبد السلام محمد هارون . المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٤م .

(٤٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٨٨/٥ تح عبد السلام محمد هارون القاهرة ١٣٨٩هـ .

(٤٤) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٧١ .

(٤٥) الوجيز في قصة الحضارة لول ديورانت ١٦/٣ .

العلمية وأساليبها الأدبية ، ومناهج التفكير اليوناني . فغزرت مادتها ، وغدت قادرة على تمثل العقائد والفلسفات والعلوم .

ومع أن الآرامية انقرضت تماماً ، ففي العصر الحاضر بعض القرى المسيحية ـــ وأشهرها معلولا الجبلية ـــ لم تزل متعلقة باللهجة السريانية الغربية كتعلق بعض المناطق الجبلية في شمال العراق بالسريانية الحديثة . وكلتا اللهجتين «أصابها تغير كبير أبعدها عن أصولها الأولى تحت تأثير ما انتابها من عوامل التطور الطبيعي ، وكثرة المراحل التي اجتازتها في هذا السبيل ، وطول عمرها ، وتأثرها باللغات التي احتكت بها ، وخاصة العربية والفارسية والكردية »[٣٨] .

هـ) اللغات اليمنية القديمة

يذكر المؤرخون أن اليمن كانت من البقاع التي نبت فيها الساميون ، وشادوا ممالك ذوات بأس وحضارة . ثم انتشروا ونشروا حضارتهم في بلاد كنعان والحبشة . «وأقدم هذه الممالك مملكة معين التي ظهرت قبل مولد عيسى بن مريم عليه السلام بأربعة وعشرين قرناً . ومملكة سبأ التي ازدهرت بعد مملكة معين بأربعة عشر قرناً ، وجعلت مدينة مأرب حاضرة لها . ثم مملكة حمير التي قهرت مملكة سبأ سنة ١١٥ق . م وانتزعت منها الرئاسة في السياسة ، والمهارة في التجارة »[٣٩] .

ولغات اليمن أسرة متفرعة من الفصيلة السامية ، يذكرها المؤرخون والمستشرقون بأسماء مختلفة . فمن أجْمَلَ سمّاها العربية الجنوبية ، ومن فصَّل سماها بأسمائها الفرعية مثل الحميرية والسبئية .

ولا يذهبن بك الظن إلى أنها شديدة الشبه بالعربية الفصحى لغة القرآن الكريم ، فهي تخالفها مخالفة جوهرية . ولا يبالغ من يزعم أن السريانية والعبرية أقرب إلى العربية من اللغات اليمنية التي تمثلها النقوش . والأدلة على اختلاف عربية النقوش اليمنية عن عربية القرآن الكريم

---

(٣٨) المصدر السابق ص٦٧ .

(٣٩) الوجيز في قصة الحضارة لول ديورانت ٣/١٥ ـــ ١٦ أوجزه د . غازي مختار طليمات دمشق دار طلاس ١٩٩٤م .

كثيرة. أولها «أن كثيراً من عباراتها لا يزال غير واضح الدلالة، وذلك لما تشتمل عليه من عبارات دينية مبهمة، واصطلاحات غامضة، تتعلق بفن المعمار، وكلمات غريبة لا نظير لها في اللغات السامية الأخرى. ولذلك كثيراً ما يقنع الباحثون في مثل هذه العبارات باستخلاص معناها العام في صورة تقريبية ظنية على ضوء سياق الحديث»(٤٠).

وثانيها ما أشار إليه أبو عمرو بن العلاء في القرن الثاني الهجري، حينما راعه البون الشاسع بين اللغتين الحجازية واليمنية، فقال: «ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا»(٤١).

وثالثها أن أبا منصور محمد بن أحمد الأزهري [ت: ٣٧٠هـ] وأحمد بن فارس اللغوي [ت: ٣٩٥هـ] ــ وكلاهما من علماء اللغة الأعلام ــ حملا على أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي اليمني [ت: ٣٢١هـ] لإدخاله بعض المفردات اليمنية في معجمه (جمهرة اللغة). فرمياه باختلاق العربية، وتهجينها بما ليس منها. قال الأزهري: «وممن ألف في عصرنا الكتب، فوُسم بافتعال العربية وتوليد الألفاظ التي ليس لها أصول، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامهم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي»(٤٢). وقال ابن فارس: «النتك هي من يمانيات أبي بكر. قال: وهي شبيهة بالنتف»(٤٣).

ويقرر الباحثون أن اليمن لم تكن تنطق بلغة واحدة، بل شاعت فيها لغات ولهجات عديدة، أبرزها المعينية في جنوب اليمن، موطنها مملكة معين، وحاضرتها (قرنا) أو (قرنانا). ويختلف الباحثون في تقدير عمرها: فمنهم من يحدد ظهورها بالقرن الثامن قبل الميلاد(٤٤)، ومنهم من يعود بها إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد(٤٥). وأشهر ما اشتهرت به هذه المملكة التجارة. والمصدر الوحيد لمعرفة هذه اللغة النقوش التي عثر عليها المنقبون في اليمن أو في الثغور التجارية القريبة من البلاد الكنعانية والآرامية.

وبعد اللهجة المعينية ظهرت اللهجة السبئية، وهي لسان المملكة التي قوضت ملك المعينيين، وشادت من أنقاضه حاضرتها الواسعة الشهرة وهي مدينة (مأرب). واتسعت هذه المملكة، وطال عمرها حتى قضى عليها الأحباش سنة ٣٧٥م، ولكنهم عجزوا عن طمس اللغة السبئية(٤٥).

---

(٤٠) فقه اللغة د. علي عبد الواحد وافي ص٧١.

(٤١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١١/١ تح محمد محمود شاكر مطبعة المدني.

(٤٢) تهذيب اللغة للأزهري ٣١/١ تح عبد السلام محمد هارون. المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٤م.

(٤٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٨٨/٥ تح عبد السلام محمد هارون القاهرة ١٣٨٩هـ.

(٤٤) فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وافي ص٧١.

(٤٥) الوجيز في قصة الحضارة لول ديورانت ١٦/٣.

ثم تعاقبت اللهجات اليمنية المتأخرة ، وعايشت لهجة سبأ ، ولم تقو على قهرها إلا بعد انحسار الحكم الحبشي عن اليمن سنة ٤٠٠م ، وبعد أن وصل الناطقون بهذه اللهجات إلى الحكم . ومن اللهجات اليمنية التي طاولت لهجة سبأ ، ولم تبلغ شأوها اللهجة القتبانية . وبنو قتبان الناطقون بها كانوا ذوي مملكة كبيرة في شواطىء عدن ، حاولوا مناجزة السبئيين ، فلما عجزوا عن قهرهم سالموهم ، وذوّبوا لهجتهم في اللهجة السبئية[٤٦] .

وآخر اللهجات اليمنية اللهجة الحضرمية ، وموطنها مملكة حضرموت التي اتسعت ، وقوي شأنها ، وأصبحت تطاول مملكة سبأ ، لكنها ضعفت ، وتخلى عنها أربابها ، واستسلموا للسبئيين الذين اقتحموا على اللهجة الحضرمية حصونها ، وذوّبوها في لغتهم[٤٧] .

وجدير بالذكر أن هذه اللغات وصلت إلينا منقوشة على الحجر ، وأن ما وصل إلينا منها يمثل اللهجات الفصيحة ، لا كلام السوقة . ويبدو من دراسة النقوش أنها كانت محافظة على أنماط لا تتغير ، « فلا يكاد يوجد فرق يعتد به بين اللغة المدوّن بها أقدم نقوشها ، واللغة المدون بها أحدثها مع أن الفاصل بين هذين النوعين قد يصل أحياناً إلى تسعة قرون . ولا غرابة في ذلك فلغات الكتابة تميل دائماً إلى المحافظة والجمود . أما لغات المحادثة في هذه البلاد فلا بد أن يكون قد نالها كثير من التطور »[٤٨] .

وقد عرفت كتابة اليمن في تاريخ الخط العربي باسم (الخط المسند) ، وهو شبيه بالخط الكنعاني في سيره من اليمين إلى الشمال في أغلب الأحيان ، وفي أبجديته التي بلغت تسعة وعشرين حرفاً ، وفي إهماله حروف المدّ ، « وتجرُّدُ هذا الرسم من حروف المد يجعل قراءة كل كلمة محتملة لعدة وجوه »[٤٩] .

قبل ظهور الإسلام بقرنين كانت اللغة الحجازية قد ارتقت ، وأصبحت لغة الدين والأدب والتجارة ، فزاحمت لغة اليمن ، وفرضت نفسها على الأسواق سواء ما كان يقام منها في الحجاز كسوقي عكاظ وذي المجاز ، وما كان يقام منها في اليمن كسوقي صنعاء والشحر ، ولذلك انحسرت اللغة اليمنية عن أسواق اليمن ومراكزها الحضارية ، فلما ظهر الإسلام ازدادت هذه اللغة انحساراً وبواراً ، ولم يبق منها غير ثلاث لهجات استطاعت أن تحافظ على بقائها حتى

---

(٤٦) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٧٢ .

(٤٧) المصدر السابق ص٧٣ .

(٤٨) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٧٤ .

(٤٩) المصدر السابق ص٧٥ .

يومنا هذا: الأمهرية في شرق حضرموت، ولهجة أهل الشحر، ولهجة جزيرة سقطرة[٥٠].

و) اللغات الحبشية السامية

يغلب على ظن المؤرخين أنه قبل مولد المسيح عليه السلام ببضعة قرون غادرت شواطىء اليمن موجة عربية، انساحت على السواحل الغربية للبحر الأحمر، ثم قرّ قرارها في الحبشة. وهذه الموجة حملت معها بذور الثقافة العربية، وبذور اللغة السامية. ومن هذه البذور نبتت اللغة الحبشية السامية، ثم أخذت جذورها تترسخ، حتى إنك لتجدها اليوم متداولة في نصف الحبشة وارتيريا.

ومع أن هذه اللغة اصطدمت بلغة الأحباش الحامية، ونازلتها أمداً طويلاً، وتأثرت بأصواتها الحامية، واقترضت كثيراً من مفرداتها، فإنها ظلت حتى العصر الحاضر محافظة على طابعها السامي الشديد القرب من لغتي اليمن والحجاز. حتى إن الباحث المدقق يجد أن «وجوه الشبه بينها وبين هذين الفرعين في أصول المفردات والقواعد والأصوات أقوى كثيراً من وجوه الشبه بينها وبين بقية اللغات السامية»[٥١]، وأنها إلى اليمنية القديمة أقرب منها إلى العربية الحجازية.

وأدلُّ ما يدلك على هذا القرب أن السامية الحبشية اشتقت من اللغة اليمنية طريقة الكتابة. «ومن الراجح أن هذا الرسم قد ظهر في القرن الثالث الميلادي»[٥٢]، وأنه يشبهه «في تجرده من الرمز إلى أصوات المدّ. فكان يشتمل على ستة وعشرين حرفاً، ترمز جميعها إلى أصوات ساكنة»[٥٣]. ولذلك أضاف الأحباش ستة رموز تعبر عن الأصوات اللينة.

وإذا كان التطور قد أدرك الخط الحبشي ليضيف إلى حروفه ما فاتها من حروف اللين، فإنه قد أدرك اللغة نفسها، فقسمها إلى لهجات، أبرزها اللهجة الجعزية، وهي لسان الشعب الجعزي المهاجر من اليمن، ومنشىء الدولة القوية التي حاضرتُها أقسوم أو أكسوم. وأهم آثارها نقوش تعزى إلى ثلاثة من ملوكها، وهم: عزانا، وآل عميدا، وتازانا. ونسخة الكتاب المقدس ترجمت عن اليونانية إلى الجعزية[٥٤]. والجعزية ــ على ما فيها من خصائص تشدُّها إلى لغتي الحجاز واليمن ــ تنفرد بسمات أبرزها خلوها من التذكير والتأنيث والتعريف،

---

(٥٠) انظر المصدر السابق ص٧٦ وما بعدها.

(٥١) المصدر السابق ص٨٤.

(٥٢) المصدر السابق ص٨٤.

(٥٣) المصدر السابق ص٨٥.

(٥٤) المصدر السابق ص٨٦.

واشتمالها على مفردات يونانية وحامية كثيرة . وآخر ما أوصلها إليه التطور تقلص سلطانها ، وانحسارها عن الحياة العامة ، فهي اليوم لغة أدب ودين لا لغة حياة[٥٥] .

وثانية اللهجات السامية الحبشية تسمى الأمهرية أو (الأمحارية) نسبة إلى القبائل التي كانت تعيش في منطقة أمهرا Amhara . ومن هذه القبائل ظهرت أسرة قوية متحدرة من مملكة سبأ ، كانت تعيش في منطقة كوا Choa ، وتطمح إلى السيادة على الحبشة ، فبلغت ما أرادت ، وفرضت لغتها ، حتى أصبحت « تستخدم في أمور الدواوين والمكاتبات الرسمية في جميع الأقاليم الحبشية ، وظلت مستأثرة بهذه الشؤون حتى العصر الحاضر »[٥٦] . ثم نافست الجعزية في ميادين الأدب والدين والصحافة والعلم ، « فقلَّتْ بذلك أهمية اللغة الجعزية ، وأصبحت مجهولة لدى كثير من العلماء ورجال الدين أنفسهم »[٥٧] . وبزغ نجم الأمهرية وغدت لغة الفكر كما كانت من قبل لغة الإدارة .

وخاضت الأمهرية صراعاً آخر ، صارعت فيه اللغة الحامية الكوشية بلهجاتها المختلفة ، وتمكنت من اختراق الأسوار الكوشية ، وطغت على البقاع الجنوبية معقل الكوشية ، وأصبحت فيها اللغة الثانية . غير أنها تأثرت بالأصوات الحامية ، وقبست كثيراً من الألفاظ ، حتى غدا « نصفها على الأقل مستعاراً من الحاميين . أما النصف الثاني الساميّ الأصل فقد بعد كثيراً عن أصله بسبب التغيرات التي طرأت عليه »[٥٨] . ولهذا كله « اتسعت مسافة الخلف التي تفصل الأمهرية عن بقية أخواتها السامية »[٥٩] وعلى رأسها الجعزية .

ومما زاد البون بين الأمهرية والجعزية اتساعاً غلبة الصبغة المسيحية على الأمهرية ، وبقاء الجعزية محافظة على سماتها الإسلامية برغم انقسامها إلى لهجات . « ومن اللهجات الجعزية اثنتان : تسمى أولاهما باللسان التيجري ، وتسمى الثانية باللسان التجرائي ، وأهالي هذين اللسانين من المسلمين . وكان انتشار الإسلام بين أهالي هذين اللسانين سبباً في مقاومتهما اللسان الأمحاري (الأمهري) المسيحي مقاومة شديدة »[٦٠] .

ولا يجهل أحد من الباحثين مبلغ الأثر الذي تركه الدين في تطور اللغات السامية

---

(٥٥) انظر فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٨٨ .

(٥٦) المصدر السابق ص٨٨ .

(٥٧) المصدر السابق ص٨٨ .

(٥٨) فصول في فقه اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص٣٤ .

(٥٩) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٨٩ .

(٦٠) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص١٠٠ .

الحبشية ، وفي تفرعها . والدليل على عمق هذا التأثير أن لهجة مدينة هرر المتفرعة من اللغة الأمهرية تفردت بخصائص أبعدتها عن أصلها القديم حتى غدا الأمهريون عاجزين عن فهمها . « ويرجع ذلك إلى عاملين : أحدهما أنها تأثرت بلهجات حامية غير اللهجات الحامية التي احتلت بها الأمهرية . وثانيهما أن اعتناق أهلها للدين الإسلامي قد ترك فيها آثاراً من اللغة العربية في صورة ، لا يوجد لها نظير في الأمهرية المسيحية »[(٦١)] .

ز) اللغة العربية

زعم ولفنسون أن العرب هم البدو المترحلون في شبه الجزيرة العربية . وزعمهُ لغوي المنطلَق سياسي الهدف ، يرمي إلى مساواة العبريين بالعرب . إذْ ادعى أن الجذر اللغوي الثلاثي للشعبين (عرب = عبر) واحد ، وأن هذا الجذر يدل على التنقل والعبور[(٦٢)] . والحق أن اسم العرب يطلق على أهل المدر وأهل الوبر على السواء ، أما الآخرون فلا يدل اسمهم على غير العبور والترحل .

ومن الحجج التي تدحض رأي ولفنسون أن كلمة (عرب) في العصر الجاهلي أطلقت على أهل الخيام وأهل المدن والقرى ، وأن كلمة (أعراب) خصت بالبدو ، وبذلك نزل القرآن الكريم ، فسمى البداة الجفاة أعراباً[(٦٣)] . ومن الحجج الدامغة أن أبا التاريخ الأوروبي هيرودوت ــ وهو من مؤرخي القرن الخامس قبل الميلاد ــ سمى اليمن صاحبة الممالك والمدن والبلاد والأسداد (بلاد العرب) .

ومع أن العرب أقدم الساميين ، ومع أن أرضهم هي المهد الأول للشعوب السامية واللغات السامية . فإن ما بلغنا من لغتهم منقوشاً على حجر ، أو محفوظاً في صدر ، لم يكن أقدم ما وصل إلينا من اللغات السامية . « إن أقدم ما وصل إلينا من آثار العربية البائدة لا يتجاوز القرن الأول ق . م ، وأقدم ما وصل إلينا من الآثار العربية الباقية لا يكاد يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد ، ولذلك لا نعلم شيئاً عن طفولة اللغة العربية في مراحلها الأولى »[(٦٤)] .

---

(٦١) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٩١ .

(٦٢) تاريخ اللغات السامية ، إسرائيل ولفنسون ص١٦٥ .

(٦٣) في البيان والتبيين ٢/٢٢٤ أرجوزة جاء فيها « مهاجر ليس بأعرابي » وفي قوله تعالى [التوبة ١٢٠] ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ وفي قوله تعالى [الأحزاب ٢٠] ﴿ وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب ﴾ في هذه النصوص الثلاثة : الأعرابي : البدوي ، لا العربي المتحضر .

(٦٤) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٩٣ .

وإذا كان بين الساميات لغة أو لغات تبزُّ نقوشها النقوش العربية قدماً وكثرة ، فليس بينهن لغة استطاعت أن تقارب العربية بقاء ونماء . والعربية التي ينصرف إليها هذا القول هي العربية الحجازية الباقية أحدث اللهجات العربية ، وأوسع اللغات السامية انتشاراً كما يدل على ذلك الواقع الجغرافي للشعوب الناطقة بها في العصر الحاضر .

تعد العربية الباقية الصورة المُثلى للهجات العربية بائدها والحي ، ولهذا فإن المؤرخين ، من أجل الوصول إلى جذور العربية الباقية ، درسوا اللهجات العربية كلها ، وقسموها على أساس تاريخي إلى عربية بائدة وعربية باقية ، وعلى أساس جغرافي إلى لهجات شمالية ولهجات جنوبية . ثم فرّعوا ، فسموا كل لهجة باسم الناطقين بها . ولما تبيّن لهم أن اللهجات الجنوبية من معينية وسبئية وحضرمية وقتبانية واهية الارتباط بالعربية الشمالية درسوها في معزل عن اللهجات الشمالية على النحو الذي قمنا به قبلُ . وتوفروا على دراسة اللهجات الشمالية مفصولة عن الجنوبية ، لعلهم يجدون فيها جذور عربيتنا الفصحى . وأهم هذه اللهجات :

١ ــ اللهجة اللحيانية : لم يختلف المؤرخون قدماؤهم والمحدثون في انتماء اللحيانيين إلى العرب ، بل أجمعوا على أن « اللهجة اللحيانية عربية بحتة »[٦٥] ، لكنهم اختلفوا في الموطن الأول الذي عاشت فيه هذه القبائل ، وسواء أكان موطنهم الأول شمال الحجاز أم جنوبه ، فهم عرب أقحاح ، أقاموا دويلات لهم في البقاع الممتدة من الحجاز إلى تخوم الشام والعراق . ويغلب على ظن المؤرخين أن هذه الدويلات خضعت بعض الخضوع لدولتي الروم والفرس .

والنقوش المتحدرة إلينا من اللهجة اللحيانية تبدو حديثة العهد إذا قورنت بالنقوش الأكادية والكنعانية « ويظهر أن أقدمها لا يتجاوز القرن الثاني أو الأول ق . م وأحدثها لا يتجاوز السادس بعد الميلاد . والخط الذي كتبت به مشتق من الخط المسند ، ويسير مستعرضاً من اليمين إلى الشمال »[٦٦] .

ومع أن النقوش اللحيانية قليلة العدد ، ويعوزها الوضوح والسلامة لأنها أبعاض نقوش غير متكاملة ، فإن ما سلم منها أو ما فهم يدل على عروبتها ، لأنها متفردة من بين الساميات بأصوات تفردت بها العربية ، وهي (ذ ، ث ، غ ، ض) ، ولأنها تشتمل على أفعل التفضيل وحرف التنبيه . وهذه الأمور من خصائص اللسان العربي[٦٧] .

٢ ــ اللهجة الصفوية : إذا كانت اللهجة اللحيانية منسوبة إلى قبائل لحيان ،

---

(٦٥) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص١٠٤ .

(٦٦) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٩٦ .

(٦٧) تاريخ اللغات السامية ص١٧٧ .

فالصفوية تسمية اصطلاحية لا ترتبط بقبيلة ، بل أطلقها المستشرقون على نقوش ظفر بها المنقبون بين تلول الصفاة وجبل الدروز ، ثم أطلق الاسم على اللهجة العربية التي استنبطت سماتها من هذه النقوش . وتاريخها أحدث من تاريخ النقوش اللحيانية ، إذ « يعتقد الأستاذ ليمان أن الكتابات الصفوية ترجع إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد ، ويستدل على ذلك باستعمال الصفويين اسم (أذينة) زوج الزباء الذي عاش في القرن الثالث بعد الميلاد ، ولم يكن العرب يستعملون هذا الاسم من قبل »[٦٨] .

ومن الأدلة الساطعة على عروبة هذه اللهجة وقربها الشديد من العربية الحجازية الباقية استعمالُها الألفاظ العربية الحجازية ، ومنها : أسد ، وليث ، ولبأة ، وجمل ، وبكر ، ومهر ، وحمار ، وضأن . لكن عروبتها ليست خالية من الشوائب والمؤثرات الدخيلة ، « إذ نعثر فيها على شوائب نبطية وآرامية بسبب اختلاط أهلها بالأنباط والآرام »[٦٩] .

٣ ــ **اللهجة الثمودية** : ذكر القرآن الكريم قوم ثمود بين الأقوام البائدة ستّاً وعشرين مرة ، وذكر ما حل بهم من دمار واندثار ليجعلهم عبرة لأولي الأبصار[٧٠] . ويبدو مما ذكره المؤرخون والمفسرون أن ثمود ظهرت ثم اندثرت قبل ظهور الإسلام بزمن طويل .

« وبينما يقرر بطليموس أن مساكن ثمود هي مدينة (أمن) والأراضي الواقعة في جنوب العقبة إلى نواحي شمال ينبع بالقرب من المويلح ، نرى الجغرافي بلينوس الذي سبق بطليموس بنحو (٢٥٠) سنة يقرر أن مساكن ثمود هي في جنوب مكة إلى تهامة العسير »[٧٠] . وكل ما نعلمه عن اللهجة الثمودية مستنبط من نقوش مكتوبة بخط مشتق من الخط المسند ، تتجه كتابته من الأعلى إلى الأسفل ، ويعوزه النظام والرواء . ويعود القدر الأكبر من نقوش ثمود إلى القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، أي أن الثمودية أحدث من اللحيانية والصفوية .

ومن يقرن الكتابة الثمودية بغيرها من أشكال الكتابة العربية القديمة ، ثم بالكتابة العربية الحديثة يجد الخط الثمودي شبيهاً بغيره من خطوط العرب في العناية برسم الأحرف الساكنة ، وإهمال حروف المد ، ويجد الأحرف في الكلمة الواحدة منفصلة لا متصلة ، مما يدل على أن الوصل بين أحرف الكلمة الواحدة تمَّ في مرحلة متأخرة وبعد تطور بطيء .

أما المقارنة اللغوية بين الألفاظ في النطق والاشتقاق والمعاني فمختلف فيها ، فمن

---

(٦٨) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص١٠٥ .

(٦٩) المصدر السابق ص١٠٥ .

(٧٠) انظر تفسير الآية ٧٣ من سورة الأعراف في تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) ٥/٢٢٤ — ٢٣١ .

الباحثين من يرى أنها تدل دلالة قاطعة على أن لهجة ثمود « لهجة عربية صحيحة ، لا تختلف عن لهجة قريش الفصحى إلا في أمور يسيرة جدّاً »(٧١) . ومنهم من يلاحظ « أن أصحاب النقوش الثمودية والصفوية هم من العرب ، أو هم أقوام لهم اتصال متين بلغة العرب ، ولكن العناصر الأعجمية الكثيرة البارزة فيها شوهتها وحرفتها كثيراً إلى أن محت شيئاً غير قليل من الروح العربية والأسلوب العربي ، حتى إن اللغة العربية تضاءلت أمام الحضارات الأخرى البارزة في تلك النقوش »(٧٢) .

وعن مقدار التشابه بين فصحانا وهذه النقوش تنجم مسألة تبحث عن جواب ، وهي : هل يمكن أن نعد هذه النقوش مرحلة من مراحل التطور في حياة اللغة العربية الفصحى ؟

إن الإجابة على نحو علمي تقتضي أن نحدد أوجه الشبه بين لغة النقوش واللغة العربية الفصيحة وأول أوجه الشبه شيوع الإعراب في لغة النقوش على نحو يقارب شيوعه في الفصحى . إذ رفع الفاعل في النقوش بواو لحقت الاسم ، وهي تعادل الضمة : « هرب مذحجو »(٧٣) ، وجُرَّ المضاف إليه بياء ، وهي تعادل الكسرة : « أعلى بني عمري »(٧٤) .

والوجه الثاني استعمال اسم التفضيل في بعض النقوش ، وصيغة التفضيل (أفعل من) تعد من الظواهر التي تفردت بها العربية بين أخواتها الساميات . فالتفضيل في العبرية يتم بذكر الصفة المشبهة متلوة بحرف الجر من نحو : (أتّا طوف منو) أي : أنت أحسن منه وطوف بمعنى حسن .

وثالث الأوجه الأصوات التي تفرّدت بها العربية الفصحى ، وهي (ذ ، ث ، غ ، ض) ، فقد ترددت أصداء هذه الأصوات في لغة النقوش .

ورابعها المفردات الكثيرة التي اشتركت في استعمالها النقوش والعربية الفصحى ، ومنها : ليث ، ولبأة ، وجمل ، وبكر ، ومهر ، وحمار ، وضأن . ولما كان الكلام المنقوش على الحجارة ضئيل المقدار ، فهذا القدر من الألفاظ المُتشابهة يعد كافياً لربط اللغتين برابطة النسب ، ولو بلغنا من النصوص مقدار أوفر لتضاعفت الألفاظ المتشابهة . ولهذا لم ينصف شبيتالر A. Spitaler حينما هوّن من شأن هذه النقوش بقوله : « إنه على الرغم من وجود

---

(٧١) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص١٠٣ .

(٧٢) تاريخ اللغات السامية ، ولفنسون ص١٨٨ .

(٧٣) وردت هذه العبارة في نقش النمارة . انظر فصول في فقه اللغة د . رمضان عبد التواب ص ٦١ .

(٧٤) وردت هذه العبارة في نقش أم الجمال . انظر المصدر السابق ص٦١ .

النقوش المتعددة فإن قراءتها في كثير من الأحوال غير مؤكدة ، ونتائجها عديمة الجدوى ، لأن مادتها اللغوية على جانب كبير من الضآلة »[٧٥] .

خامساً ــ العربية الباقية أو لهجة قريش .

وسواء أكانت النقوش كثيرة أم قليلة ، فما بلغنا منها يثبت أن بين اللهجات المنقوشة البائدة ، والعربية الباقية قدراً من التشابه غير قليل ، يكفي لربط المتأخرة بالمتقدمة . ولو أن معاول المنقبين كشفت في الحجاز ونجد وغيرهما عن نقوش أخرى لأمكن الوصول إلى أدلة أقوى على نفي الرابطة أو إثباتها . وإلى أن يتم الكشف يستطيع الباحث أن يدّعي أن المهد الأول للعربية الباقية نجد والحجاز ، وأنها انتشرت منهما إلى جزيرة العرب كلها ، ثم انساحت على الشمال الإفريقي ، وعلى قسم كبير من شرق هذه القارة . وإذا أعوزتنا النقوش فنصوص الأدب الجاهلي : شعره وخطبه وأمثاله وقصصه تثبت على نحو قاطع أن العربية الباقية كانت قد اكتملت قبل ظهور الإسلام بقرنين ، وأنها فاقت كل ما جاورها من لغات سامية ولهجات عربية .

وسيادة العربية قبل الإسلام لا تعني أنها كانت لهجة واحدة ، فإن للتطور اللغوي قاعدة تكاد تكون مطردة ، وتنصّ على أنه « متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض ... استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلاً ، فلا تلبث أن تنشعب إلى لهجات ... ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر »[٧٦] .

وإلى جانب هذه القاعدة ، التي تبين كيف تنقسم اللغة إلى لهجات ، قاعدةٌ أخرى لا تقلُّ عنها قوة واطراداً ، تبين كيف تصبح اللهجة القوية سيدة اللهجات الأخرى الضعيفة ، وخلاصتها أنه متى أتيح للناطقين بإحدى اللهجات أن يبزوا غيرهم في نواحي الحياة السياسية والدينية والاقتصادية صارعت لهجتهم ما حولها من اللهجات ، ثم صرعتها ، وبسطت سلطانها على ما يجاورها . « وجميع الظروف التي كانت تقتضيها قوانين التغلب اللغوي ... كانت مهيأة لتغلب لهجة قريش على اللهجات العربية الأخرى »[٧٧] .

---

(٧٥) المصدر السابق ص٦١ .

(٧٦) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص١٧٢ ــ ١٧٣ .

(٧٧) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص١٠٦ .

إن العربية الباقية واحدة من اللغات الإنسانية التي انتشرت في مناطق واسعة من الأرض ، فظهرت فيها أعراض الانقسام إلى لهجات ، وأقوى لهجاتها لهجة قريش ، فلهجة تميم ، فلهجة هذيل ... وغيرها من اللهجات المستضعفة . ومع ذلك لم تتحول لهجاتها إلى لغات ، ولم يستقل بعضها عن بعض كما تحولت اللهجات المتفرعة عن اللاتينية إلى لغات . فما السبب الذي عصم العربية الباقية من التبدد ؟

السبب هو القاعدة الثانية التي ذكرناها ، « إذ كان لقريش مكانة دينية ممتازة لقيامهم بسدانة البيت الحرام الذي تفد إليه معظم القبائل لتقديم قرابينهم وتقديس آلهتهم ، وشهود منافع لهم »[٧٨] . أما سلطان قريش الاقتصادي فيتمثل في سيطرة القرشيين على تجارة العرب من اليمن إلى الشام والعراق . ونتيجة لهذين السلطانين برز سلطان ثالث رسخه الإسلام بعد ذلك ، وهو السلطان السياسي الذي أعدّ القرشيين ليكونوا قادة العرب في الحكم ، كما كانوا قادتهم في الدين والاقتصاد .

ومن يستفت قوانين التطور اللغوي تفته بأن تفوق اللهجة الحجازية كان حتماً مقضيّاً ، لا مفرّ من وقوعه . فإلى جانب القاعدة الثانية الموحدة قاعدة ثالثة تؤيدها ، إذ تقرّر أن الغلبة في الصراع اللهجي هي للهجة المتفوقة بثقافتها وحضارتها وأدبها ومفرداتها . ولهذا غلبت لهجة قريش ما حولها من لهجات لأنها « كانت أوسع اللهجات العربية ثروة ، وأغزرها مادة ، وأرقها أسلوباً ، وأدناها إلى الكمال ، وأقدرها على التعبير في مختلف فنون القول »[٧٩] .

ومن المقرر في قوانين علم اللغة أن اللهجة المحلية التي يتاح لها التغلب تصبح لغة الآداب . وتصديقاً لهذا القانون أصبحت لهجة قريش منذ العصر الجاهلي « لغة الآداب عند جميع قبائل العرب ، فبها كان ينظم الشعر ، وتلقى الخطب ، وترسل الحكم والأمثال ، وتدوّن الرسائل ، وتتفاوض الوفود ، ويتبارى الأدباء ، وتجري المناقشات في النوادي والمؤتمرات في مختلف بلاد العرب وقبائلهم »[٨٠] .

حينما أنِسَتْ اللهجة القرشية من نفسها القدرة على التبريز لم تدع ميداناً فيه للغة مجال إلّا برّزت فيه ، ولا منتهزاً إلا انتهزته ، وأفادت منه ، فتضاعف ثراؤها ، إذْ قبست من اللهجات الأخرى كثيراً من المفردات والأساليب ، حتى غدا من المتعذر « على ضوء معلوماتنا الحاضرة أن نميز ما كان قرشي الأصل ، وما انتقل إلى لغة قريش من أخواتها »[٨١] .

---

(٧٨) معالم اللهجات العربية ص٦٣ .

(٧٩) فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص١٠٦ .

(٨٠) المصدر السابق ص١٠٨ .

(٨١) فقه اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص١١٢ .

لقد غزت قريش أسواق العرب ببضاعة غير البضاعة التي يتجر بها الباعة ، غزتها بلغتها ، وفرضت أساليبها وثقافتها وقيمها على الأسواق كلها ، ما كان يعقد منها في الحجاز ، وما كان يعقد في هجر والبحرين وعمان واليمن . واقتحمت ميادين القتال . فما ثار الغبار في يوم من أيام العرب إلا قيل فيه شعر أو رجز بلهجة قريش ، ولو كان المتحاربون من غير قريش ، حتى غدا لسان الشاعر أحدَّ شفرة من سيوف العرب ، وأبقى أثراً بعد هدأة الحروب ، يخمد مثار النقع ، وتندمل نوازف الجراح ، ويبقى الشعر والرجز يرددان بلهجة قريش .

فلما نزل القرآن الكريم ، وصيغ الحديث الشريف بلهجة قريش لا بسواها ازدادت إلى شرفها شرفاً لم تظفر بمثله لهجة عربية أو لغة أجنبية ، فارتقت أغراضها ومعانيها وأخيلتها وأساليبها . وغدت لغة التشريع والقضاء ، والقص والجدال ، والبحث الدقيق العميق في مسائل العقيدة المعقدة ، وفيما وراء الطبيعة ، ولغة السياسة والقانون ، ولغة العلم والفلسفة . فتطورت دلالاتها من أفق الحسّ إلى أفق التجريد ، وظهرت فيها آلاف المصطلحات في كل علم وفن ، ابتكرتها من أصولها القديمة بالاشتقاق والنحت ، أو بنقل اللفظ من الحقيقة إلى المجاز .

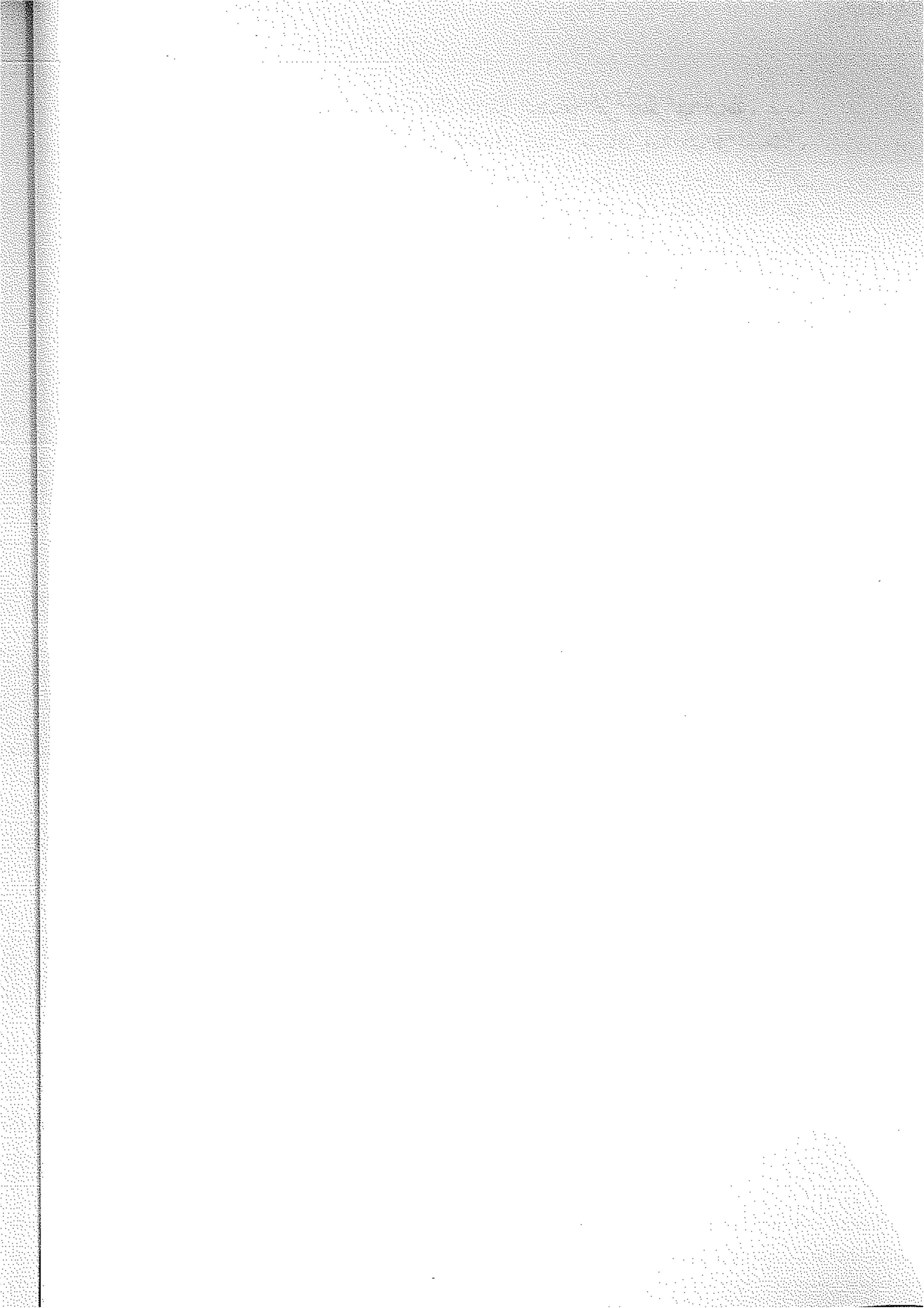
ثم جازت ثمارها الخيرة حدود الوطن العربي ، « حتى أصبحت المساحة التي تستخدم فيها العربية لغة حديث وكتابة نحو ١٤ مليون كم مربع »[٨٢] ، وأصبح الناطقون بها يعدون بمئات الملايين ، وراحت مفرداتها وأساليبها وخطها تنقش آثاراً غير محدودة في لغات المسلمين غير العربية . وأهم هذه اللغات الفارسية ، والتركية ، والأردية . « حتى إن معظم مفردات الفارسية الحديثة عربي الأصل ... أما صراع العربية مع التركية والقوطية فقد ترك في هاتين اللغتين آثاراً واضحة من العربية ، ولكن لم يكد يترك في العربية شيئاً منهما »[٨٣] . « وقد بلغ هذا الأثر مبلغاً كبيراً في بعض اللغات المستخدمة في المناطق الباكستانية والهندية الإسلامية . فنحو ٧٥٪ من مفردات اللغة الأردية مثلاً يتألف من كلمات عربية الأصل أو فارسيته »[٨٤] .

---

(٨٢) المصدر السابق ص١٢٤ .

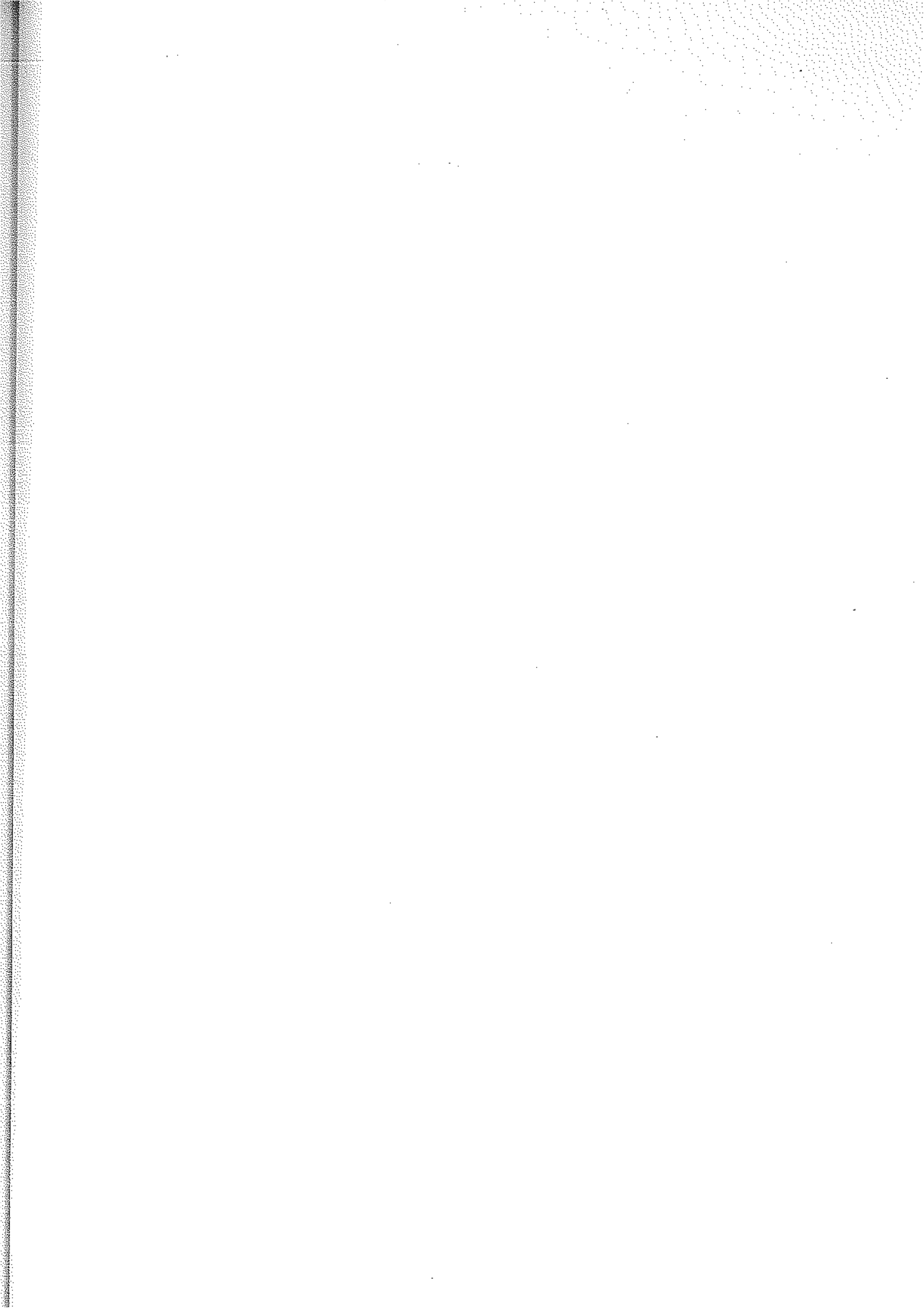
(٨٣) المصدر السابق ص١٢٥ .

(٨٤) المصدر السابق ص١٢٦ .



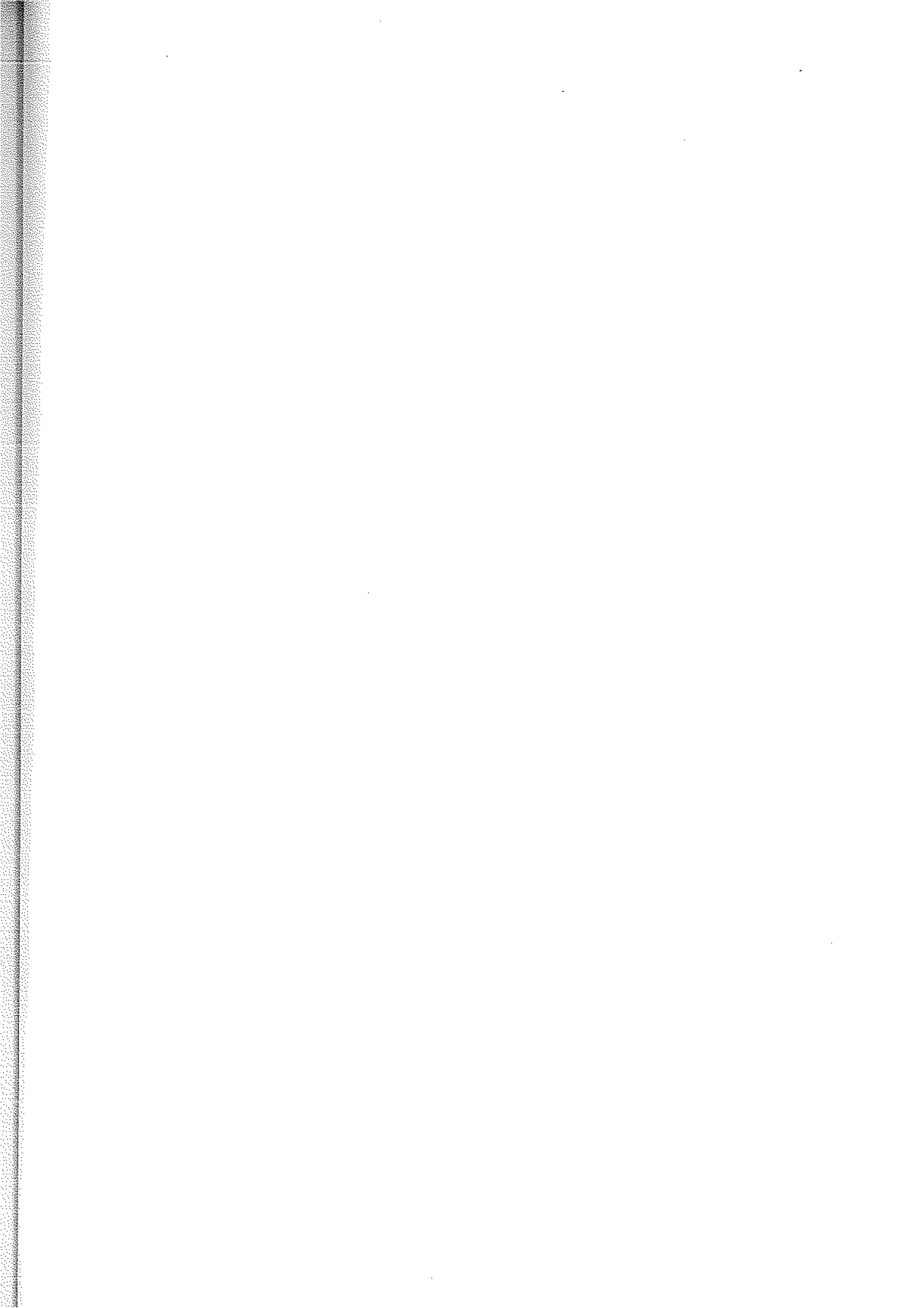
الباب الثالث

مناهج الدراسة في علم اللغة



الباب الثالث

مناهج الدراسة في علم اللغة



الفصل الأول

مناهج الدراسة في العصور القديمة

أولاً ــ تمهيد

لما كانت اللغة ظاهرة إنسانية قديمة فمن غير المستغرب أن تكون دراستها كممارستها ظاهرة علمية قديمة أيضاً ، التقتْ عندها الأمم التي أتيح لها أن تصيب حظاً من التقدم العلمي ، وأن تشارك في بناء الحضارة الإنسانية . ومن غير المستغرب كذلك أن ينتهج الأقدمون ، وأبرزهم اليونان والرومان والهنود والعرب ، في دراساتهم اللغوية مناهج تنتظمها وتوجهها .

ولا يرمي هذا الكتاب الوجيز إلى الإحاطة بكل ما انتهج السابقون من مناهج ، درسوا على هديها لغاتهم . وإنما يرمي إلى أن يقف على ما انتهج العرب في دراستهم اللغة العربية والنحو العربي متأثرين بما أُثر عن سواهم أو مستقلين بمناهج ابتكروها . ومن المعروف غلوُّ المستشرقين في تعظيم اليونان وفي تضخيم الأثر الذي تركته ثقافتهم في الثقافة العربية . « ومن المؤكد أن الحركة الاستشراقية كانت تختلط أحياناً دوافعها النبيلة بأهداف الاستعمار الذي يسخرها لمخططاته »[1] .

ويمكن تلخيص المسألة التي أثارها المستشرقون ، ومن حذا حذوهم من العرب بأن علماء العرب القدماء ، ومنهم الخليل بن أحمد [ت : ١٧٥هـ] ، تأثروا باليونان والهنود حينما وضعوا النحو العربي ، وحينما صنعوا المعجم العربي ، لكن التأثير اليوناني أوسع وأعمق . فما سمة المنهج اليوناني ؟ وما مدى تأثيره في الدراسات اللغوية العربية القديمة ؟

---

(١) في علم اللغة العام ، د . عبد الصبور شاهين ص١١ القاهرة ١٩٧٤م .

ثانياً ــ منهج اليونان وتأثيره في الدراسات اللغوية العربية

يجمع الباحثون على أن الإغريق كانوا يجلون الفلسفة غاية الإجلال ، ويعدونها أم العلوم ، ولهذا أتاحوا لها أن تطغى على علومهم وآدابهم ، فلم ينج من سلطانها الفلك والرياضيات ، فكيف ينجو منه النحو واللغة ؟ ولعل أهم ما كان يشغل فلاسفتهم ــ وهم في الوقت نفسه علماء اللغة ــ أن يصلوا إلى جذور اللغة الإنسانية وأصولها ، أي أن يقفوا على نشأة اللغة . وأبرز آرائهم في هذا الميدان رأيان :

أولهما يذهب إلى أن اللغة توقيفية ، إذ يرى « أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلهي ، هبط على الإنسان ، فعلمه النطق وأسماء الأشياء . وإلى هذا الرأي ذهب الفيلسوف هيراقليط Heraclit[٢] . ثم تابعه فريق من الأوروبيين ، وشفعوا رأيهم بما ورد في سفر التكوين من خبر آدم ، ومن وضعه أسماء الحيوانات والطيور منذ خلقها الله[٣] .

وثانيهما « أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق ، وارتجال ألفاظها ارتجالاً . وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني ديموقريط Democrite وهو من فلاسفة القرن الخامس ق . م »[٤]

والكتاب الذي بين يديك كان قد ناقش في حديثه عن نشأة اللغة هذين الرأيين ، وأضاف إليهما أن أحمد بن فارس اللغوي [ت : ٣٩٥هـ] رجح النشأة الإلهية ، وأيّد رأيه بقوله تعالى ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾[٥] ، وأن أبا الفتح عثمان بن جني [ت : ٣٩٢هـ] أوّل الآية نفسها تأويلاً قرّب معناها من الرأي الثاني القائل بالتواضع ، لكنه لم يرجح رأياً على رأي .

ولا يعنينا ههنا أن نوازن ونرجح ، وإنما يعنينا أن نقف على السمة الأساسية التي اتسم بها منهج اليونان في دراسة اللغة . وهي التأمل والنظر والتفكير المجرد غير المشفوع بملاحظة مباشرة . وأنّى لفلاسفة اليونان أن يظفروا بمثل هذه الملاحظة حين ناقشوا ما لم يعايشوا ، ودرسوا نشأة اللغة بعد أن اكتملت . إنهم كمن يدرس جذور شجرة خفيت في الأرض ، وهو لا يرى إلا الغصون والأوراق .

---

(٢) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٩٧ .

(٣) سفر التكوين ٢/ ٢٠ .

(٤) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٩٨ .

(٥) البقرة ٣١ .

ولو تهيأت لهم الرغبة في أن يعالجوا نشأة اللغة بأسلوب علمي لما تهيأت لهم القدرة على تحقيق ما يرغبون في تحقيقه، لأنهم تخيروا موضوعاً ينتمي إلى مرحلة طواها الزمان. «والمنهج العلمي يبدأ بملاحظة منظمة للظواهر المراد بحثها. وهذا العمل يفترض عملية اختيار وانتقاء وعزل للوقائع التي تهم الباحث في ميدان عمله بين ألوف الوقائع»(٦). وكل ذلك لم يكن ميسوراً. ولهذا لا يجد الباحث في الدراسات اللغوية اليونانية منهجاً علمياً، بل يجد نظرات محمولة على الظن والتخمين.

حتى النظريات المطروحة للمناقشة في حاجة إلى أدلة وبراهين، وليس في مذهبي هيراقليط وديموقريط دليل واحد قوي، يمكن جعله ذريعة لوسم المنهج اليوناني بالسمة العلمية. ولهذا فنحن «لسنا هنا بصدد نظرية جديرة بالمناقشة، بل بصدد تخمين خيالي وفرض عقيم، يحمل في طيه آية بطلانه»(٧).

إن هذا التخمين الخيالي العقيم هو الذي ضخمه المستشرقون، وجعلوه أساساً للمنهج العربي في دراسة اللغة. أو جعلوه، على أقل تقدير، أحد المؤثرات البارزة في هذا المنهج. قال المستشرق بارتولد ـــ وقوله غير مشفوع بدليل ـــ: «ألف الخليل كتابه المذكور (يعني العين) في خراسان، ويتضح من هذا القاموس تأثير اليونان في علوم العرب»(٨). فكيف اتضح له ما اتضح؟

ثم أخذ الباحثون العرب يتبعون خطوات المستشرقين، ليبرزوا تأثير اليونان، وجعلوا ترجمة التراث اليوناني إلى لغة العرب برهانهم الأول، فقال قائلهم: «ولعل العرب لم يترجموا عن أمة كما ترجموا عن اليونانية إما مباشرة، أو عن طريق السريانية. ومن المعلوم أن أرسطو كان له نصيب الأسد في الكتب المترجمة إلى اللغة العربية، وأن منطقه أصبح شهيراً في البلاد الإسلامية في العصر العباسي»(٩).

ولما كان تأثير الترجمة يتصف بالعموم، ويمكن تلمُّسه في الثقافة كلها لا في الدراسات اللغوية وحدها، فقد نقل الباحث العربي المسألة إلى ميدان ضيّق، ورأى أن التأثير وقع على مرحلتين: وهما اختلاط الدراسات اللغوية اليونانية بفلسفة أرسطو عامة وبمنطقه خاصة، ثم انتقال هذا الاختلاط إلى دراستنا اللغوية العربية بصورة خاصة، وإلى نحونا بصورة أخصّ،

---

(٦) التفكير العلمي، د. فؤاد زكريا ص٣١ سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٧٨م.

(٧) علم اللغة، د. علي عبد الواحد وافي ص٩٩.

(٨) تاريخ الحضارة الإسلامية، بارتولد ص٣٩ ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف مصر.

(٩) مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان ص١٦ القاهرة دار الكتب ١٩٥٥م.

فقال : « هذه الدراسات اللغوية القديمة تختلط إلى حدّ كبير جدّاً بالنظريات المنطقية والميتافيزيقية ... وإن من يقرأ ما كتبه أرسطو في المقولات والعبارة والتحليلات الأولى والثانية ليجدها مليئة بالنظرات التي تخلط بين التفكير اللغوي والفلسفي »[١٠] .

ثم خطا الباحث خطوة أخرى ، فذهب إلى أن المناظرات اللغوية والنحوية التي كانت تدور بين حملة الثقافة اليونانية من المسيحيين من ناحية ، ونحاة العرب من ناحية أخرى تبرز تأثير المنطق اليوناني في النحو العربي ، فقال : « وكم دارت المناظرات بين هؤلاء المسيحيين وبين علماء الإسلام في قصور الخلفاء وفي خارجها ... وكانت الأدلة في هذه المناظرات تصاغ على مثال الأقيسة الأرسطوطاليسية . وكان منطق أرسطو عند الفريقين مرجعاً نافذ الحكم والقضاء »[١١] . « وأشهر مناظرة جرت بين النحاة والمناطقة تلك التي كانت بين متى بن يونس الفيلسوف وأبي سعيد السيرافي النحوي سنة ٣٢٠هـ »[١٢] .

ولا يستطيع الباحث القائل بالتأثير اليوناني ، والمنكر المدافع عن تفرد المنهج العربي أن يصلا إلى رأي قاطع في هذا الخلاف إلا بعد دراسة المنهج العربي ، وبعد مقارنة سماته بسمات المنهج اليوناني ، فإذا فعل ذلك أمكنه أن يضع المنهج العربي في مكانه من مناهج الدراسة اللغوية ، وأن يحكم له أو عليه بلا تعنت ولا تزمت ، وبعيداً عن التعصب والتحزب . فما طبيعة هذا المنهج ؟ وما مدى تأثره بمنهج اليونان ؟

ثالثاً ــ المنهج العربي الوصفي في دراسة اللغة

لن يكون الحكم على طبيعة المنهج العربي صادقاً إلا بالعودة إلى بداية العناية باللغة ، وتحوّل هذه العناية إلى رواية ودراية في المراحل الأولى ، ثم إلى دراسة منظمة ذات أصول متبعة في المراحل الأخيرة . ويلاحظ المتتبع لهذه المراحل أن التحوّل تمَّ على نحو بطيء لكنه واعٍ ، أملاه ارتباط الإنسان العربي المسلم بالقرآن الكريم لا محاكاةُ الثقافة المترجمة .

كانت الخطوة الأولى حماية التلاوة من اللحن الذي فشت فاشيته منذ اختلط العرب بالأعاجم ، فكلف زياد بن أبيه أبا الأسود الدؤلي [ت : ٦٩هـ] بضبط القرآن الكريم ،

---

(١٠) المصدر السابق ص١٤ .

(١١) المصدر السابق ص١٧ .

(١٢) النحو العربي والدرس الحديث ، د. عبده الراجحي ص٦٦ دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٦ .

فضبط حركاته بنقاط توضع فوق الحرف أو تحته أو بين يديه . ثم كلف الحجاجُ ـــ وهذا التكليف يعد الخطوة الثانية ـــ نصرَ بن عاصم [ت : ٨٩هـ][١٣] بإصلاح الرسم للتمييز في قراءة المصحف بين الحروف المتشابهة كالحاء والخاء ، والباء والتاء . فأعجم نصرٌ الحروفَ . ثم خطا الخليل بن أحمد [ت : ١٧٥هـ] الخطوة الثالثة ، إذ طوّر رموز أبي الأسود ، فضبط الحركات برموز أخرى غير النقاط ، ليميز رموز الضبط من رموز الإعجام . فرمز للفتحة بألف صغيرة تعلو الحرف المفتوح ، وللضمة بواو صغيرة تعلو الحرف المضموم ، وللكسرة بياء صغيرة تذيل الحرف المكسور[١٤] .

والخطوة الأولى التي خطاها أبو الأسود أدت إلى تساؤل الناس عن سبب الرفع أو النصب أو الخفض في كل كلمة ضبطها أبو الأسود . فلما فكر أبو الأسود في الإجابة قاده التفكير إلى سرّ النحو . وسواء أكانت البذور الأولى لهذا العلم من ابتكار علي بن أبي طالب رضي الله عنه أم من ابتكار أبي الأسود ، فإن مجموعة المبادىء التي سجلها أبو الأسود في بضع صحائف سمّيت (التعليقة)[١٥] ، تعد الأساس الأول لعلم النحو ، وهو أساس عربي خالص لا أثر للمنطق أو للفلسفة فيه .

ولم تكن الحميّة التي دفعت أبا الأسود إلى التفكير في وضع النحو طائفاً فرديّاً طاف به وحده ، بل كانت ترجمة لتيّار أخذ يتعاظم ، وتسري مشاعره الخيرة في نفوس الغيارى على كتاب الله وحديث النبي ﷺ . فهبّ المفسرون الأوائل ، ومنهم عبد الله بن عباس [ت : ٦٨هـ] يجمعون الشعر والأمثال والخطب ليفسروا بألفاظها ألفاظ الكتاب والسنة[١٦] .

ثم تعاظمت الموجة ، وغدت رواية الشعر مكرمة يتبارى الناس في حيازتها ، واندفع الرواة ـــ وكلهم قارىء أو حافظ أو نحوي ـــ إلى البادية ، يجمعون الشعر من أفواه الأعراب ، ويستقونه صافياً من منابعه الأولى . ومن هؤلاء الرواة عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي [ت : ١١٧هـ] وعيسى بن عمر [ت : ١٤٩هـ] وأبو عمرو بن العلاء [ت : ١٥٤هـ] والنضر بن شميل [ت : ٢٠٣هـ] وآخرون . كانوا يذهبون بالصحف والأقلام والحبر إلى نجد والحجاز ، ويعودون بفصيح الشعر مخطوطاً في السطور ، أو محفوظاً في الصدور .

---

(١٣) انظر التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري ص١٠ مطبعة القاهرة ١٩٠٨م .

(١٤) المحكم في نقط المصاحف لأبي عمرو الداني ص٦ ـــ ٧ . تح د . عزة حسن دمشق ١٩٦٠م .

(١٥) انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي ٤٩/١٤ القاهرة مكتبة البابي الحلبي ١٩٣٦م .

(١٦) انظر تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ٢٤/١ طبع البابي الحلبي القاهرة ١٩٥٤م وتفسير الطبري (جامع البيان . .) ١٧٥/١ .

ورافقت مرحلةَ الجمع وأعقبتها مرحلةُ التأليف والتصنيف . نهض بها هؤلاء الرواة ، إذ صنفوا مما جمعوا رسائل وكتباً في اللغة والنحو والصرف وغريب القرآن وغريب الحديث والحيوان والنبات . ألف أبو عمرو بن العلاء النوادر في اللغة(١٧) ، وألف عيسى بن عمر الجامع والإكمال في النحو(١٨) ، وألف عبد الله بن أبي إسحاق الهمز(١٩) في الصرف ، وألف عبد الملك بن قريب الأصمعي [ت : ٢١٣هـ] في غريب الحديث(٢٠) ، وألف أبوفيد مؤرج السدوسي [ت : ١٩٥هـ] في غريب القرآن(٢١) .

ومن يرجع إلى فهرست ابن النديم ، وإلى ما ذكرته كتب الرجال والتراجم يجد عشرات الكتب اللغوية في الإبل والشاء والمطر وخلق الإنسان . وهذه المؤلفات التي لم يكن فيها لفلسفة اليونان ومنطق أرسطو أدنى أثر أو ذكر تثبت أن الدراسات اللغوية — إذا توسّعنا في معنى الدراسة وألحقنا بها الجمع والتصنيف — بدأت بداية عربية خالصة ، لا أثر فيها لدخيل .

وفي النصف الثاني من القرن الثاني الهجري نقل علماء اللغة العرب بحوثهم اللغوية من مرحلة الجمع والتصنيف إلى مرحلة الصنع والتأليف ، ومن الاعتماد على السماع وحده إلى مزج السماع بيسير من القياس العقلي . وحسبنا ههنا أن نشير إلى كتابين يمثلان أرق ما وصل إليه البحث اللغوي في تلك المرحلة : أحدهما في اللغة ، وهو معجم العين للخليل بن أحمد [ت : ١٧٥هـ] . والثاني في النحو ، وهو (الكتاب) لسيبويه عمرو بن عثمان [ت : ١٨٠هـ] ، وكلا الكتابين ينهج المنهج الوصفي الذي تباهي بانتهاجه الدراسات الغربية الحديثة . وتتبدى سمات هذا المنهج فيما يلي :

١ — **تحديد الزمان** : يرى أصحاب المنهج الوصفي أن اللغة دائمة التغير . ولهذا فكل دراسة لا يُحْصَرُ موضوعهابفترة زمنية محددة تعد عملاً غير علمي . فربما أدرك التطور الظاهرة المطروحة للبحث قبل أن ينجز الباحث بحثه ، وقبل أن يتوصل إلى نتائج محددة . وحينئذ يضطر إلى العوْد على البدء ، وإلى اتخاذ بداية ونهاية أخريين ، تحصران بحثه(٢٢) .

---

(١٧) الفهرست لابن النديم ص ١٣٠ .

(١٨) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص٣٢ المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٦م .

(١٩) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص١٢ تح محمد أبي الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٥٧م .

(٢٠) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٤/١ تح الزاوي والطناحي القاهرة ١٩٦٣م .

(٢١) إنباه الرواة للقفطي ٣٢٧/٣ تح أبي الفضل إبراهيم دار الكتب القاهرة ١٩٥٠م .

(٢٢) انظر مبادىء اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص٢٣ . دار الفكر دمشق بيروت ١٩٩٦م .

ولو ضربنا ما فعله الخليل في العين وسيبويه في الكتاب على محك المنهج الوصفي لوجدنا الزمن محدد البداية والنهاية . أما البداية فالقرن الذي سبق الإسلام ، وأما النهاية فسنة ١٥٠هـ . فكل كلام مات قائله بعد هذه السنة مرفوض لا يحتج به ، أي لا يجوز إقحامه في دراسة اللغة والنحو ، لأن موجة اللحن كانت قد اتسعت مع مرور الزمن ، وهجنت كلام الفصاح .

ولك أن تأخذ على صنيع النحاة تطاول القيد الزمني ، لأن المنهج الوصفي يؤثر الزمن القصير ، ويرى أنه كلما قصر الزمن قربت النتائج من الدقة . وعذرُ الخليل وسيبويه أنهما لم يدرسا ظاهرة جزئية من ظواهر اللغة العربية ، بل تناولا اللغة العربية كلها ، فلا ضير على منهجهما من استطالة الزمن ، فإن تعديل المنهج في سبيل إنجاز العمل أولى من التزامه إذا أدى الالتزام إلى النقص . وإذا كانت البداية في المادة التي درسها الخليل وتلامذته غير واضحة فالنهاية التي وقفوا عندها واضحة كل الوضوح . ومما يشفع لهم ، ويزيد عملهم تحقيقاً وتدقيقاً أن القدر الأكبر من المادة التي درسوها كان حيّاً تلهج به ألسنة الأعراب الذين يتصل بهم الدارسون صباحَ مساء .

٢ ــ **تحديد المكان** : ويقضي المنهج الوصفي بأن يحدد الباحث مكان المادة المدروسة ، لأن عدم التحديد يعرض هذه المادة للاختلاط بما يشوبها من الأماكن المجاورة . والمدرسة البصرية ــ والخليل وسيبويه أكبر رؤوسها ــ حددت البقعة التي تدرس لغتها ، إذ تخيرت قلب الجزيرة العربية ، وتخيرت من هذا القلب نجداً والحجاز وزهدت فيما سواهما . فاحتجت بلغة قريش وثقيف وهذيل وغطفان . « وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم . وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية »[٢٣] .

ثم ضيَّقت مدرسة البصرة قيد المكان ، إذ رفضت الاحتجاج بكلام الأعراب الذين يبارحون البادية ، ويحيون في الحواضر ، لأن تركهم بيئتهم يعرض لغتهم للفساد . قال أبو عمرو ابن العلاء : « لم أر بدوياً أقام في الحضر إلا فسد لسانه غير رؤبة والفرزدق »[٢٤] .

٣ ــ **تحديد المستوى** : القيدان السابقان قيد الزمان وقيد المكان أفضيا بالمنهج الوصفي إلى قيد ثالث ، وهو تحديد المستوى ، لأن الوصفيين حينما رسموا للظاهرة المدروسة

---

(٢٣) مقدمة ابن خلدون ص٦٤٩ القاهرة ١٩٣٠م .

(٢٤) خزانة الأدب للبغدادي ١/٤٠٢ طبعة بولاق ١٢٩٩هـ .

إطاراً تاريخياً وإطاراً جغرافياً قصدوا حصر المستوى اللغوي للظاهرة. وإلى هذه الغاية ذهب نحاتنا في تحديد الزمان والمكان قبل وضع القواعد، إذ رموا إلى اختيار المستوى اللغوي الفصيح، وانتباذ ما عداه من اللهجات المضعوفة والكلام الملحون، أي: إلى إيثار لغة قريش على مستويات اللهجات التي تسرب إليها اللحن من مخالطة الأعاجم.

ويبدو أن البصريين كانوا أشدّ تقيّداً بقيود المنهج الوصفي من الكوفيين، إذْ أجاز الكوفيون لأنفسهم الأخذ من البدو الذين أخذوا يتأثرون بالحضارة، وهم «أعراب سواد الكوفة من تميم وأسد، وأعراب سواد بغداد من أعراب الحطمة»[٢٥].

وإنك لتتذكر أن الكسائي لم يظهر على سيبويه في المسألة الزنبورية إلا بحجج واهية، وشواهد مضعوفة ظاهره بها أعراب الحطمة، وتذكر كذلك أن البصريين أشبعوا الكوفيين سخراً لخروجهم على المستوى الفصيح، ولقبولهم هذا النمط المرفوض من الشواهد، ولذلك قال قائل البصريين: «إنما أخذنا اللغة عن حَرَشة الضباب وأكلة اليرابيع، وهؤلاء (الكوفيون) يأخذونها عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ»[٢٦].

رابعاً ــ مقارنة المنهج العربي الوصفي بالمنهج اليوناني

من يقرن المباحث العربية اللغوية بما يشبهها من المباحث اليونانية يجد بوناً شاسعاً بين الفريقين في الموضوعات والغايات والسمات. والمباحث العربية المعنية ههنا هي ما أنجز قبل نهاية القرن الهجري الثاني.

عالج اليونان أصل اللغة ونشأتها، ومرّ بها العرب غير متلبثين لعدم جدواها. فالمفسرون، ومنهم مجاهد وابن عباس أدلوا بما اعتقدوا، وعلماء اللغة آثروا الانصراف عن الجذور التاريخية إلى اللغة الحية، فشغلهم نحوُ لغتهم عن نبش القبور والتفتيش عن الجذور، وقال قائلهم: «الصحيحُ عندي أنه لا فائدة لهذه المسألة، وهو ما صححه ابن الأنباري وغيره»[٢٧].

وغاية المباحث اليونانية ربط اللغة بالفلسفة، وإخضاع النحو للمنطق، والادعاء بأن مقولات النحو اليوناني مقولات عقلية فلسفية. وبذلك سارت الدراسات اللغوية في ركاب

---

(٢٥) مدرسة الكوفة، د. مهدي المخزومي ص٣٣١ القاهرة ١٩٥٨م.

(٢٦) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص٦٨. تح الزيني وخفاجي مطبعة البابي القاهرة ١٩٥٥م

(٢٧) المزهر للسيوطي ٢٦/١ حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ورفاقه القاهرة ١٩٥٨م.

الفلسفة اليونانية التي كانت تهيمن على كل علم وكل فن. ثم امتدّ أثر الفلسفة اليونانية إلى النحو الأوروبي التقليدي، فبسطت عليه مفاهيمها. «وهو نحوٌ مستمدّ أساساً من أفكار أرسطو عن طبيعة اللغة اليونانية وعلم المنطق، ومزيج من آراء أفلاطون ونظريات الرواقيين عن أجزاء الكلام، وأفكار عن طبيعة المعنى»(٢٨).

وسمات المنهجين متباينة كل التباين. والفرق بينهما — وهذا الفرق أهم ما يهمنا ههنا — فرق جوهري لا مظهري، يجعل كلاً منهما ينتمي إلى طريقة متميزة في البحث. فطريقة الدراسة التي سلكها النحو اليوناني تسمى في علم اللغة الحديث: طريقة «النحو التقليدي Traditional Grammar ويعنون به منهج النحو القائم على أفكار أرسطو عن طبيعة اللغة اليونانية، كما تتمثل في أعمال اليونان والرومان القدماء»(٢٩).

وطريقة الدراسة في النحو العربي تسمى في علم اللغة الحديث المنهج الوصفي Descriptive Method وهذه الطريقة هي التي التزمها علماء العرب في عصر الخليل، وهي الطريقة التي تنتهجها في العصر الحاضر أحدث الدراسات اللغوية الغربية على النحو الذي سنبسطه بعدُ. «والفرق الجوهري بين النحو التقليدي والنحو الوصفي التركيبي هو الفرق بين منهج العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية»(٣٠).

مما سبق يتبين أن الذين يربطون الدراسات اللغوية العربية القديمة بالمنهج اليوناني يبخسون العرب حقهم، ويحملون على ظهر المنهج العربي الوصفي أوزار المنهج التقليدي الغربي. والدليل على ما نذهب إليه أن من الذين أزرَوْا بالمنهج العربي وألحقوه بالمنهج اليوناني مَنْ أقرَّ للعرب باتباعهم المنهج الوصفي قبل أن تكتشفه الدراسات الغربية، فقال: «الاتصال المباشر بالواقع اللغوي أصل من أصول النحو الوصفي ... وقد كان أيضاً أصلاً من أصول النحو العربي نتيجة لطبيعة الحياة العربية، ولطبيعة الحركة العلمية التي نشأت في مناخ عام أساسُه النقل والرواية. وقد أدى هذا الاتصال إلى أن يكون في النحو اتجاه وصفي في تناول كثير من ظواهر اللغة»(٣١).

ويغلب على الظن أن التبعة في حَمْل المنهج العربي الوصفي على المنهج الغربي التقليدي تعود إلى تأثر المنهجيْن جميعاً بمنطق أرسطو، وبما فيه من قياس تأثراً تختلف درجته وطبيعته.

---

(٢٨) منهج البحث اللغوي، د. علي زوين ص١٠ وزارة الثقافة العراقية بغداد ١٩٨٦م.

(٢٩) النحو العربي والدرس الحديث، د. عبده الراجحي ص٤٥. دار النهضة بيروت ١٩٨٦م.

(٣٠) المصدر السابق ص٤٥.

(٣١) اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان ص٣٧ القاهرة ١٩٥٨م.

ونحن ــ على إقرارنا بشيوع القياس والعلة في نحو المتأخرين ــ نزعم أن المنطق ليس وقفاً على اليونان وأرسطو وأن القياس أصلٌ، أو أسلوب إنساني عام يسلكه العقل في التفكير، فليس كل من علل وقاس تابعاً لليونان.

تلك واحدة، والثانية أن القياس والعلة لم يكن لهما إلا أثر محدود في نحو المتقدمين، وأنهما شاعا بعد ذلك في نحو المتأخرين وبحوثهم اللغوية والصرفية حينما اختفت البيئة الصالحة لنمو المنهج الوصفي باختفاء السلائق الفصيحة والملكات الصحيحة التي كان يستقي منها المتقدمون. ومن المعروف أن الدراسات العربية في أكثر العصور ازدهاراً، وفي أشدها تخلفاً لم تعترف باللهجات العامية، ولم تجعلها موضع درس ووصف. فكيف يبقى المنهج الوصفي حياً بعد أن ماتت العوامل التي تكفل له البقاء والنماء؟

لقد سبقنا إلى ما يشبه هذا الرأي الدكتور عبده الراجحي، فقال: «إن النحو العربي قد تأثر بالمنطق الأرسطي منذ مراحله الأولى، وإن هذا التأثر صار طاغياً في القرون المتأخرة. وقد أدى ذلك إلى أن يكون النحو العربي صورياً، وليس واقعياً. ومن ثمّ اهتم بالتعليل والتقدير والتأويل، ولم يركز درسه على الاستعمال اللغوي كما هو»(٣٢).

خامساً ــ المنهج العربي المعياري في دراسة اللغة

العيار في اللغة القياس، والمعيار المقياس، من عايرت الشيء بالشيء: إذا قستَهُ به تمتحنُهُ وتعرف صحته. والعيار أو المعيار هو ما جُعل مقياساً للدراهم والدنانير ليعرف ما فيها من الفضة والذهب. فلك أن تعد المنهج المعياري في دراسة اللغة، استناداً إلى هذا الأساس، اصطلاحاً حديثاً لما كان يعرف بمدرسة القياس. ويسميه الغربيون Prescriptive System ويسمون اللغة الفصيحة التي تُجعل معياراً لغيرها من اللهجات Standard Language(٣٣).

وأصل اللغة المعيارية لهجة من اللهجات القومية، قيّض الله لها من أسباب الرقي والزعامة ما أعلاها على سواها، فأصبحت اللغة الرسمية للأمة، ولغة العلم والأدب. وأفضلُ مثال عليها لهجة قريش التي بزت في أواخر العصر الجاهلي غيرها من اللهجات، فأقرت لها القبائل بالسيادة والشرف(٣٤).

وأهم العوامل التي بوأت لهجة قريش هذه المكانة المعيارية سيادة قريش السياسية،

---

(٣٢) النحو العربي والدرس الحديث د. عبده الراجحي ص٤٨.

(٣٣) منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، د. علي زوين ص٢٣.

(٣٤) المصدر السابق ص٢٣.

ومنزلتها الدينية في حماية الكعبة وسدانتها، وسيطرتها على الأسواق. كل ذلك حمل العرب على أن يؤثروها على لهجاتهم، وعلى أن يتخذوها اللهجة المثلى في المحافل، يتحدث بها الوفود، وتلقى الخطب، وينظم الشعر.

فلما نزل بها كتاب الله زادت رسوخاً وشموخاً، وأصبح التزامها واحترامها واجباً دينياً، يدين به المسلمون على اختلاف ألوانهم وألسنتهم، بعد أن كانت رابطة قومية، يعتصم بها العرب وحدهم. وغدت دراستها محور المنهج المعياري. ونقطةُ الدائرة في هذا المحور فهم القرآن الكريم وإفهامه.

ولك أن تسأل عن السبب الذي جعل المنهج الوصفي يسبق المنهج المعياري في دراسة العربية. والإجابة كامنة في طبيعة التطور الذي اجتازته الحركة الفكرية العربية. ففي العهد الأول كان همُّ اللغويين الجمع والإحصاء والاستقصاء والاستقراء، ثم استنباط الأحكام من الكلام، وكل ذلك من طبيعة المنهج الوصفي. إن الوصفيين لم يكونوا في حاجة إلى كثير من المنطق، بل كان يكفيهم منه اليسير القادر على تنسيق الدراسة وإسباغ الطابع العلمي المنظم عليها، تمهيداً لتحويل العلم الذي كشف عنه المنهج الوصفي إلى ميدان التعليم الذي تبنّى المنهج المعياري، أي: لوضع القواعد في أيدي الناشئة، بغية دراستها لتعصم ألسنتهم من اللحن.

إن نقل علم اللغة من إطار الدرس إلى إطار التدريس ساعد على نقل المنهج من الوصف إلى المعيار لسبب واضح، وهو أن التدريس يفرض على المعلم والمتعلم معياراً يحتكمان إليه في تمييز الصواب من الخطأ. ولما كان المعيار القديم الذي احتكم إليه الكسائي وسيبويه وهو البيئة الأعرابية ــ قد اختفى فإن المرجع الوحيد الذي بقي بين أيدي العلماء هو ما ورثوه من قواعد وشواهد، ولذلك أخذت المناهج تبتعد عن السماع وتلتصق بالقياس، حتى أصبح القياسُ الحَكَم الوحيد في تمييز المقبول من المرذول.

ولما كان القياس ــ وهو العصب المحرك للنحو المعياري ــ قد اتخذ وسيلة لضبط التفكير في أكثر العلوم، لا في علم اللغة وحده، فإنه سيطر على النحو سيطرة تامة، وأصبح علماء اللغة يؤثرون الصورة على المادة. فانصرفوا عن وصف اللغة وتحليلها إلى تثبيت القواعد الموروثة، ورصّها في تعريفات وحدود كلية، توخوا في صياغتها الدقة، لتكون جامعة مانعة، حتى ظهرت كتب كاملة لا تجد فيها غير التعريفات، يضيق بعضها فلا يزيد على بضع ورقات، ويتسع بعضها، فيُعدّ بالمجلدات [٣٥].

---

(٣٥) من الصنف الموجز رسالة الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة للأنصاري تح د. مازن المبارك، ومن المطول الكليات للكفوي.

على هذا النحو انقلبت النهاية إلى بداية ، إذ انقلبت النتائج أي : القواعد التي توصل إليها المتقدمون من انتهاجهم المنهج الوصفي إلى ركائز يعتمد عليها المتأخرون في بناء المنهج المعياري ، وأصبح الخطأ في خمسين مسألة من مسائل السماع أهون على أبي علي الفارسي [ت : ٣٧٧هـ] من الخطأ في مسألة واحدة من مسائل القياس(٣٦) . وراح علماء اللغة يلتمسون العلل من أصول الفقه(٣٧) ، ويقارنون علل النحاة بعلل الفقهاء ، والمتكلمين(٣٨) ، ويصنفون الأشباه والنظائر في النحو على غرار الأشباه والنظائر في الفقه(٣٩) ، ويخصصون كتباً مطولة لعلل النحو ، أي لفلسفة النحو المعياري .

وتجلّى الكلف بالعلل في مظهرين : أولهما الإسراف في تشقيق العلل وسردها ، حتى إن أبا البقاء العكبري [ت : ٦١٦هـ] جمع منها مجلدين يقعان في أكثر من ألف صفحة(٤٠) ، واستطاع أن يعلل المسألة الواحدة باثنتي عشرة علة(٤١) ، وهي في مجموعها علل عقلية خالصة ، قاد إليها المنطق ، ولم يرد بها السماع .

والمظهر الثاني الذي تجلى به كلف العلماء بالتعليل تشقيق العلل بعضها من بعض وتفريعها وتنويعها وبناء بعضها على بعض . ومن يستعرض عنوانات الجزء الأول من خصائص ابن جني يظفر بأكثر مما تحتاج إليه الدراسة اللغوية لو أنها سلكت غير المنهج المعياري . فبعضها يدعى العلل الموجبة ، وبعضها يدعى العلل المجوزة ، وبعضها يعلل العلة ويسمى علة العلة ، والمعلول قد يعلل بعلتين ، والحكم قد يبقى مع زوال العلة ، والعلل قد تتعارض وتتناقض ، وقد تتظاهر وتتآزر(٤٢) .

---

(٣٦) الخصائص ٨٨/٢ وفي أصول النحو ، سعيد الأفغاني ص٨٦ المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٧م .

(٣٧) الخصائص لابن جني ١٦٣/١ .

(٣٨) الخصائص ٤٨/١ .

(٣٩) الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي .

(٤٠) اللباب في علل البناء والإعراب لأبي البقاء العكبري .

(٤١) اللباب في علل البناء والإعراب للعكبري ١٤٩/١ تح د . غازي مختار طليمات ود . عبد الإله نبهان دمشق دار الفكر ١٩٩٥م .

(٤٢) للوقوف على هذه الأنواع من العلل انظر الخصائص ١٦٤/١ ، ١٦٤/١ ، ١٧٣/١ ، ١٧٤/١ ، ١٥٧/٣ ، ١٦٦/١ ، ١٩٤/١ .

سادسا ـــ مقارنة المنهج المعياري بالمنهج الوصفي

تخرج من خصائص ابن جني ولباب العكبري معجباً بذكاء النحاة ، غير أن إعجابك يحملك على التساؤل عن الفائدة من التعليل والتأويل ، فتقول : هل الدراسة اللغوية في حاجة إلى كل هذه العلل ؟ وهل فهم العربية وإفهامها في حاجة إلى المنطق اليوناني ؟

ينكر الوصفيون على علم اللغة حاجته إلى المنطق ، « لأنه يوجد القاعدة أولاً ، ثم يفكر فيما يمكن أن يدخل تحتها من المفردات »(٤٣) ، ويرون أن الأسلوب الوصفي القديم كان أنجع وأنفع ، لأنه استقرأ ثم قعّد ، فلماذا عكس المتأخرون طرفي المعادلة ؟

إذا كان لك أن تنصف النحاة المتأخرين من النقاد المحدثين فقل : إن المتأخرين من النحاة وعلماء اللغة حرصوا على سلامة اللغة ، فآثروا صحة المادة على صحة المنهج ، وتخيروا المنهج المعياري لأنه يرسخ الصواب ، ويصبه في قوالب ثابتة ، لا تقبل التغيير . فالصواب إذن هو القاعدة الموروثة لا الاستعمال المستحدث . فمتى ظهرت صور جديدة في التعبير عرضت على القواعد المعيارية ، فإن وافقتها أُقرت ، وإن عارضتها رُفضت .

والصواب عند الوصفيين المحدثين هو الاستعمال الحيّ الشائع . فمتى شاع التعبير وتقبله المجتمع غدا صواباً . إنه « مقياس اجتماعي يفرضه المجتمع اللغوي على الأفراد »(٤٤) . وهذا يعني أن الصواب عرضة للتبدل ، لأن التطور الاجتماعي يستتبع تطور اللغة ، وتطور اللغة يفتح باب الابتداع ، والوصفية المحدثة لا تقف عند حدّ الإقرار بصحة الابتداع ، بل تقلب القاعدة المعيارية ، فتسفه القديم بلا تحرج ، « فما كان صواباً في الماضي يصبح خطأً في الوقت الحاضر ، ويصبح خطأ اليوم صواب الغد إذا رأى المجتمع أن يتبناه في الاستعمال »(٤٥) .

وينجم عن الموقف المحافظ الذي يقفه المنهج المعياري من الخطأ والصواب أمرٌ آخر ، يتعلق بصياغة الألفاظ الجديدة . فالمعياريون يربطون الصياغة بالمعايير القديمة الثابتة ، أي : يضربونها على محك الصواب قبل إقرارها أو إنكارها . والوصفيون يحتكمون فيها إلى المجتمع . فمتى شاعت الصيغة المبتدعة ـــ ولوسائل الإعلام السلطانُ الأكبر في إشاعتها ـــ أقرّها الوصفيون ، ولم يستفتوا فيها غير التداول .

---

(٤٣) مناهج البحث في اللغة ، د. تمام حسان ص٣٣ .

(٤٤) اللغة بين المعيارية والوصفية ، د. تمام حسان ص٦٩ .

(٤٥) المصدر السابق ص٦٥ .

على هذا النحو انقلبت النهاية إلى بداية، إذ انقلبت النتائج أي: القواعد التي توصل إليها المتقدمون من انتهاجهم المنهج الوصفي إلى ركائز يعتمد عليها المتأخرون في بناء المنهج المعياري، وأصبح الخطأ في خمسين مسألة من مسائل السماع أهون على أبي علي الفارسي [ت: ٣٧٧هـ] من الخطأ في مسألة واحدة من مسائل القياس(٣٦). وراح علماء اللغة يلتمسون العلل من أصول الفقه(٣٧)، ويقارنون علل النحاة بعلل الفقهاء، والمتكلمين(٣٨)، ويصنفون الأشباه والنظائر في النحو على غرار الأشباه والنظائر في الفقه(٣٩)، ويخصصون كتباً مطولة لعلل النحو، أي لفلسفة النحو المعياري.

وتجلّى الكلف بالعلل في مظهرين: أولهما الإسراف في تشقيق العلل وسردها، حتى إن أبا البقاء العكبري [ت: ٦١٦هـ] جمع منها مجلدين يقعان في أكثر من ألف صفحة(٤٠)، واستطاع أن يعلل المسألة الواحدة باثنتي عشرة علة(٤١)، وهي في مجموعها علل عقلية خالصة، قاد إليها المنطق، ولم يرد بها السماع.

والمظهر الثاني الذي تجلى به كلف العلماء بالتعليل تشقيق العلل بعضها من بعض وتفريعها وتنويعها وبناء بعضها على بعض. ومن يستعرض عنوانات الجزء الأول من خصائص ابن جني يظفر بأكثر مما تحتاج إليه الدراسة اللغوية لو أنها سلكت غير المنهج المعياري. فبعضها يدعى العلل الموجبة، وبعضها يدعى العلل المجوزة، وبعضها يعلل العلة ويسمى علة العلة، والمعلول قد يعلل بعلتين، والحكم قد يبقى مع زوال العلة، والعلل قد تتعارض وتتناقض، وقد تتظاهر وتتآزر(٤٢).

---

(٣٦) الخصائص ٢/٨٨ وفي أصول النحو، سعيد الأفغاني ص٨٦ المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٧م.

(٣٧) الخصائص لابن جني ١/١٦٣.

(٣٨) الخصائص ١/٤٨.

(٣٩) الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي.

(٤٠) اللباب في علل البناء والإعراب لأبي البقاء العكبري.

(٤١) اللباب في علل البناء والإعراب للعكبري ١/١٤٩ تح د. غازي مختار طليمات ود. عبد الإله نبهان دمشق دار الفكر ١٩٩٥م.

(٤٢) للوقوف على هذه الأنواع من العلل انظر الخصائص ١/١٦٤، ١/١٦٤، ١/١٧٣، ١/١٧٤، ٣/١٥٧، ١/١٦٦، ١/١٩٤.

سادسا ـــ مقارنة المنهج المعياري بالمنهج الوصفي

تخرج من خصائص ابن جني ولباب العكبري معجباً بذكاء النحاة ، غير أن إعجابك يحملك على التساؤل عن الفائدة من التعليل والتأويل ، فتقول : هل الدراسة اللغوية في حاجة إلى كل هذه العلل ؟ وهل فهم العربية وإفهامها في حاجة إلى المنطق اليوناني ؟

ينكر الوصفيون على علم اللغة حاجته إلى المنطق ، « لأنه يوجد القاعدة أولاً ، ثم يفكر فيما يمكن أن يدخل تحتها من المفردات »[٤٣] ، ويرون أن الأسلوب الوصفي القديم كان أنجع وأنفع ، لأنه استقرأ ثم قعّد ، فلماذا عكس المتأخرون طرفي المعادلة ؟

إذا كان لك أن تنصف النحاة المتأخرين من النقاد المحدثين فقل : إن المتأخرين من النحاة وعلماء اللغة حرصوا على سلامة اللغة ، فآثروا صحة المادة على صحة المنهج ، وتخيروا المنهج المعياري لأنه يرسخ الصواب ، ويصبه في قوالب ثابتة ، لا تقبل التغيير . فالصواب إذن هو القاعدة الموروثة لا الاستعمال المستحدث . فمتى ظهرت صور جديدة في التعبير عرضت على القواعد المعيارية ، فإن وافقتها أُقرت ، وإن عارضتها رُفضت .

والصواب عند الوصفيين المحدثين هو الاستعمال الحيّ الشائع . فمتى شاع التعبير وتقبله المجتمع غدا صواباً . إنه « مقياس اجتماعي يفرضه المجتمع اللغوي على الأفراد »[٤٤] . وهذا يعني أن الصواب عرضة للتبدل ، لأن التطور الاجتماعي يستتبع تطور اللغة ، وتطور اللغة يفتح باب الابتداع ، والوصفية المحدثة لا تقف عند حدّ الإقرار بصحة الابتداع ، بل تقلب القاعدة المعيارية ، فتسفه القديم بلا تحرج ، « فما كان صواباً في الماضي يصبح خطأً في الوقت الحاضر ، ويصبح خطأ اليوم صواب الغد إذا رأى المجتمع أن يتبناه في الاستعمال »[٤٥] .

وينجم عن الموقف المحافظ الذي يقفه المنهج المعياري من الخطأ والصواب أمرٌ آخر ، يتعلق بصياغة الألفاظ الجديدة . فالمعياريون يربطون الصياغة بالمعايير القديمة الثابتة ، أي : يضربونها على محك الصواب قبل إقرارها أو إنكارها . والوصفيون يحتكمون فيها إلى المجتمع . فمتى شاعت الصيغة المبتدعة ـــ ولوسائل الإعلام السلطانُ الأكبر في إشاعتها ـــ أقرّها الوصفيون ، ولم يستفتوا فيها غير التداول .

---

(٤٣) مناهج البحث في اللغة ، د . تمام حسان ص٣٣ .

(٤٤) اللغة بين المعيارية والوصفية ، د . تمام حسان ص٦٩ .

(٤٥) المصدر السابق ص٦٥ .

وبعد أن وقفت على سمات المنهجين تستطيع أن توجز الفروق بينهما في الأمور التالية :

١ ــ المنهج الوصفي مذهب السماع ، والمعياري مذهب القياس ، ولذلك كان مذهب أهل الكوفة أوضح وصفية من مذهب أهل البصرة .

٢ ــ الوصفي يبدأ من الاستقراء ، وينتهي إلى القواعد ، والمعياري ــ بعد أن حُرم الاستقراء بحرمانه البيئةَ الفصيحة ــ حاصرته القواعد ، فهو لا يكاد يفلت منها حتى يعود إليها محمّلاً بما هداه إليه المنطق والقياس .

٣ ــ علم اللغة في المنهج الوصفي أوفر حظّاً من الاستقلال لزهده في العلوم الأخرى ، وهو في المنهج المعياري يستعير من المنطق والفقه وعلم الحديث كثيراً من الأصول والمصطلحات والأحكام .

٤ ــ المنهج الوصفي شكلي لاعقلي ، فهو يزهد في التقدير والتأويل ، ويميل إلى الأخذ بظاهر اللغة . والمعياري حريص على التأويل والتقدير ليردّ الشذوذ إلى الاطراد ، وليربط الفروع بالأصول ويتكلف الأوجه الضعيفة لكل ما لا يمكن ردّه وربطه بالقواعد العامة .

٥ ــ المنهج الوصفي لالتزامه السماع واقعيٌّ لا مثالي ، وواضح لا غامض ، والمعياريُّ لغلوه في تقديس المنطق والعقل جاوز المعقول إلى غير المعقول في بعض الأحيان ، ولا سيّما حين درس لغة الشعر ، وعكف على الضرائر يخرّجها ويسوغها ، فوفق حيناً وتكلف في أكثر الأحيان ، حتى إن أحمد بن فارس اللغوي [ت : ٣٩٥هـ] عدّ الضرورة غلطاً ، وألف في ذمها ، وذمّ من يرتكبها كتاباً(٤٦) ، يصف فيه الضرورة باللحن ، فيقول فيمن يتجرأ عليها : « ولو أنه أعرض عن هذا الملحون المعيب لكان أحرى به »(٤٧) .

نخلص مما عرضنا من مناهج العرب الأقدمين إلى أنهم سلكوا في دراسة النحو واللغة منهجين : منهجاً وصفياً واقعياً ، ومنهجاً معيارياً منطقياً . فما المناهج التي اتبعتها الدراسات اللسانية الحديثة ، وما الذي يميزها من المناهج القديمة ؟

---

(٤٦) عنوان الكتاب ذم الخطأ في الشعر ، وهو رسالة مطبوعة مع كتاب مساوىء المتنبي سنة ١٣٤٩هـ ومنشورة في مجلة معهد المخطوطات العربية سنة ١٩٧٩م المجلد ٢٥ .

(٤٧) مجلة معهد المخطوطات المجلد ٢٥ ص٤٥ .

الفصل الثاني

المناهج الحديثة في دراسة اللغة

أولاً ــ تمهيد

مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي أخذت الدراسات اللغوية الغربية تخطو خطوات واسعة، فأنجزت في سنين ما لم تنجزه في قرون. ولم يقتصر تقدم هذه الدراسات على شكل واحد من أشكال الثراء والعطاء، وهو غزارة الدراسات وتنوع الموضوعات، بل جاوز الغزارة في المدروس إلى التعدد في المدارس، والكثرة في المقدار إلى التجديد في المناهج.

وربما كان اكتشاف اللغة السنسكريتية، والكشف عن صلتها الوثيقة باللغتين الأوربيتين العريقتين: اليونانية واللاتينية المُنْبَثَق الذي انبثقت منه هذه الدراسات. وقد كان مقدراً لمثل هذه الدراسات الضاربة إلى ثلاث لغات قديمة بنسب أن تنهج منهجاً تاريخياً، أو منهجاً يجمع بين المقارنة والتاريخ. غير أن أرباب هذه الدراسات نهجوا فيما درسوا ثلاثة مناهج، وهي: «المنهج الوصفي، والمنهج التاريخي، والمنهج المقارن»[1].

ثانياً ــ المنهج الوصفي

لما كان المنهج الوصفي أوسع المناهج شهرة، وأغناها دراسات ودارسين ومدارس، ولما كان السبَّاق في هذا المضمار فقد قدمناه على ما عداه، وجعلنا تفصيل القول فيه مدخلاً للقول في غيره. فكيف ظهر هذا المنهج؟ ومن أبرز أعلامه؟ وما آراء هؤلاء الأعلام؟ وما الموضوعات التي درسوها؟ وما الأسس التي أقاموا عليها دراساتهم؟ وهل عرفت

---

(١) انظر المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب ص١٨١.

الدراسات الوصفية العربية القديمة بحوثاً تعادل الدراسات الوصفية الحديثة في منهجها ونتائجها ؟

آ) ظهور المنهج الوصفي وأسسه :

تعدّ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر حدّاً يفصل بين عهدين من تاريخ الدراسات اللغوية الأوروبية والأمريكية ، فقد كانت الدراسات اللغوية التي استأثرت باهتمام العلماء الغربيين منصرفةً إلى البحث في أصل اللغة الإنسانية ونشأتها ، معنيّةً بفقه اللغتين اليونانية واللاتينية ، مشغولة بالمقارنة بين اللغات لقياس بعضها على بعض ، أو تفضيل بعضها على بعض في جوانب متعددة ، منها غزارةُ المفردات ، وضخامة التراث الأدبي ، وروعة البيان ، ثم الحكم لكل لغة أو عليها أحكاماً تجانب الدقة العلمية ، أو تخالطها النزعات القومية والأهواء الخاصة(٢) .

ويبدو أن علماء اللغة في هذه الفترة تأثروا بالمناهج العلمية التي تتخذ من الملاحظة والاستقراء والتجربة أساليب لدراسة الواقع واكتشاف ما في الطبيعة من حقائق. فانتبذوا المناهج القديمة ، وآثروا الملاحظة المباشرة والاستقراء الواسع ، واكتفوا بوصف ما تقدمه إليهم اللغات الحية المتداولة ، لا اللغات القديمة المكتوبة من خصائص وسمات(٣) .

وأقاموا منهجهم الجديد على ثلاثة أسس هي : الزمان ، والمكان ، والمستوى .

أما الزمان فركن لا بد من تحديده قبل إقامة الدراسة عليه ، وهو قيد يقيد بداية المادة المدروسة ونهايتها بفترة زمنية معينة لسبب معروف ، وهو أن الظواهر اللغوية دائمة التغير ، فإذا لم يحدد الزمان أدرك التغير الظاهرة قبل أن تبلغ الدراسة غايتها ، أو قبل أن تفضي الدراسة بالدارس إلى نتائج محددة .

وأما المكان فتحديده لا يقل خطراً عن تحديد الزمان ، لأن الظاهرة اللغوية تحيا في بيئة خاصة بها . فإذا لم يُرسَم للظاهرة المدروسة إطار من الأرض ، أو سمح للبيئة التي جعلت ميداناً للدراسة بأن تمتد في كل اتجاه اختلطت اللهجة باللهجة ، وتعذرت الإحاطة بالموضوع . ومن المعروف أن اللغات تتأثر بالأرض والمناخ والموقع الجغرافي ، وأن تأثرها بها في موضعين مختلفين قد يؤدي إلى نتائج مضطربة .

وثالث الأسس المستوى ، ويعني الوصفيون به اختيار الظاهرة المطروحة للبحث من فئة اجتماعية خاصة ، أو من طبقة محددة الثقافة ، أو من فرع من فروع العلم أو الأدب . فقد يقبل الدارس على دراسة اللغة في مستواها الأدبي الفني ، وقد يقبل على دراستها في

---

(٢) انظر علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٣٤ وما بعدها .

(٣) انظر مبادىء اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص٢٤ .

مستواها السوقيّ ، وقد يختار من المستوى الأدبي العام مستوى خاصاً ، كأنْ يدرس السرد في القصة ، أو الحوار في المسرحية(٤) . وقد يقتصر وهو متجه إلى المستوى العامي على دراسة لهجة في بلد أو قرية ، أو على ما تلغو به ألسنة الشطار والعيّارين . وكلما كان المستوى أدق تحديداً ، وأوضح أبعاداً ، وأضيق مكاناً ، وأقصر زماناً كانت النتائج أقرب إلى الصدق ، وأشبه بالحق(٤) .

ولتوضيح هذه الأسس الثلاثة نذكر القارىء بما صنع نحاة العرب الوصفيون ، فقد قيدوا النحو العربي بقيد المكان حينما اكتفوا بما بلغهم من عرب نجد والحجاز ، وقيدوه بقيد الزمان حينما منعوا الاحتجاج بما قيل بعد سنة ١٥٠هـ . ولكنهم توسعوا في الأساس الثالث ، أي في المستوى حينما احتجوا بالقرآن الكريم والحديث الشريف وبكلام العرب منثوره ومنظومه . ولو ضيقوا المستوى ، فجعلوه قاصراً على الكتاب والسنة والمنثور وزهدوا في الشعر لجاء نحوهم أقرب إلى الاطراد ، وأبعد عن الشذوذ ، ولكنهم أدخلوا الشعر فيما درسوا فاضطروا إلى تفريع الضرائر ، واضطرهم التفريع إلى مجاوزة المنهج الوصفي ، وحملهم على اللجوء إلى التأويل والتقدير والتخريج المتعسف .

ب ــ تطور المنهج الوصفي وأشهر أعلامه ومدارسه :

يخطىء من يظن أن المنهج الوصفي طريقة واحدة في البحث محددة السمات ، أو قواعد ثابتة ، لا يصيبها التغير . صحيح أن أهم سماته وصف اللغة أو اللهجة المدروسة في مستوياتها المتباينة ، وعناصرها المتعددة ، والتوفر على تحليل أصواتها وأبنيتها وتراكيبها ، وصحيح كذلك أن اللهجات فازت بالحظ الأوفى من عناية الوصفيين ، لأن اللهجة المحلية أضيق نطاقاً من اللغة القومية ، ولأن الباحث أقدر على الإحاطة بها ، غير أن المنهج الوصفي لم يلتزم أصولاً ثابتة ، بل تفرع إلى طرائق ، بعضها اتسع في ميدان الدرس بعض الاتساع ، وبعضها ضيّق ميدانه كل التضييق ، حتى إن أنطوان مييه A. Meillet زعم أن المنهج الوصفي يكتفي بدراسة الاستعمال اللغوي عند شخص معين في زمان ومكان معينين(٥) .

كان ذلك في القرن التاسع عشر ، ومع بداية القرن العشرين انشعب المنهج الوصفي إلى مدارس ، تعتمد لاحقتها على السابقة وتفيد من تجربتها ، وتنقدها ، وتحورها ، ثم تبني مدرسة جديدة . وهكذا تعددت صور المنهج الوصفي ، واختلفت تحليلاته . وظهرت فيه مذاهب فرعية منذ أن وضع أسسه فردينانـد دو سوسير F. De Saussure [ت : ١٩١٣م](٦) .

---

(٤) انظر مدخل إلى علم اللغة ، د . محمد حسن عبد العزيز ص١٣٨ وما بعدها .

(٥) انظر المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص١٨١ ــ ١٨٢ .

(٦) المصدر السابق ١٨٢ وانظر علم اللغة د . علي عبد الواحد وافي ص٦٧ .

وأشهر مدارسه ثلاث : المدرسة البنيوية ، ومدرسة النحو التوليدي التحويلي ، ومدرسة القوالب .

١ ــ المدرسة البنيوية Structural Linguistics : منشيء هذه المدرسة اللغوي السويسري فرديناند دو سوسير ، فهو الذي أرسى أسسها بعد أن ضاق صدره بالمنهج التاريخي . واتضحت هذه الأسس في المحاضرات التي ألقاها في جامعة جنيف ، ونشرها طلابه تحت عنوان (محاضرات في علم اللغة العام) .

وأبرز ما يتجلى في هذه المحاضرات من المنهج الوصفي تحديدُ المادة المدروسة ، والخروج من التعميم إلى التخصيص ، والفصل بين أمرين قد يتراءى للمرء أنهما أمر واحد ، وهما (الكلام) و (اللسان) . فالكلام عند دو سوسير « كلام الفرد أو المنطوقات الفعلية » التي يقولها إنسان واحد . أما اللسان « فهو المواضعات والإشارات التي يشترك فيها جميع أفراد مجتمع لغوي معين ، وتتيح لهم من ثمة الاتصال اللغوي فيما بينهم »(٧) .

وبهذا الفصل استطاع دو سوسير أن يميز المستوى الفردي الذي يتأثر بذكاء الفرد وثقافته وإرادته (أي الكلام) من المستوى الاجتماعي الذي هو البنية التحتية للغة المشتركة بين أفراد المجتمع ، وهي البنية التي يعمل البنيويون على كشفها ووصفها ودراستها ، وهي كما يسميها دو سوسير (اللسان) .

وبعد أن تمّ الفصل قرر دو سوسير أن اللسان نظام من العناصر المترابطة ، تشترك في بنائه الأصوات والمفردات والتراكيب على نحو ما ، ويتجلّى في صورة من الصور . ولهذا فاللغة عنده شكل لا مادة ، وهذا الشكل هو الجدير بالدراسة الوصفية ، والدراسة الوصفية للأنظمة اللغوية الشكلية أساس علم اللغة عنده ، وعند من بنى بعده على نظريته البنيوية .

وأبرز المتأثرين بهذه النظرية فرانز بوعز F. Boas(٨) ، وأبرز ما قبسه منها الاهتمام البالغ بدراسة الأصوات والنظام الصرفي والصيغ ، والإيمان بأن التحليل الوصفي المجدي في الدرس اللغوي هو ذلك الذي ينصب « على كل لغة على حدة وفقاً لأحوالها الخاصة »(٩) . وهذا الرأي ترك صداه البعيد فيمن جاء من بعده من اللغويين ، وأصبح أحد المعتقدات الأساسية في الدراسات اللغوية الأمريكية التي انتهجت النهج الوصفي .

ومن أعلام البنيوية إدوارد سابير E. Sapir تلميذ بوعز . وقد أتم ما بدأه أستاذه أي عمم

---

(٧) المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص١٨٤ .

(٨) في (العربية وعلم اللغة البنيوي) ، د . حلمي خليل ص١١٨ رسم اسمه بواز .

(٩) المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص١٨٤ .

ما خصصه بوعز ، ودعا إلى تطبيق المنهج الوصفي البنيوي على اللغات التي تجمعها روابط مشتركة . ورأى «أن الوحدات الأساسية كالاسم والفعل ، والعمليات النحوية الأساسية كترتيب الكلمات هي أمور قائمة في جميع اللغات المشتركة التي يحتمل أن تكون لها عناصر كلية مشتركة »[(١٠)] .

ولم يصب سابير وبوعز من الشهرة ما أصاب خلفُهما ليونارد بلومفيلد L. Bloomfield ، إذ استطاع بلومفيلد منذ نشر كتابه اللغة Language سنة ١٩٣٣م أن يهيمن على ساحة الدراسات اللغوية الغربية طوال ثلاثين سنة .

وأشهر ما اشتهر به بلومفيلد اعتقاده أن عالم اللغة عينٌ ترصد ما يجري ، ولهذا فعليه أن يقصر عمله على مراقبة الظواهر اللغوية الخارجية التي تقبل القياس . والقياس الذي مارسه بلومفيلد محدود النطاق ، يطبق على الظواهر الشكلية من اللغة ، لأن على العالم اللغوي أن يعنى بأصوات الألفاظ أكثر من عنايته بمعانيها . ومع أنه لم ينصرف عن دراسة المعاني انصرافاً كلياً فإن الدراسة الصوتية للألفاظ (الفونولوجيا) والدراسة الصرفية الشكلية (المورفولوجيا) طغتا في مدرسته على دراسة المعاني .

لقد بقيت دراسة المعاني نقطة الضعف في نظرية بلومفيلد ، وأورثها من جاؤوا بعده ، « فذهبوا شوطاً بعيداً حين حاولوا استبعاد المعاني من دائرة التحليلات اللغوية »[(١١)] . وهذا الموقف يجعل تمرس اللغوي باللغة كتمرس الموسيقي بالنغم . ونحن ، مهما تبلغ بنا محاباة البنيويين ، لا نستطيع أن ننسى أن اللغة وعاء الفكر وأن تحليل المبنى لا يغني عن دراسة المعنى .

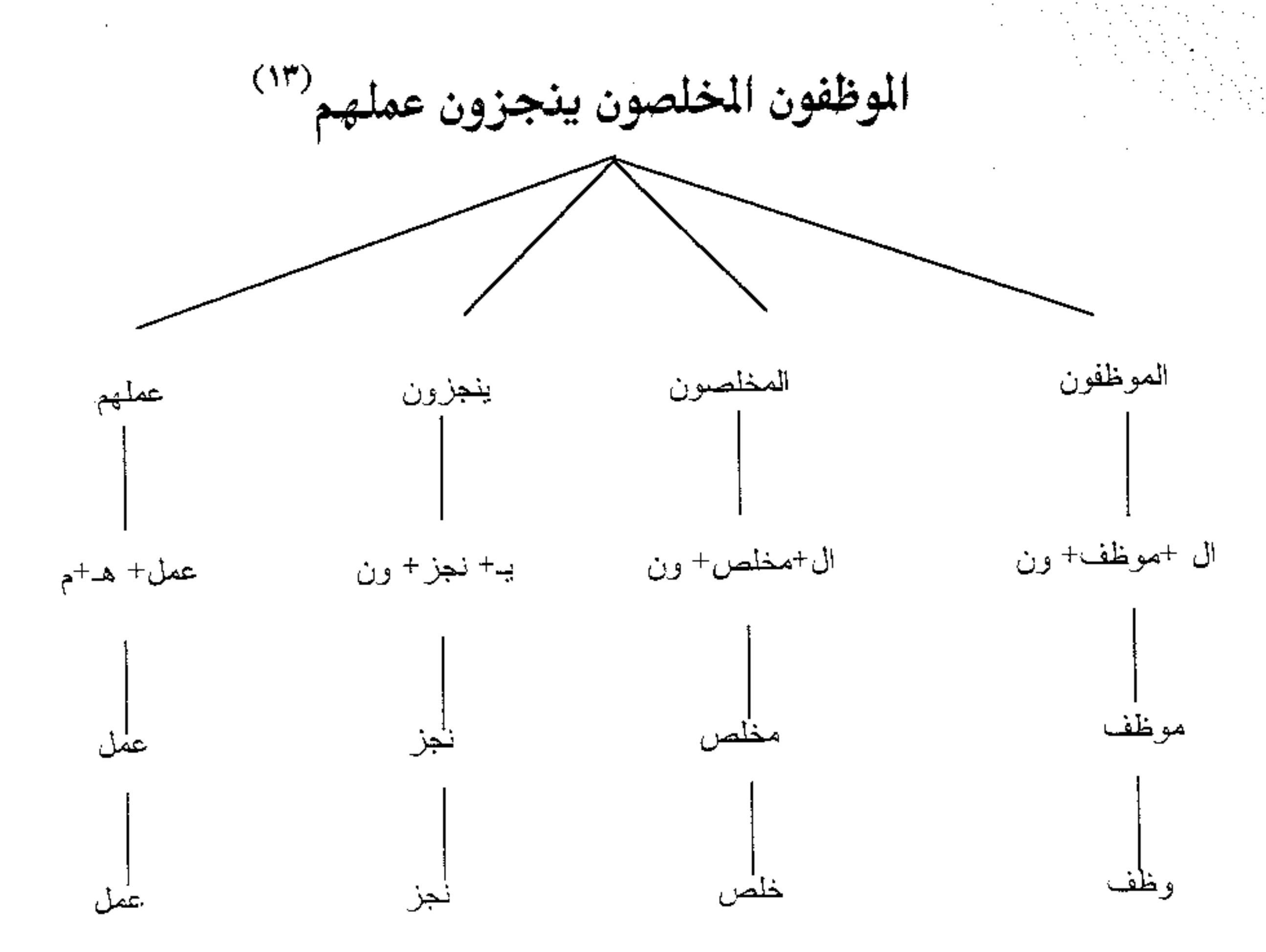
وأبرز ما في التحليل البنيوي الانتقالُ من المركب إلى البسيط ، ومن البسيط إلى الأبسط ، أي من الجملة كما تسمع من أفواه الناس إلى الكلمات التي تتألف منها هذه الجملة ، ومن الكلمات إلى العناصر الصوتية التي تتألف منها كل كلمة ، وكلُّ عنصر من العناصر الصوتية يسمى مورفيم[(١٢)] Morpheme وفيما يلي جملة محللة على الأسلوب البنيوي :

---

(١٠) المصدر السابق ص١٨٥ .

(١١) المصدر السابق ص١٨٦ .

(١٢) عرف الأستاذ محمد الأنطاكي رحمه الله المورفيمات في (الوجيز في فقه اللغة ص٢٩٤) فقال : « هي أصوات تضاف إلى العناصر الصوتية المعبرة عن الماهيات » وهي على أنواع : ١) مورفيمات من صوت واحد كضمة الإسناد في جاء أحمدُ . ٢) مورفيمات من مقطع واحد كالحروف : من ، عن ، في . ٣) مورفيمات من عدة مقاطع كالهمزة والسين والتاء في استحجر واستسقى . واستعمل ج . س . كاتفورد المورفيم بمعنى الوحدة الصرفية الصغرى . انظر كتابه (نظرية لغوية في الترجمة) ص١٥ ــ ٢١ .



وإن شئت أن تسم بنيوية بلومفيلد وأتباعه بسمات تلخصها فقل: أهم موضوعاتها دراسة النصوص اللغوية، ومنهجها وصفي يعتمد على وسائل الاستكشاف، وهدفها تصنيف العناصر اللغوية المدروسة، والشكل عندها أهم من المعنى، وهو أي: الشكل يختلف من لغة إلى لغة أي أن لكل لغة بنية خاصة تنفرد بها(١٤).

٢ ـ مدرسة النحو التوليدي التحويلي Transformational Generative Grammar

أوضح السمات في هذه المدرسة الوصفية أنها جعلت موضوعها قدرة المتكلم على إنشاء جمل لم تطرق سمعه من قبل. وأنها تبنَّتْ أسلوباً وصفياً يجمع بين الحدس والتخمين من ناحية، وإجراء الاختبار لتقويم الفروض المتعارضة من ناحية أخرى. وأنها رمت إلى تحقيق غاية محددة، وهي دراسة السلاسل اللفظية للتمييز بين ما يشكل منها جملاً مفيدة، وما لا يشكل مثل هذه الجمل. فإذا مازت نوعاً من نوع كان عليها أن تدرس السلاسل ذوات الجمل المفيدة ــ وفي كل لغة عدد لا ينتهي من الجمل ــ وأن توجه دراستها إلى هدف رسمته لنفسها، وهو الكشف عن القواعد النحوية الكامنة وراء بناء الجمل(١٥).

---

(١٣) انظر الألسنية العربية د. ريمون طحان ٢/٥٣.

(١٤) انظر المدخل إلى علم اللغة ١٨٧.

(١٥) انظر الألسنية أحدث العلوم الإنسانية، مجلة الفكر العربي العددان ٨ ــ ٩ ص١٢٧ عام ١٩٧٩م.

ظهرت هذه المدرسة نتيجة لدراسات اضطلع بها اثنان من اللغويين الأمريكيين أولهما زيليغ هاريس Z. S. Harris واضع النظرية التحويلية Transformational Theory وثانيهما أفرام نعوم تشومسكي A. N. Chomsky صاحب علم اللغة التوليـدي Generative Linguistics والفرق بينهما أن التيار التحويلي في دراسة اللغة ينصرف إلى البحث في العلاقات التي تنتظم عناصر الجملة الواحدة، والعلاقات التي يمكن أن توجد في الجمل المحتمل وجودها في كل لغة من اللغات. وأن التيار التوليدي يفتح الباب واسعاً أمام ابتكار جمل جديدة يدرسها، لإيمانه بأن كل لغة من اللغات قادرة على أن تنتج مقداراً لا ينتهي من الجمل. وعمله هو دراسة هذه الجمل المحتملة والكشف عن العلاقات التي تنتظم عناصرها[١٦].

«وقد ميز هاريس بين مجموعتين فرعيتين من الجمل النحوية الكلية القائمة في لغة كالإنكليزية مثلاً: ١ ــ الجمل النواة Kernel Sentences ٢ ــ الجمل غير النواة Nonkernel Sentences وغير النواة يتم اشتقاقها من الجمل النواة بواسطة قواعد تحويلية»[١٧].

ولتوضيح الفرق بين هذين النمطين من الجمل نضرب مثلاً من اللغة العربية. فالجملة النواة مثل قولك: حفظ الطالب النصّ، وغير النواة (أي الجملة المشتقة من النواة) قولك: حُفظ النصُّ. وليس من العسير أن يدرك القارىء ما بين الجملتين من علاقة تحويلية، إذ تحولت الثانية عن الأولى بالبناء للمجهول. ويظهر تحولها من المقارنة بين عناصر الجملتين على النحو التالي:

فعل متعد مبني للمعلوم + مورفيم المعلوم + اسم (رقم **١** الطالب) + اسم (رقم **٢** النص).

فعل مبني للمجهول + مورفيم المجهول (ضم الحاء) + اسم (رقم ٢) مع تغيير حركة الإعراب.

أما تشومسكي الذي «نشأ في مدرسة تطبق طريقة بلومفيلد في البحث اللغوي، ورغم استقرار هذه المدرسة وازدهارها فإنه وجه إليها وإلى النحو الوصفي على العموم نقداً عنيفاً»[١٨].

وخلاصة هذا النقد أن مدرسة بلومفيلد اقتصرت في دراستها على الأنماط الشكلية في اللغة، واقتنعت من الدراسة بالوصف، وأنها خوفاً من السقوط في التأويل غير الواقعي جعلت

---

(١٦) المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب ص١٨٨.

(١٧) المصدر السابق ص١٨٩.

(١٨) تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه، د. صبري إبراهيم السيد ص٥٥.

الإنسان آلة تنتج الأصوات التي يدرسها اللغوي دراسة سطحية . « إن الإنسان عند تشومسكي ليس هذه الآلة ... وليس من المعقول أن تتحول اللغة الإنسانية إلى مجرد تراكيب يسعى الوصفيون إلى تجريدها من المعنى ومن العقل في هذا الوصف السطحي »(١٩) .

ولم ينكر تشومسكي على المنهج البنيوي قدرته على تحليل الجملة وردها إلى مورفيمات وفونيمات ، لكنه رأى أن هذه القدرة ضئيلة الجدوى « لأن في كل لغة عدداً محدوداً من الفونيمات والمورفيمات . غير أن عدد الجمل في أية لغة واقعية هو عدد غير متناه ، إذ ليس هناك حدّ لعدد الجمل الجديدة التي يمكن إنشاؤها ، ولا تستطيع البنيوية تفسير ذلك »(٢٠) .

« وسعى تشومسكي للوصول إلى قواعد شاملة تنتظم تركيب الجملة في جميع اللغات على أساس أن هناك عوامل مشتركة بين البشر »(٢١) . وفحوى هذا الأساس ـــ والقول قول إيلوار ـــ : « أن أنماط التفكير التي التزمها العقل البشري قد فُرضت على اللغات كافة »(٢٢) .

إن التقاء البشر عند هذا القدر من التشابه لا يلغي الموهبة الإبداعية Creativity التي تتمتع بها كل لغة من اللغات الإنسانية ، وتتجلى هذه القدرة في مبدأ الاختيار ، أي : في قدرة الفرد على اصطفاء النمط الذي يؤثره على سواه في بناء الجملة .

ومفتاح الاختيار عند تشومسكي لا تمسك به يد المتكلم الفرد وحدها ، بل تمسك به أيضاً يد اللغة التي تملي هويتها على الجملة ، فإذا الكلمة الأولى في الجملة تستتبع ما يناسبها . فإن قلت في العربية : هذه الحديقة مزدهرة ، فاعلم أن (هذه) أملت عليك أن تؤنث البدل (الحديقة) والخبر (مزدهرة) . أما إذا قلت (هذا) فعليك أن تذكّر البدل والخبر كأن تقول : هذا البستان مزدهر .

ومن مبادىء المدرسة التحويلية التوليدية انطلاقها في دراسة الجملة من أساس مفترض ، وهو « وجود علاقة بين الكلمات المتلاصقة ، أي المتتابعة بانتظام »(٢٣) . وهذا الافتراض غير مطرد ، إذ يمكن أن يؤدي تطبيقه العملي إلى توليد جمل غير مقبولة . فإن أفضى بك التحويل والتوليد إلى أن تسبك جملة غامضة المعنى أو مرتبكة التركيب فاحتكم إلى

---

(١٩) المصدر السابق ص٥٥ . وانظر النحو العربي والدرس الحديث ، د . عبده الراجحي ص١١١ ـــ ١١٢ .

(٢٠) المدخل إلى علم اللغة د . رمضان عبد التواب ص١٨٩ .

(٢١) مبادىء اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص٢٥٧ .

(٢٢) المصدر السابق ص٢٥٧ .

(٢٣) المصدر السابق ص٢٥٩ .

حدسك اللغوي العفوي فيما يجوز ، وفيما لا يجوز ، وستجد أن لديك ولدى كل مجموعة من البشر تجمعها لغة واحدة حدساً رهيفاً لا يخطىء في حكمه . وهـذا الحدس في نظـر تشومسكي دليل مستقل صادق ، يستطيع أن يميز المقبول من المرذول ، والمشروع من الممنوع .

وللتحويل في كل لغة نموذجات ، يستند كلٌّ منها إلى أصل راسخ في طبيعة اللغة وطباع الناطقين بها . ففي العربية مثلاً تحويل بالقلب ، وتحويل بالتثنية ، وتحويل بالجمع ، وتحويل بالتقديم والتأخير ، وتحويل بالحذف ... الخ . والتحويليون يُفيدون من هذه النموذجات في إقامة نوع من التوازن بين العام المشترك الشائع في كل اللغات ، والخاص الذي تنفرد به كل لغة .

على هذا النحو من العناية بالشكل أقام تشومسكي مذهبه التحويلي التوليدي ، ثم تبين له سنة ١٩٦٥م أن قواعده شكلية خالصة ، أي تنظر إلى الجملة بعينين : عين المستوى التركيبي للألفاظ syntactic Level وعين المستوى الصوتي (الفونولوجي) Phonological Level وتهمل النظر إليها بعين المعنى . حينئذ طلع تشومسكي على قرائه بنظرية تحويلية أقوى بناء ، ضمّنها كتابه مظاهر النظرية التركيبية Aspects of the Theory of Syntax . وفي هذا الكتاب استدرك تشومسكي ما فاته قبلُ ، فوضع دلالات الألفاظ في مكانها من بناء القواعد ، وميز الكفاية اللغوية من الأداء الكلامي ، والبنية العميقة من البنية السطحية(٢٤) .

ومهما يبلغ حظ هذه النظرية الأخيرة من الوضوح والقوة فإن النهج الذي انتهجه تشومسكي لا يميل إلى وضع نظرية ثابتة للنحو التحويلي التوليدي . وكيف يطمئن إلى نظرية كائناً من كان واضعها وهو يؤمن « بأن كل فرضية في إطار الألسنية التوليدية والتحويلية هي صحيحة ما لم تبرهن المعطيات اللاحقة على عدم صحتها »(٢٥) . وما أكثر الفرضيات التي نسجها ثم نقضها !! وهذا يعني أن ما يصل إليه الباحث التوليدي اليوم قد ينكشف له عواره غداً ، فيضطر إلى تصحيحه .

والدليل على ذلك أن تشومسكي نفسه رجع عن بعض ما ابتدع ، وأن كتب المدرسة التحويلية التوليدية ليست على قلب رجل واحد ، بل ينقد بعضها بعضاً ، أو يعدّل بعضها بعضاً ، وأن المآخذ التي أخذت على فكر تشومسكي اللغوي بلغت ثمانية وعشرين مأخذاً(٢٦) .

---

(٢٤) انظر المصدر السابق ص٢٦٣ .

(٢٥) المصدر السابق ص٢٥٧ .

(٢٦) انظر كتاب (تشومسكي : فكره اللغوي وآراء النقاد فيه ، د . صبري إبراهيم السيد ص٣٤٧ وما بعدها .

٣ ــ مدرسة القوالب Tagmemic Analysis : تعد هذه المدرسة ثالثة المدارس الوصفية التحليلية ، لكنها لا تسرف في التحليل إسراف بلومفيلد وتشومسكي . فإذا كان تشومسكي يميز في دراسة اللغة الكفاءة اللغوية من الأداء الكلامي ، والبنية العميقة من البنية السطحية ، فهذه المدرسة ترى «أن مهمة علم القواعد في أسسه الأولية تتمثل في إعطاء نموذج أو نقل صورة لجانب الكفاءة »(٢٧) .

وإذا كانت مدرسة بلومفيلد البنيوية قد حللت الجملة تحليلاً متعدد المراحل ، يرد المركب إلى البسيط ، والبسيط إلى الأبسط ، حتى تتفتت الجملة ، وتتحول الكلمات إلى عناصر صوتية هي المورفيمات والفونيمات ، فإن مدرسة القوالب التي طوّرها كنيث بايك K. Pike تقوم بنمط آخر من التحليل الوصفي أقل تعقيداً ، وأشدّ حفاظاً على البنية التقليدية .

التحليل اللغوي في هذه المدرسة « طائفة من الإجراءات لوصف اللغة ، ويعتمد على وحدة أساسية تسمى القالب Tagmeme . وترِدُ هذه الوحدة ضمن مركب على هيئة سلسلة ، وتقع ضمن مستويات معينة من المستويات النحوية »(٢٨) . فالمسند إليه ــ وهو المبتدأ في الجملة الاسمية كالنحو من قولك : النحوُ مفيد ، وهو الفاعل من قولك : يفيدُ النحوُ الطلاب ــ وحدةٌ لفظية ، أو قالب ورد في أول السلسلة الأولى أي الجملة الاسمية ، وفي وسط السلسلة الثانية ، أي الجملة الفعلية . والمستوى النحوي الذي ورد فيه هذا القالب هو مستوى الإسناد .

وإذا تابعت هذه المدرسة في تحليلها وجدت أن معنى القالب في نظرها هو الارتباط بين الموقع الوظيفي Functional State وفئة من المركبات Items التي تشغل هذا الموقع ، وأن المركبات التي تشغل هذا الموقع مؤلفة من شكل Form ووظيفة Function . والمواقع الوظيفية يمكن أن تكون متنقلة المواضع في السلسلة اللغوية . ففي قولك : ضرب زيدٌ عمراً ، ثلاثة مواقع وظيفية تحتمل التنقل ، وهي موقع المسند (ضرب) وموقع المسند إليه (زيد) وموقع المفعول به (عمراً) . ومواضع هذه المواقع تحتمل الترتيب على ثلاث صور هي :

١ ــ ضرب زيد عمراً   ٢ ــ ضرب عمراً زيدٌ   ٣ ــ عمراً ضرب زيدٌ .

وهذا التغيير أصاب المواضع ، ولكنه حافظ على المواقع الوظيفية النحوية ، أي أن تغيير الترتيب لم يغير الوظيفة النحوية التي اضطلع بها كل قالب(٢٩) .

---

(٢٧) المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص١٩١ .

(٢٨) المصدر السابق ص١٩٢ .

(٢٩) انظر المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص١٩٣ .

وهذه المدرسة ترى أن كل موقع وظيفي يمكن أن يشغله أكثر من شاغل، والشاغلات Fillers على أنواع: فأنت تستطيع أن تجعل المسند إليه في الجملة الاسمية اسماً ظاهراً، كأن تقول: محمد صائم، وضميراً، نحو: هو صائم، ومصدراً مؤولاً، نحو ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾[٣٠]. والترابط بين الموقع الوظيفي والشاغلات هو في الحقيقة ترابط بين وظيفة وشكل[٣١].

ويقضي المنهج الوصفي الذي انتهجته هذه المدرسة بالتمييز بين القوالب، وتقسيمها إلى أنواع:

أولها القالب الإجباري، وهو الذي لا بدّ من ظهوره في كل بنية لغوية تنتمي إليه، ورمزه (+) للدلالة على وجوبه.

وثانيها القالب الاختياري، وهو الذي يحق له أن يظهر وأن يختفي كالمفعول به في نحو: قرأ الطالب النص، ورمزه (±) للدلالة على احتمال الذكر والحذف.

وثالثها القالب الأساسي، وهو الذي يشكل ركني الجملة الفعلية، أي الفعل والفاعل في نحو: ظهر الحق، وركني الجملة الاسمية، أي المبتدأ والخبر في نحو: الباطلُ زهوق.

ورابعها القالب الثانوي، وهو الذي يأتي تكملة، ولا ينعقد به إسناد كالظرف والجار والمجرور، في نحو: يظهر الحق على الباطل كلَّ حين.

وخامسها القالب الثابت، وهو الذي يتمتع بوضع ثابت بالنسبة إلى غيره من قوالب التركيب.

وسادسها القالب المتحرك. وهو الذي يستطيع أن يغير موضعه بالنسبة إلى غيره من القوالب[٣٢].

وفي تحليل المثال التالي توضيح لهذه الأنواع من القوالب: قرأ الطلاب النصّ قبل المحاضرة. إن (قرأ الطلاب) قالبان إجباريان أساسيان، لأن الجملة لا تنعقد إلا بهما، وهما ثابتان، إذ لا يمكن أن يتقارضا موضعيهما، فلا يجوز أن تقول: الطلاب قرأ. و (النص) قالب اختياري، إذ تستطيع أن تكتفي بقولك: قرأ الطلاب. و (بعد المحاضرة) قالب ثانوي، إذ يمكن أن يستغنى عنه، وهو أيضاً قالب متحرك، إذ يمكن تقديمه، كأن تقول: قبل المحاضرة قرأ الطلاب النص.

---

(٣٠) البقرة ١٨٤.

(٣١) انظر المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب ص١٩٣.

(٣٢) المصدر السابق ص١٩٤ وما بعدها.

ثالثاً ـــ المنهج التاريخي

لا يذهبنّ بك الظن إلى أن المنهج التاريخي في دراسة اللغة هو ذلك المنهج المعنيُّ بدراسة النشأة الأولى للغة الإنسانية، ثم بتعقب تطورها البطيء طوال ألوف السنين، ليقف الباحث على ما أنجزه هذا التطور في كل عصر من عصور التاريخ. فقد سبق أن أشرنا إلى أن علماء اللغة بعد اختلافهم غير المجدي في نشأة اللغة قرروا الإقلاع عن الخوض في هذا الموضوع، لأن كل ما قيل فيه متعارض متناقض، ولا يفضي إلى نتائج علمية مقبولة، ولا يستند إلى واقع لغوي تُستمدّ منه عناصر الدراسة.

فإن قيل: لقد كشفت البحوث عن لغات موغلة في القدم منها اللغتان السنسكريتية والهيروغليفية وغيرهما من اللغات التي حفظتها النقوش، قيل: إن هذه اللغات تمثل مرحلة متطورة لا مرحلة النشأة الأولى. ولو كشفت معاول التنقيب عن لغات أقدم من هذه اللغات لما عدّها علم اللغات ممثلة لنشأة اللغة، لأنها «تمثل لغات قد تطورت، وتركت خلفها تاريخاً ضخماً لا نعرف عنه شيئاً». فإن كان الأمر كذلك فما طبيعة هذا المنهج؟ وما الفرق بينه وبين المنهجين الوصفي والمعياري؟ وما المواضع التي يجدي استخدامه فيها؟

إذا كان المنهج الوصفي يدرس اللغة دراسة مقيدة بقيدي المكان والزمان وقيد المستوى، فالمنهج التاريخي يفكّ عن يدي اللغة هذه القيود، إذ يطلقها من إسار المكان، ويترك لها حرية التنقل ليرصد ما يجري فيها من تبدل، وما يطرأ عليها من سمات متعددة متجددة. ويمد لها عنان الزمان ليتعقب ما يصيب أصواتها ودلالاتها وأساليبها وتراكيبها. ويتفلت من قيد المستوى لأن المستوى في المنهج التاريخي ليس أرضاً مسوّرة تحصر فيها اللغة، وإنما هو خاتمة لمرحلة من مراحل التطور، وبداية لمرحلة أخرى. فاللغة في المنهج التاريخي مستويات متعددة لا مستوى واحد.

«إن المنهج التاريخي يدرس اللغة دراسة طولية، بمعنى أنه يتتبع الظاهرة اللغوية في عصور مختلفة، وأماكن متعددة ليرى ما أصابها من التطور، محاولاً الوقوف على سرّ هذا التطور وقوانينه المختلفة»[٣٣]. ومعنى هذا أن المنهج التاريخي مؤمن بالحركة لا الثبات، وأنه يضع اللغة في موضعها من الحياة التي تتفاعل عناصرها وتؤثر في اللغة: في أصواتها ودلالاتها وصيغها وتراكيبها، فلا ينجو من التأثر نحو ولا صرف، ولا تعتصم منه عامية ولا فصيحة[٣٤].

---

(٣٣) المصدر السابق ص١٩٦.

(٣٤) قارن ما جاء هنا بالمدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب ص١٩٦.

وحركية المنهج التاريخي المناقضة لثبات المنهج الوصفي لا تعني تناقض المنهجين في كل شيء ، فكلاهما يدرس اللغة دراسة تسجيل ومراقبة ، تصف الواقع الحيّ ، أو القديم الموروث ، ولا يدرسها دراسة معيارية تحتكم إلى القواعد لتحكم على الظاهرة المدروسة بالخطأ ، أو تحكم لها بالصواب . وكلاهما يربط اللغة المدروسة بأمها وأبيها أي : بالبيئة والمجتمع المتغيرين باستمرار ، لا بما رسخ من قواعد صارمة الأحكام[(٣٥)] .

واعتماداً على أوجه الشبه هذه نقول : المنهجُ التاريخي منهج وصفي متعدد المراحل ، متجدّد المادة ، لأنه يلاحق اللغة ، ويستعين على دراستها بتراثها القديم ونصوصها الحية . فإن أردت أن تدرس الأصوات العربية بدأت بصفاتها ومخارجها كما حددها الخليل وأثبتها سيبويه[(٣٦)] ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى ما أصابها من تغير بعد أن خالط العرب الأعاجم من العصر الأموي إلى العصر الحاضر ، ثم شفعتَ هذه الدراسة بما يقودك إليه الاستقراء من تغير يملأ حناجر الناس ، وتسجله الآلات الصوتية الدقيقة ، غير آبه بالمفاضلة بين ناطق وناطق ، أو بين قطر وقطر ، أو بين عصر وعصر ، وغير مكترث بما يعتقد المعياريون أنه خطأ أو صواب ، فأنت راصد لا ناقد ، ومؤرخ لا مصلح .

ومعنى هذا أن المنهج التاريخي يغير على المنهج الوصفي ، فيفيد من أسلوبه ، ويسخر مصطلحاته في خدمة الدراسات التطبيقية التي يستخدمها ، « لأن كل المصطلحات التي استعملت تحت العنوان الوصفي قابلة من الناحية العملية للاستعمال مع الفرع التاريخي »[(٣٧)] . « وهنا نجد المنهجين التاريخي والوصفي يدخلان في شكل انسجامي تعاوني مثمر »[(٣٨)] .

ويحسن ههنا أن نشير إلى أن المنهج التاريخي لا يحصر نفسه في دراسة اللغات التي انقرضت ، ولم يبق منها إلا النقوش والنصوص القديمة كالآرامية والهيروغليفية . ولا في اللغات التي انحسرت عن الحياة العامة ، ولازمت المعابد والمعاهد والجامعات المعنية بدراسة اللغات القديمة كالسريانية واليونانية القديمة ، ولا في الأمهات اللواتي انسحبن من ميادين الحياة ، وأخلينها للبنات المتحدرات منهن كاللاتينية التي أنجبت الإيطالية والفرنسية والأسبانية . وإنما

---

(٣٥) المصدر السابق ص١٩٧ .

(٣٦) أشرنا قبل إلى ما قام به في هذا الميدان د . عبد الرحمن الحاج صالح . وإلى محاضراته في جامعة دمشق سنة ١٩٧٤م .

(٣٧) المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص١٩٨ .

(٣٨) المصدر السابق ص١٩٨ .

ثالثاً ـــ المنهج التاريخي

لا يذهبنّ بك الظن إلى أن المنهج التاريخي في دراسة اللغة هو ذلك المنهج المعنيُّ بدراسة النشأة الأولى للغة الإنسانية، ثم بتعقب تطورها البطيء طوال ألوف السنين، ليقف الباحث على ما أنجزه هذا التطور في كل عصر من عصور التاريخ. فقد سبق أن أشرنا إلى أن علماء اللغة بعد اختلافهم غير المجدي في نشأة اللغة قرروا الإقلاع عن الخوض في هذا الموضوع، لأن كل ما قيل فيه متعارض متناقض، ولا يفضي إلى نتائج علمية مقبولة، ولا يستند إلى واقع لغوي تُستمدّ منه عناصر الدراسة.

فإن قيل: لقد كشفت البحوث عن لغات موغلة في القدم منها اللغتان السنسكريتية والهيروغليفية وغيرهما من اللغات التي حفظتها النقوش، قيل: إن هذه اللغات تمثل مرحلة متطورة لا مرحلة النشأة الأولى. ولو كشفت معاول التنقيب عن لغات أقدم من هذه اللغات لما عدّها علم اللغات ممثلة لنشأة اللغة، لأنها «تمثل لغات قد تطورت، وتركت خلفها تاريخاً ضخماً لا نعرف عنه شيئاً». فإن كان الأمر كذلك فما طبيعة هذا المنهج؟ وما الفرق بينه وبين المنهجين الوصفي والمعياري؟ وما المواضع التي يجدي استخدامه فيها؟

إذا كان المنهج الوصفي يدرس اللغة دراسة مقيدة بقيدي المكان والزمان وقيد المستوى، فالمنهج التاريخي يفكّ عن يدي اللغة هذه القيود، إذ يطلقها من إسار المكان، ويترك لها حرية التنقل ليرصد ما يجري فيها من تبدل، وما يطرأ عليها من سمات متعددة متجددة. ويمد لها عنان الزمان ليتعقب ما يصيب أصواتها ودلالاتها وأساليبها وتراكيبها. ويتفلت من قيد المستوى لأن المستوى في المنهج التاريخي ليس أرضاً مسوّرة تحصر فيها اللغة، وإنما هو خاتمة لمرحلة من مراحل التطور، وبداية لمرحلة أخرى. فاللغة في المنهج التاريخي مستويات متعددة لا مستوى واحد.

«إن المنهج التاريخي يدرس اللغة دراسة طولية، بمعنى أنه يتتبع الظاهرة اللغوية في عصور مختلفة، وأماكن متعددة ليرى ما أصابها من التطور، محاولاً الوقوف على سرّ هذا التطور وقوانينه المختلفة»[٣٣]. ومعنى هذا أن المنهج التاريخي مؤمن بالحركة لا الثبات، وأنه يضع اللغة في موضعها من الحياة التي تتفاعل عناصرها وتؤثر في اللغة: في أصواتها ودلالاتها وصيغها وتراكيبها، فلا ينجو من التأثر نحو ولا صرف، ولا تعتصم منه عامية ولا فصيحة[٣٤].

---

(٣٣) المصدر السابق ص١٩٦.

(٣٤) قارن ما جاء هنا بالمدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب ص١٩٦.

وحركية المنهج التاريخي المناقضة لثبات المنهج الوصفي لا تعني تناقض المنهجين في كل شيء ، فكلاهما يدرس اللغة دراسة تسجيل ومراقبة ، تصف الواقع الحيّ ، أو القديم الموروث ، ولا يدرسها دراسة معيارية تحتكم إلى القواعد لتحكم على الظاهرة المدروسة بالخطأ ، أو تحكم لها بالصواب . وكلاهما يربط اللغة المدروسة بأمها وأبيها أي : بالبيئة والمجتمع المتغيرين باستمرار ، لا بما رسخ من قواعد صارمة الأحكام[٣٥] .

واعتماداً على أوجه الشبه هذه نقول : المنهجُ التاريخي منهج وصفي متعدد المراحل ، متجدّد المادة ، لأنه يلاحق اللغة ، ويستعين على دراستها بتراثها القديم ونصوصها الحية . فإن أردت أن تدرس الأصوات العربية بدأت بصفاتها ومخارجها كما حددها الخليل وأثبتها سيبويه[٣٦] ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى ما أصابها من تغير بعد أن خالط العرب الأعاجم من العصر الأموي إلى العصر الحاضر ، ثم شفعتَ هذه الدراسة بما يقودك إليه الاستقراء من تغير يملأ حناجر الناس ، وتسجله الآلات الصوتية الدقيقة ، غير آبه بالمفاضلة بين ناطق وناطق ، أو بين قطر وقطر ، أو بين عصر وعصر ، وغير مكترث بما يعتقد المعياريون أنه خطأ أو صواب ، فأنت راصد لا ناقد ، ومؤرخ لا مصلح .

ومعنى هذا أن المنهج التاريخي يغير على المنهج الوصفي ، فيفيد من أسلوبه ، ويسخر مصطلحاته في خدمة الدراسات التطبيقية التي يستخدمها ، « لأن كل المصطلحات التي استعملت تحت العنوان الوصفي قابلة من الناحية العملية للاستعمال مع الفرع التاريخي »[٣٧] . « وهنا نجد المنهجين التاريخي والوصفي يدخلان في شكل انسجامي تعاوني مثمر »[٣٨] .

ويحسن ههنا أن نشير إلى أن المنهج التاريخي لا يحصر نفسه في دراسة اللغات التي انقرضت ، ولم يبق منها إلا النقوش والنصوص القديمة كالآرامية والهيروغليفية . ولا في اللغات التي انحسرت عن الحياة العامة ، ولازمت المعابد والمعاهد والجامعات المعنية بدراسة اللغات القديمة كالسريانية واليونانية القديمة ، ولا في الأمهات اللواتي انسحبن من ميادين الحياة ، وأخلينها للبنات المتحدرات منهن كاللاتينية التي أنجبت الإيطالية والفرنسية والأسبانية . وإنما

---

(٣٥) المصدر السابق ص١٩٧ .

(٣٦) أشرنا قبل إلى ما قام به في هذا الميدان د . عبد الرحمن الحاج صالح . وإلى محاضراته في جامعة دمشق سنة ١٩٧٤م .

(٣٧) المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص١٩٨ .

(٣٨) المصدر السابق ص١٩٨ .

يمتد نشاطه إلى دراسة اللغات الحية ليربطها بأصولها، ويكشف عما أصابها من تطور في الأصوات والصيغ والدلالات[٣٩] ... الخ.

وإذا قيّض الله لهذا المنهج من يحملون تبعاته، ويفيدون من سماته، فقد يصنعون للغات التي يدرسونها معجمات تاريخية تنافس الأطالس اللغوية وتبزها، إذ تدرس تطور الألفاظ، وتكشف عن تغير نطقها ومعانيها لتأثرها بالعوامل الاجتماعية والجغرافية والسياسية و الدينية على النحو الذي أشار إليه أحمد بن فارس في حديثه عن تأثير الإسلام في كثير من الألفاظ العربية القديمة، فقال: «فلما جاء الله جلّ ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ... ونُقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أخر»[٤٠].

ويستطيع علم صيغ الألفاظ (المورفولوجيا) بالتعاون مع علم الدلالة أن يؤرخ ظهور صيغ واختفاء أخرى، وانتقال بعض الصيغ من زمرة دلالية إلى أخرى تلبية لحاجة العصر المتطور. ومن ذلك على سبيل المثال نقل فعّالة من المبالغة التي كانت تلازمها (مدّاحة نواحة) إلى معنى الآلة الطارىء عليها في العصر الحديث (سيّارة طيارة).

ويستطيع علم الأصوات (الفونولوجيا) أن يدرس الأصوات دراسة تاريخية، تتعقب تطورها في أفقين: أفق الأصوات المفردة وما يعرض لها من تغير في المخارج وترقيق وتفخيم وإبدال. وأفق التنظيم الصوتي وما يعرض لبعض الأصوات من تغير بسبب المجاورة. فمن الأفق الأول تأريخ صوت الجيم وما عراه من تغير في مصر والخليج. وتأريخ صوت الضاد التي تزحف نحو الظاء، وتأريخ الذال والثاء اللتين أخذتا تفارقان اللثة وتلحقان أحرف الصفير. ومن الأفق الثاني صوت السين الذي تحول إلى صوت الصاد في ألسنة المصريين إذا تلتها الخاء (ساخن = صاخن)[٤١]. ومن واجب المنهج التاريخي أن يحدد هذه الانحرافات تحديداً زمنياً ومكانياً، وأن «يبحث كذلك عن أسبابها، ويعمل على كشف العوامل التي أدت إليها»[٤٢].

رابعاً ـ المنهج المقارن

إن الأساس الذي يقوم عليه المنهج المقارن Comparative Method هو «الموازنة بين

---

(٣٩) انظر منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، د. علي زوين ص٣٦ وما بعدها.

(٤٠) الصاحبي لأحمد بن فارس ص٧٨ تح السيد صقر.

(٤١) انظر علم اللغة، د. علي عبد الواحد وافي ص٣١٠.

(٤٢) المصدر السابق ص٤٨.

الظواهر اللغوية في طائفة من اللغات لاستنباط خواصها المشتركة ، وللوقوف على وجوه الاتفاق والخلاف في عواملها ونتائجها ، وللوصول من وراء هذا كله إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها في مختلف مظاهرها »[٤٣] .

من هذا التعريف الشامل للمنهج المقارن تستطيع أن تستنبط أموراً هامة تضبط المنهج ، وتجنب من ينتهجه المزالق المفضية إلى الخروج عن حدوده ، أو الخطأ في فهمه وتطبيقه .

أولها أن الموازنة لا تعقد بين لغتين تنتميان إلى أسرتين مختلفتين كالعربية السامية ، والإيطالية اللاتينية . وإنما تعقد بين لغتين تجمعهما وحدة الأرومة كالإيطالية والفرنسية اللاتينيتين ، والعربية والعبرية الساميتين .

ثانيهما أن الموازنة لا تعقد بين الظواهر اللغوية التي تطورت حتى أبلغها التطور مرحلة من الاختلاف بلغت حدّ التدابر والتنافر ، بل تعقد بين الظواهر أو الصيغ القديمة الأولى التي يغلب على ظن الباحث أنها من الموروث المشترك المتحدر من اللغة الأم التي أنجبت اللغتين .

ثالثها أن الغرض من الموازنة استنباط الخواص المشتركة ، وهذه الخواص أعمق من استعارة المفردات . فالعربية ــ على سبيل المثال ــ أعارت الأردية والفارسية والتركية سيلاً من المفردات ، تشكل ثلاثة أرباع الأردية ، ونصف التركية ، وكثيراً من كلام الفرس ، ولكنها لم تعر هذه اللغات أصواتها وصيغها وأساليبها في بناء التراكيب ، ولهذا لا جدوى من مقارنة العربية بهذه اللغات غير السامية[٤٤] .

ورابعها أن الغرض من المقارنة الوصول إلى أوجه الشبه وأوجه الخلاف بين اللغتين ، وتحديد العوامل الاجتماعية والسياسية والدينية والجغرافية التي عملت عملها البطيء حتى تمَّ امتياز اللغتين ، وههنا يبرز المنهج التاريخي ليدلي برأيه في هذه المقارنة لقدرته على الغوص في أغوار اللغتين وكشف جذورهما .

وخامسها أن الارتقاء بالنتائج التي تتمخض عنها الدراسة المقارنة بين لغتين متحدرتين من أسرة واحدة إلى الأفق الإنساني يشق الطريق أمام علم اللغة العام . إن مقارنة هذه النتائج بما تتوصل إليه دراسة مقارنة أخرى بين لغتين أخريين من أسرة لغوية أخرى تمهّد السبيل لمعرفة النواميس اللغوية الإنسانية العامة التي تنتظم جميع اللغات ، وتحدد سيرها وتطورها[٤٥] .

---

(٤٣) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٤٩ ــ ٥٠ .

(٤٤) المصدر السابق ص٥٠ .

(٤٥) انظر المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص١٩٩ وما بعدها . واللغات السامية لنولدكه ترجمة د . رمضان عبد التواب ص١١ القاهرة ١٩٦٣م .

ومن ينتقل من الجانب النظري إلى الجانب التطبيقي في المنهج المقارن يقف على فوائد جمة ، جناها علم اللغة من التهدي بهدي هذا المنهج . فبعد أن قارن العلماء الأوروبيون بين عدة لغات متحدرة من الأسرة الهندية الأوروبية تبين لهم أن هذه اللغات تشترك في ثلاثة أشياء ، وهي : التراكيب الأساسية ، والمفردات البدائية ، والفونيمات (الأصوات) التي تشكل نوعاً من التقابل الصوتي[٤٦] .

وربما كانت المقارنة بين لغتين متحدرتين من أصل ساميّ أدلّ على جدوى المنهج المقارن لقرب الأسرة السامية من أفهامنا . وإذا كان قدماء العلماء قد زهدوا ــ على إدراكهم هذه الحقيقة ــ في عقد المقارنة بين العربية وأخواتها الساميات فإنهم لم يغفلوا الإشارة إلى أوجه الشبه بين هذه اللغات .

قال الخليل بن أحمد [ت : ١٧٥هـ] : « وكنعان بن سام بن نوح ينسب إليه الكنعانيون ، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية »[٤٧] .

ووضح ابن حزم الأندلسي [ت : ٤٥٦هـ] صلة العربية بالعبرية والسريانية توضيحاً علمياً ، يدل على إلمامه باللغات السامية ، وعلى إدراكه اتفاقها في الأصول واختلافها في الفروع ، وينمّ على فهمه عوامل التطور المؤثرة في توحّد اللغات وتفرقها ، فقال : « من تدبّر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ، ومجاورة الأمم ، وأنها لغة واحدة في الأصل »[٤٨] .

فلما أدرك المستشرقون الغربيون عامة والألمان خاصة هذه الحقيقة أَوْلَوْا المقارنة بين الساميات ما لم يولها أبناؤها ، وراحوا يدرسون أصواتها وألفاظها ونحوها وصرفها دراسة علمية دقيقة . وأبرز هؤلاء المستشرقين إيفالد Ewald وألسهوزن Olshausen ونولدكه Noldeke وبروكلمان Brockelmann[٤٩] . ثم حذا حذوهم الباحثون العرب ، فكشفت بحوثهم عن حقائق هامة ، وعن مجموعة من أوجه الشبه بين الساميات ، يمكن إيجازها بما يلي :

١ ــ اللغات السامية قليلة الاحتفال بحروف المد (ا ، و ، ي) ، ولهذا أضافت الحركات إلى الرسم .

٢ ــ أغلب ألفاظها مشتقة من جذور ثلاثية ، ومعظم أسمائها متحدرة من الأفعال خلافاً

---

(٤٦) انظر أسس علم اللغة لماريوباي ص ١٧٠ .

(٤٧) العين للخليل بن أحمد ١/٢٣٢ تح عبد الله درويش بغداد ١٩٦٧ .

(٤٨) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١/٣٠ مطبعة الإمام .

(٤٩) انظر المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص٢٠٢ وما بعدها .

لرأي البصريين ، أي : أصل المشتقات في الساميات الفعل ، وبذلك يقول الكوفيون .

٣ ــ الساميات متشابهة في الضمائر ، وفي أسلوب اتصال الضمائر بالأفعال والأسماء والحروف . فضمائر الرفع العربية : أنا ، أنتَ ، أنتِ ، هو ، هيَ ، نحن ، أنتم ، أنتن ، هم ، هن . تقابلها في العبرية : أني ، أتَّا ، أتْ ، هُوَ ، هِي ، نحنو ، أتّمْ ، أتّنْ ، هِمْ ، هِنْ .

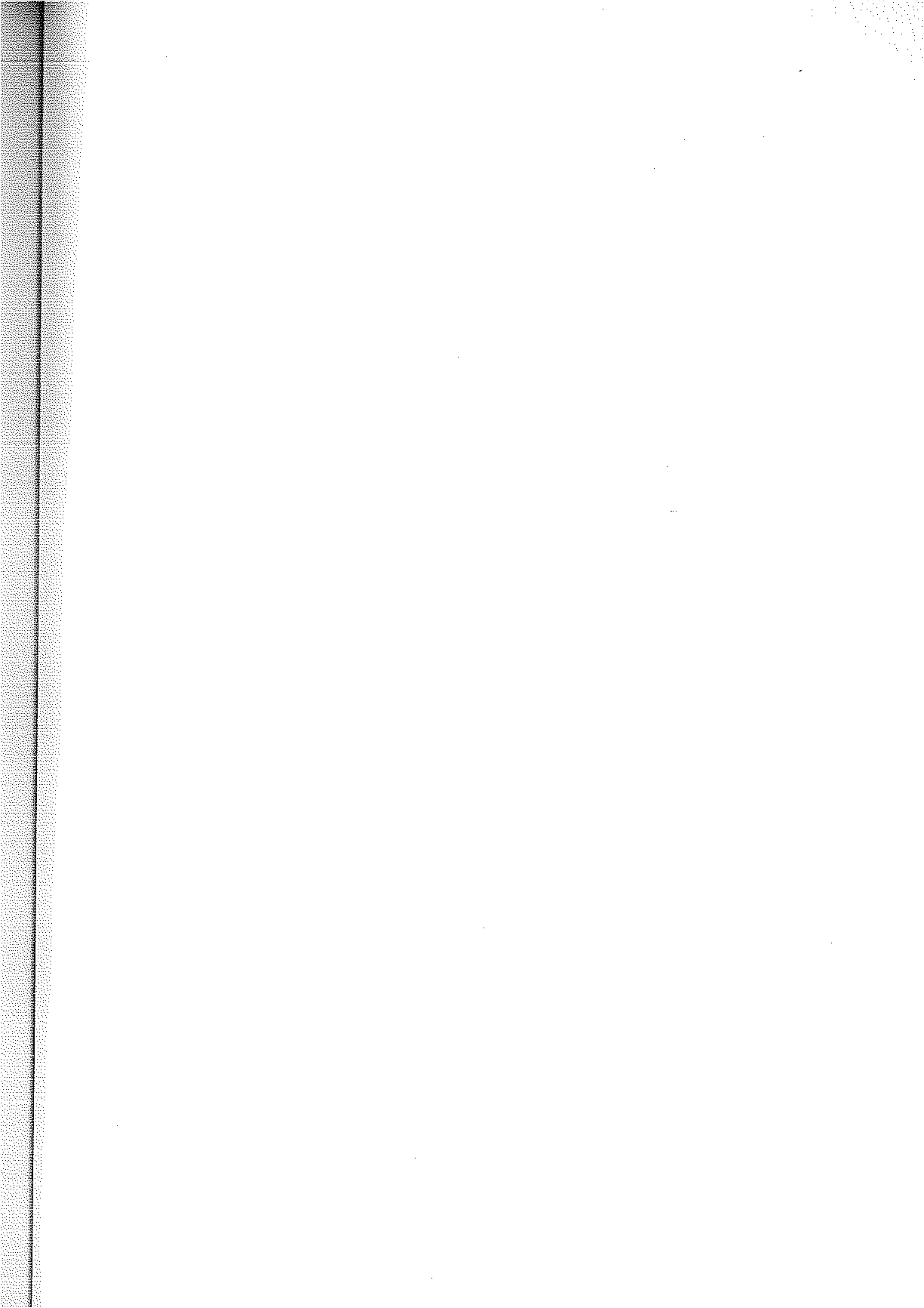
٤ ــ الساميات متشابهة في ألفاظ العدد ، فالأعداد العربية : واحد ، اثنان ، ثلاثة يقابلها في العبرية : إِحادْ ، شِنايمْ ، شِلوشا ، أرْبعا ، حمشا ، شِشّا ، شِڤْعا ، شِمونا ، تشعا ، عَسَرا .

٥ ــ صياغة الأسماء المشتقة كاسم الفاعل واسم المفعول واسمي الزمان والمكان متشابهة .

٦ ــ كلتا اللغتين تتضمن حروف الإطباق والحلق التي تفتقر إلى معظمها معظم اللغات غير السامية (ص ، ط ، ظ ، ح ، ع ، غ) وتتميز العربية بحرف الضاد(٥٠) .

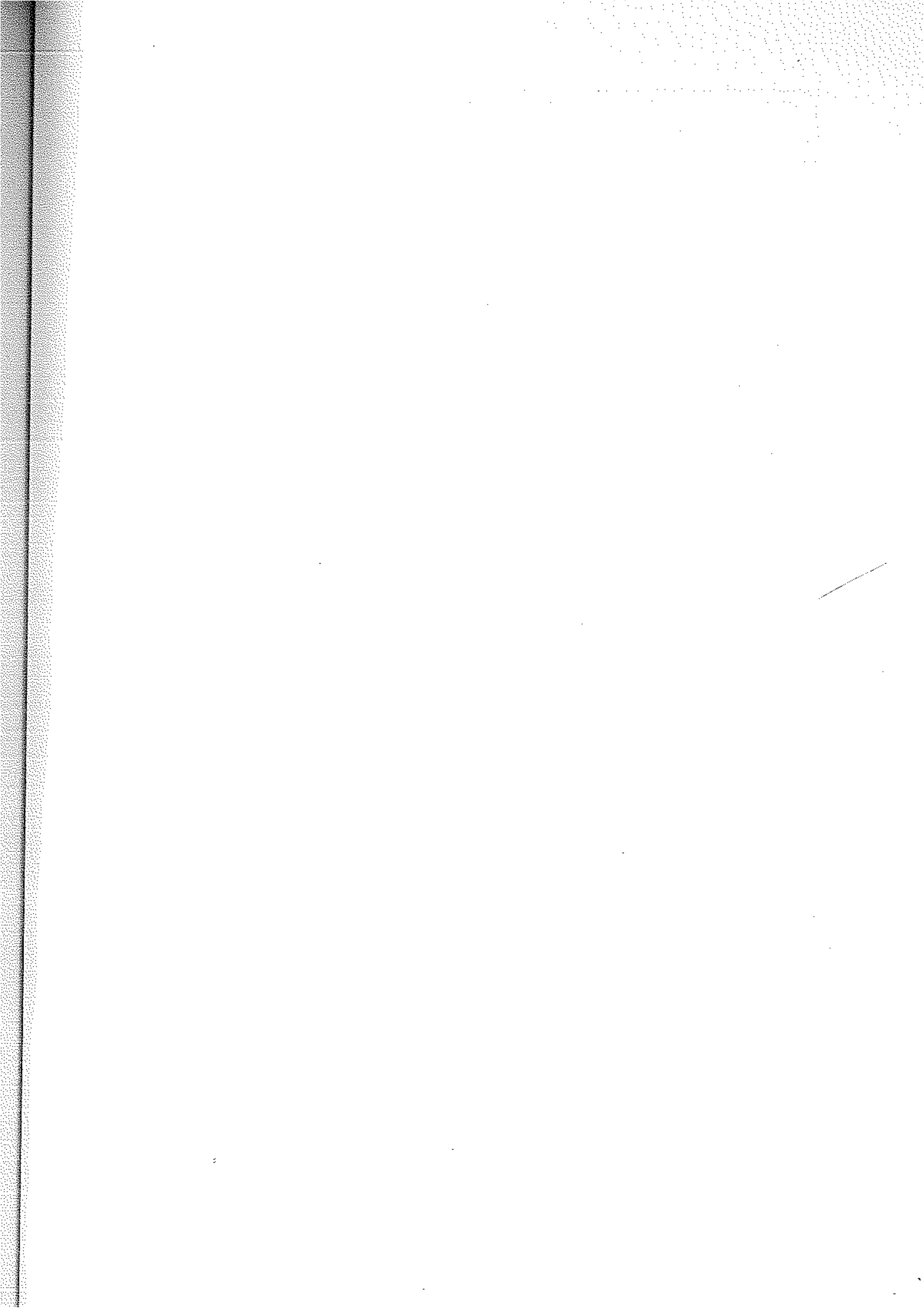
---

(٥٠) عن كتاب دروس في اللغة العبرية ، د . ربحي كمال ص١٩ ــ ٢٠ .



الباب الرابع

الدراسات الصوتية



الفصل الأول

الدراسات الصوتية القديمة

تعريف وتقسيم

الصوت في علم الفيزياء «ظاهرة طبيعية تنشأ عن اهتزاز الأجسام، وندركه عن طريق حاسة السمع»[1]. ويتخذ الاهتزاز شكل أمواج متتابعة، تتحول إلى ما يسميه علم وظائف الأعضاء الموجات السمعية Sonic Waves. وللموجات المسموعة تردد معين «تنقل الأذن تأثيرها إلى المخ الذي يترجمها إلى الأصوات والنغمات المسموعة»[2].

أما الصوت اللغوي فهو «أثر سمعي تنتجه أعضاء النطق الإنساني إرادياً في صورة ذبذبات، نتيجة لأوضاع وحركات معينة لهذه الأعضاء»[3]. وإذا كان علم الفيزياء يدرس الأصوات عامة فإن علم الصوت اللغوي «يدرس الصوت الإنساني من حيث النطق به، وكيفية صدوره، ومخرجه، وصفته، وانتقاله في موجات صوتية عن الهواء، واستقباله في أذن السامع من حيث موقع الصوت في الكلمة، ومجاورته لغيره، وتأثره به، وتأثيره فيه»[4].

وينشعب علم الصوت اللغوي إلى شعبتين: علم الأصوات العام General Phonetics ويدرس نطق الصوت، والأعضاء الناطقة، وانتقال الصوت من الفم إلى الأذن، ومن الأذن إلى المخ، وما يعقب الانتقال من إدراك.

وعلم الأصوات الخاص Phonology (فونولوجيا)، ويعنى بتصنيف أصوات اللغة،

---

(١) علم اللغة النفسي، د. عبد المجيد سيد أحمد منصور ص٤٧.

(٢) المصدر السابق ص٤٧.

(٣) علم اللغة وفقه اللغة، د. عبد العزيز مطر ص٣١.

(٤) المصدر السابق ص٣١.

واختلافها وفق الاختلاف في اللهجات ، وبالمقاطع الصوتية التي تتألف منها كل كلمة ، وبموقع كل صوت فيها ، كما يعنى بدراسة النبر ، أي الضغط على مقطع من مقاطع الكلمة لإبرازه ، وبتنغيم الكلام ، أي : بتنويع الصوت وفق أساليب القول من أمر ونهي وتعجب واستفهام(٥) .

ومع أن علم الأصوات الخاص (الفونولوجيا) يوصف بأنه «علم حديث النشأة» فإن دراسة الهنود واليونان للأصوات اللغوية بصورة عامة ، ودراسة العرب لها بصورة خاصة مهدتا السبيل أمام هذا العلم قبل أن يتخذ صورته العلمية في العصر الحديث . فما الجوانب التي تناولتها الدراسات القديمة ؟ وما طبيعتها ؟

أولاً ــ الدراسة الصوتية عند الهنود واليونان والرومان

إنصافاً للشعوب القديمة ، وإقراراً بالفضل لذويه ينبغي أن نعزو إلى الشعوب الكنعانية ــ وعلى رأسهم الفينيقيون ــ الخطوة الأولى التي شقت الطريق أمام الدراسات الصوتية القديمة . إنهم باختراعهم الأبجدية وضعوا أيدي الناس على مفتاح الدراسات الصوتية ، إذْ أوحوا إليهم أن اللغة مؤلفة من عناصر صغيرة ، هي الأصوات التي يُصَبُّ كل صوت منها في حرف ، له شكل مرسوم مرقوم . وشكله هذا ينقله من اللسان إلى العين ، وبقراءة الشكل مقرونة بالصوت المنطوق ، ينتقل من العين إلى الأذن تمهيداً لدراسته(٦) .

ومن الإنصاف كذلك أن نذكر أن فضل الأبجدية على اليونان مقطوع فيه ، وأن في فضلها على الهنود بعض الشك . فاليونان اقتبسوا الأبجدية الفينيقية ، والهنود ظلوا محافظين على الكتابة المقطعية ، لكنهم لم يعدموا دافعاً آخر قوياً ، يحملهم على الاهتمام بأصوات اللغة . واللغة ــ كما يرى جون ليونز J. Lyons ــ لم تكن مكتوبة في العهود القديمة . أو قل : إنها كانت أصواتاً منطوقة مسموعة قبل أن تصبح مقاطع مرسومة أو حروفاً مرقومة . فلما رقمت الحروف تمايزت الأصوات ، فغدا كل صوت منها ملء السمع والبصر(٧) .

---

(٥) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص١٥٠ ــ ١٥١ والمصدر السابق ص٣٢ ــ ٤٠ .

(٦) انظر تاريخ علم اللغة ، جورج مونان ص٧٨ ترجمة بدر الدين القاسم حلب ١٩٨١م .

(٧) انظر نظرية تشومسكي اللغوية ، جون ليونز ص٤١ ــ ٤٢ ترجمة د . حلمي خليل الإسكندرية ١٩٨٥م .

ولعل الدافع الذي حمل الهنود على أن يدرسوا لغتهم دراسة صوتية هو قداسة السنسكريتية التي انسحبت من ميادين الحياة، واعتكفت في المعابد، يرددها الكهنة في المحاريب، وتُرتل بها الصلوات. وانسحابها أدى إلى عزلتها، وعزلتها أدت إلى غربتها وثقلها على ألسن الناس. ولذلك خشي عليها الكهنة من اللحن، فدرسوا أصواتها دراسة تعد مبتكرة إذا قيست بما وصلت إليه دراسة اللغة المكتوبة كتابة مقطعية في ذلك العصر.

وبرع في هذا الميدان عالم هندي يدعى بانيني Panini وهو، كما يقدر بوتلينغ Böhtlingk مترجم كتابه، من رجال القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد. وأهم ما في كتابه العناية بصفات الأصوات وتحديد مخارجها، والحديث عن الأعضاء التي تنطقها. وهذه الدراسة الوصفية تمخّضت عن الإشارة إلى ارتباط الأصوات بالمعاني[٨].

ويظهر أن الإغريق الذين بزّوا غيرهم في ميادين الدراسات الإنسانية كالفلسفة والأدب والفن لم يبلغوا مرتبة الهنود في تحليل الأصوات. إنهم طوروا الأبجدية الفينيقية، ورسموا ما فات الساميين رسمُه، فسجلوا الأحرف الصائتة (ا، و، ي) التي أسقطتها الأبجدية الفينيقية من الرسم، وأثبتتها الألسنة في النطق، وصنفوا الأصوات بتقسيمها إلى مجموعتين: مجموعة الأصوات الصائتة، وهي: الضمة، والفتحة، والكسرة، والواو، والألف، والياء وأمثالها مما ليس له في العربية نظير. والمجموعة الثانية مجموعة الأصوات الصامتة، وهي القدر الأكبر من أصوات الأبجدية (ب، ج، د ...)[٩].

وللأصوات عند اليونان تصنيف آخر يقرب من التقسيم الحديث المستند إلى التمييز بين الأصوات المجهورة والأصوات المهموسة. «فالأصوات التي يصدق عليها أنها مهموسة مقابلة في تصنيفهم للأصوات الانفجارية النَّفَسية، بدلاً من أن تكون مقابلة لما يصدق عليها أنها مجهورة، واعتبروا الأصوات التي نسميها مجهورة متوسطة بين المهموسة والانفجارية»[١٠]. وأهم ما يميز آراء اليونان الصوتية «أنها تقوم في جملتها على ملاحظات الآثار السمعية التي تتركها الأصوات في الأذن»[١١]. ولا تقوم على الدراسة أو الملاحظة المباشرة لأعضاء النطق، ولتوزع الأصوات على المخارج. ولذلك فقدت كثيراً من الدقة.

ومن المعروف في تاريخ الحضارة أن الرومان قلّدوا اليونان في جوانب ثقافية كثيرة، ومن

---

(٨) انظر تاريخ علم اللغة، جورج مونان ص٦٤ وما بعدها.

(٩) انظر مبادىء اللسانيات، د. أحمد محمد قدور ص٣٦ وما بعدها.

(١٠) علم اللغة، د. محمود السعران ص٨٩.

(١١) المصدر السابق ص٨٨.

هذه الجوانب دراسة الأصوات على النهج الذي انتهجه اليونان . ومن ينقر عن آراء الرومان الصوتية التي ردّدها نحاتهم ، ومنهم بريسكيان Priscian وترنتيانوس Terentianus يسمع فيها أصداء اليونان مطبقة على اللغة اللاتينية(١٢) .

ويحسن بنا ههنا أن نشير في خاتمة الحديث عن اليونان والرومان إلى أنهم كانوا مقصرين في درس الأصوات وتحليلها ، وأن تقصيرهم امتد إلى ورثة الحضارتين اليونانية والرومانية ، ولهذا لم يؤثر عن علماء اللغة الأوربيين في العصور الوسطى علم لغوي له شأن ، يمكن قياسه بالدراسات الصوتية الراقية التي قدمها العرب .

ثانياً ــ الدراسة الصوتية عند العرب

١ ــ صلتها بقراءة القرآن :

إذا كانت علوم العربية عامةً أفناناً في دوحة القرآن الكريم ، فعلم الأصوات خاصة ألصق هذه الأفنان بالقرآن ، وأحرصها على سلامته من الانحراف . وإذا كان كتاب الهمز لعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي(١٣) [ت : ١١٧هـ] أول المؤلفات الموصولة النسب بعلم القراءات ، فمن المرجح أن الخليل بن أحمد [ت : ١٧٥هـ] رتب معجمه (العين) وفق المخارج الصوتية متأثراً بالقراءات ، معرضاً عن الترتيب الأبجدي الذي كان متبعاً في اللغات السامية . وعن الخليل قبس سيبويه [ت : ١٨٠هـ] علم الأصوات ، فأفرد للإبدال والإدغام بابين كبيرين في الجزء الثاني من كتابه .

٢ ــ أعضاء النطق :

ليس من طبيعة هذا الكتاب الذي بين يديك ــ وهو ينتمي إلى علم اللغة العام لا إلى فقه اللغة العربية ــ أن يفصل القول في تاريخ الدراسة الصوتية العربية . ولهذا اجتزأ من هذا العلم بعَلَمين هما ابن جني وابن سينا وبأهمّ المباحث في ميدان الأصوات .

أما أبو الفتح عثمان بن جني [ت : ٣٩٢هـ] فقد أفرد للأصوات أبواباً واسعة من كتابه الخصائص وخصها بكتابين نفيسين : أولهما (سر صناعة الإعراب) وثانيهما (المنصف) ، وقف الأول على درس الأصوات (الحروف) العربية ، وتناول في الثاني علم الصرف عامة بما يشتمل عليه من دراسات صوتية ، وفي هذا الكتاب استخدم ابن جني مصطلح الأصوات لأول مرة .

---

(١٢) المصدر السابق ص٨٨ .

(١٣) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص١٢ .

وأطرف ما في سرّ الصناعة وسائل الإيضاح التي قرّب بها ابن جني جهاز النطق البشري وطريقة النطق بالحروف إلى عقل القارىء، إذ شبه الفم والحلق والحنجرة والقصبة الهوائية جميعاً بمزمار الزامر وأوتار الضارب، فقال: «إذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق»[١٤] . وقال بعد أن شبه جهاز النطق بأوتار العود: «الوتر في هذا التمثيل كالحلق، والخفقة عليه بالمضراب كأول الصوت من أقصى الحلق، وجريان الصوت فيه غفلاً غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة، وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا»[١٥] .

وأما الطبيب الفيلسوف أبو علي الحسن بن سينا [ت: ٤٢٩هـ] فقد ألف رسالة صغيرة، لكنها فريدة في موضوعها، سماها (أسباب حدوث الحروف)، وذكر فيها سبب حدوث الأصوات بصورة عامة، ثم سبب حدوث الحروف الإنسانية بصورة خاصة، وأجرى في الحنجرة واللسان مباضع التشريح، ووصف مخارج الحروف العربية وصفَ الطبيب الخبير بآلة النطق، ثم وصف ما يشبه هذه الحروف من الأصوات الأعجمية. والسمة الغالبة على هذه الرسالة الطبُّ لا اللغة. إنها كلام طبيب استقل بعلمه ومصطلحاته عن اللغويين[١٦] .

٣ ــ مخارج الأصوات:

لا يفهمن مما سبق أن العرب قصروا دراستهم الصوتية على وصف الأعضاء الناطقة هذا الوصف الفني الذي برع فيه ابن جني، أو ذاك الوصف الطبي الذي أتقنه ابن سينا، بل شفعوا الوصف بتحديد مخارج الأصوات من الجوف والحلق إلى الشفتين والخيشوم فبلغت المخارج أربعة عشر أو ستة عشر مخرجاً. ثم وزعوا الأصوات على المخارج زمراً، فبلغت عدتها إحدى عشرة زمرة، هي:

١ ــ الأصوات الجوفية الثلاثة: الألف والواو والياء الممدودات. ومعنى الجوف ههنا فراغ الحلق والفم.

٢ ــ الأصوات الحلقية ستة، وهي: الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء.

٣ ــ الصوتان اللهويان، وهما: القاف والكاف.

---

(١٤) سر صناعة الإعراب ٩/١ تحقيق السقا وزملائه القاهرة ١٩٥٤م.

(١٥) المصدر السابق ٩/١.

(١٦) أنظر أسباب حدوث الحروف لابن سينا. القاهرة ١٣٥٢هـ.

٤ ـ الأصوات الشجرية ، وهي ثلاثة : الجيم والشين والياء غير الممدودة ، وشَجْرُ الفم ما بين وسط اللسان وما يقابله من الحنك الأعلى .
٥ ـ الأصوات الذلقية ثلاثة : اللام ، والنون المظهرة ، والراء . وذلق اللسان طرفه .
٦ ـ الأصوات النطعية ثلاثة : الطاء ، والدال ، والتاء . والنطع سقف غار الحنك الأعلى .
٧ ـ الأصوات الأسلية أو أصوات الصفير ثلاثة : الصاد ، والسين ، والزاي ، والأسلة رأس اللسان .
٨ ـ الأصوات اللثوية ثلاثة : الظاء ، والذال ، والثاء . واللثة مغارس الأسنان ، أو ما حولها من اللحم ، والمراد ههنا اللثة العليا .
٩ ـ الأصوات الشفهية ثلاثة : الباء ، والميم ، والواو غير الممدودة .
١٠ ـ الأصوات الشفوية الأسنانية : العربية لا تعرف منها غير صوت واحد ، وهو الفاء .
١١ ـ أما صوت الضاد فصوت فريد خاص بالعربية ومخرجه حافة اللسان (١٧) .

وإذا كان لك أن تخلص من استعراض المخارج بسمتين تسم بهما أصوات اللغة العربية تميزها من سواها فقل : إن سمتها الأولى سعة المدرج الصوتي ، وإن سمتها الثانية توزعها العادل على أجزاء هذا المدرج من أقصى الحلق إلى الشفتين . فهي لذلك لا تتراكب ، ولا تتداخل ، ولا يحسّ الناطق بها شيئاً من التعثكل (١٨) . وهذا الجانب وحده يدل دلالة واضحة على مبلغ التقدم الذي أحرزه علم الأصوات عند العرب .

وسنفصل بعدُ ماأجملنا ههنا في الحديث عن مخارج الأصوات العربية مقرونة بما يعادلها أو يقاربها من الأصوات الإنكليزية لنقف على ما أنجزه العرب في هذا المضمار .

٤ ـ صفات الأصوات :

سار علماؤنا القدماء في مضمار الدراسة الصوتية شوطاً آخر ، حينما شفعوا مخارج الأصوات بصفات تسم كل زمرة ، وكل صوت من زمرة بسمات أوفت على الغاية في الدقة والوضوح . وهذه الصفات :

آ ـ **الهمس** : هو جريان النَّفَس عند النطق بالحرف لضعف الاعتماد على المخرج ، وأصواتُه عشرة يجمعها قولهم : فحثه شخص سكت . وتميزها الدراسات الحديثة بأن نطقها لا يهز وتري الحَنْجَرة .

ب ـ **الجهر** : هو انحباس النفس عند النطق بالحرف لقوة الاعتماد على المخرج ، وأصواته

---

(١٧) المخارج مقتبسة من فقه اللغة ، د . صبحي الصالح دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٠م .

(١٨) انظر فقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك ص٤٧ .

تسعة عشر صوتاً ، تتحصل لك بطرح المهموسة من الأبجدية العربية ، وعلامتها عند المحدثين اهتزاز وتري الحنجرة بنطقها .

ج ــ **الشدة** : هي الانحباس القوي للنَّفَس عند نطق الصوت ليبلغ الاعتماد على المخرج أقصاه . والحروف الشديدة هي (أ ، ب ، ت ، ج ، د ، ط ، ق ، ك) .

د ــ **الرخاوة** : هي جريان النفس عند النطق بالصوت لضعف الاعتماد على المخرج . والحروف الرخوة هي (ث ، ح ، خ ، ذ ، ز ، س ، ش ، ص ، ض ، ظ ، ع ، ف ، هـ ، و ، ي ، ا) .

هـ ــ **التوسط في الشدة** : معنى التوسط في الشدة أن ينفلت الحرف من مكمنه قبل أن تتمكن أعضاء النطق من حبسه حبساً تاماً . ومجموع الأحرف المتوسطة الشدة خمسة ، هي (ر ، ع ، ل ، م ، ن) .

و ــ **الاستعلاء** : هو ارتفاع اللسان إلى الطبق (وسط الحلق) عند إخراج الصوت . والأصوات المستعلية سبعة هي (خ ، ص ، ض ، ط ، ظ ، غ ، ق) .

ز ــ **التسفل** : هو انخفاض اللسان إلى قاع الفم عند إخراج الصوت . وحروفه اثنان وعشرون وهي (أ ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، د ، ذ ، ر ، ز ، س ، ش ، ع ، ف ، ك ، ل ، م ، ن ، هـ ، و ، ي ، ا) .

ح ــ **الإطباق** : هو أن ينطبق اللسان على ما يقابله من الحلق عند النطق بالصوت ، وأصواته أربعة ، هي (ص ، ض ، ط ، ظ) .

ط ــ **الانفتاح** : هو انفتاح اللسان وانفصاله عن الحلق لإخراج الهواء عند النطق بالصوت ، وأصواته كل الأصوات العربية ما عدا أصوات الإطباق .

ي ــ **الإذلاق** : هو خروج الصوت من ذلق (طرف) اللسان ، أو من ذلق الشفة . فالذلقية اللسانية ثلاثة هي (ر ، ل ، ن) والذلقية الشفهية ثلاثة أيضاً ، هي (ب ، ف ، م) .

ك ــ **الصفير** : هو خروج الصوت من بين الثنايا العليا وطرف اللسان وأصواته ثلاثة هي : (ز ، س ، ص) . وصفير هذه الأحرف يشتد إذا سكنت .

ل ــ **القلقلة** : هي اضطراب الصوت واهتزازه ، وقوة الضغط في النطق به لِيُسمع له نبر وحركة سريعة . وأصواته خمسة هي (ق ، ط ، ب ، ج ، د) ويجمعها قولهم : قطب جد .

م ــ **اللين** : هو إجراء الصوت بلا عنت ولا كلفة هيّناً مرسلاً ، وصوتاه الواو والياء الساكنتان .

ن ــ **الانحراف** : هو ميل الحرف عن مخرجه إلى طرف اللسان وصوتاه اللام والراء .

س ــ **التكرار** : هو ارتعاد طرف اللسان عند النطق بالصوت ، وصوته الوحيد هو الراء .

ع ـــ **التفشي** : هو انتشار الصوت وشيوعه في الفم عند نطقه لرخاوته . وصوته الوحيد هو الشين .

ف ـــ **الاستطالة** : هي امتداد الصوت في مخرجه من أول حافة اللسان إلى آخرها . وصوته الوحيد الضاد(١٩) .

فصفات الحروف سبع عشرة صفة . ويضيف بعض الباحثين صفة أخرى ، وهي الإصمات ، والإصمات نقيض الإذلاق ، ومعناه في الأصل المنع . وحروفه أصوات العربية ما عدا أصوات الذلاقة الستة . وسميت مصمتة لامتناع وقوعها أصولاً في الكلمات الرباعية والخماسية ما لم يكن في كل كلمة حرف أو أكثر من أصوات الذلاقة(٢٠) . وما نرى أن لهذه الصفة موضعاً ههنا ، وهي بالصرف أشبه .

٥ ـــ أصوات العربية بين الثبات والتبدل اللهجي :

ليست الصفات السبع عشرة التي ذكرناها نعوتاً تاريخية نُعتت بها أصوات اللغة العربية ، ثم انطوت مع شيوع اللهجات العامية ، ومحاصرتها الفصحى في الكتب والمعاهد . وإنما هي سمات حية يتلى بها القرآن الكريم صباحَ مساءَ . وهذه التلاوة المضبوطة بالسماع والمشافهة والمشاهدة أضافت إلى الأصوات العربية صفة تكاد تنفرد بها بين اللغات العريقة ، وهي ثبات مخارجها .

أما ما أصاب بعضها من تبدل لهجي فيما نقول ونسمع من أحاديثنا اليومية فله شأن آخر ، تبرأ منه الفصحى ، وتفسره القوانين اللغوية الصوتية العامة . وهو ليس وقفاً على لهجاتنا العامية ، بل تحسّه في أصوات اللغات الأخرى . ولضبطه وُضعت له قواعد عامة ، تكاد تكون صحيحة الأحكام . ومن المعروف في دراسة الأصوات العربية أن علماءنا القدماء أدركوا هذا التبدل ، ونبهوا عليه ، وحذروا منه في قراءة القرآن ، ونصحوا للقراء بأن يلتزموا لهجة قريش .

وأهم الظواهر اللهجية التي كانت متداولة ، ثم طواها الزمان : عنعنة تميم وأسد ، وفحفحة هذيل ، وكشكشة ربيعة ومضر وتميم ، وكسكستها ، وشنشنة اليمن ، ووتمها ، وطمطمانية حمير ، وعجعجة قضاعة ، واستنطاء هذيل والأزد ، وإبدال الجيم ياء عند عرب

---

(١٩) لخصنا صفات الأصوات من كتب التجويد ورسالة (فن تجويد العربية) ، د . مازن المبارك ص٨ وما بعدها . ودراسات في فقه اللغة ، د . صبحي الصالح ص٢٨١ وما بعدها .

(٢٠) انظر مقدمة الجمهرة لابن دريد ص٦ حيدر آباد ١٣٤٤هـ . ودراسات في فقه اللغة ، د . صبحي الصالح ص٢٨٣ .

الخليج . وأغلب هذه الظواهر اللهجية من باب الإبدال[٢١] .

٦ ــ المقاطع الصوتية في عروض الخليل

لك أن تضيف إلى الدرس الصوتي علماً لا صلة له بالصرف وقراءة القرآن الكريم ومخارج الأصوات، وهو علم العروض الذي تهدّى إليه الخليل بن أحمد [ت : ١٧٥هـ] وصنعه من الصوت الخالص، وأخذ ينتقل فيه من العام إلى الخاص، ومن المركب إلى البسيط، أي : من البيت إلى التفعيلة، ومن التفعيلة إلى المقطع، وأطلق على المقاطع الصوتية بحسب أصواتها المتحركة والساكنة أسماء استمدها من أجزاء الخيمة، ذاهباً إلى أن بيت الشِّعر الموزون يعدل بيت الشَّعر المسكون[٢٢] . ثم ربط كل مجموعة من الأوزان برابطة صوتية سماها (دائرة) . ومن الدائرة تتفرع الأوزان المتقاربة النغم .

ومن يحلل أصوات وزن من أوزان الخليل يدرك السرّ الصوتي المقطعي في هذا البناء القوي . فالطويل، على سبيل المثال، بُنيَ من تفعيلتين أي : من وحدتين صوتيتين تتكرَّران أربع مرات . أولاهما (فعولن) تتألف من مقطعين (فعو //°) وهو وتد مجموع، و (لن /°) وهو سبب خفيف . والثانية (مفاعيلن) تنحلّ إلى ثلاثة مقاطع صوتية، وهي : (مفا //°) وهو وتد مجموع، و (عي /°) سبب خفيف ومثله (لن /°) .

ويحسن بنا ههنا أن نشير إلى أن للمقطع في الدراسات الصوتية معنى آخر، أساسُه تقسيم الأصوات إلى طليقة وحبيسة . فالطليقات « أصوات لا يجد الهواء معها عقبة تعترض طريقه »[٢٣] ، ولولا اهتزاز الوترين في أثناء النطق بهن ما سمعت لهن نأمة . والطليقات العربية

---

(٢١) العنعنة قلب الهمزة عيناً : يا ليت أنا تراب = عنا تراب . والفحفحة قلبها حاء : حتى حين = عتى . والكشكشة إبدال كاف الأنثى شيناً فعينكِ عيناها : فعينش . والكسكسة قلب كاف المذكر سيناً أو زيادة سين عليها : أعطيتك = أعطيتس أو أعطيتكس . والشنشنة قلب الكاف مطلقاً شيناً : لبيك اللهم = لبيش . والوتم إبدال السين تاء : الناس = النات . والطمطمانية إبدال لام التعريف ميماً : طاب الهواء = طاب امهواء . والعجعجة جعل الياء المشددة جيماً : أبو عليّ = أبو علجّ . والاستنطاء إبدال العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء : أعطيناك = أنطيناك . ولك أن تسمي إبدال الجيم ياء يأيأة : شجرات = شيرات . انظر الصاحبي ص٣٦ وما بعدها والمزهر ١/٢٢١ وما بعدها ومعالم اللهجات العربية ٨٥ ــ ٨٩ واعلم أن هذه الظواهر اللهجية سميت في الصاحبي والمزهر : الرديء المذموم من اللغات .

(٢٢) انظر تفصيل ما أجملنا هنا في كتابنا عروض الشعر العربي من المعلقات إلى شعر التفعيلة ص١١ ــ ١٣ دار طلاس دمشق ١٩٩٤م .

(٢٣) الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي ص٢٢٧ .

ثلاثة طوال هي الألف والواو والياء، وأخرى قصار هي الفتحة والضمة والكسرة. والحبيسات هن اللواتي يحبسن في المخارج، فيعرض لهن الاحتكاك أو الانفجار، وهن بقية الأصوات. أي كل الأصوات الصوامت.

«أما المقطع فهو مجموعة من الأصوات المفردة تتألف من صوت طليق واحد معه صوت حبيس واحد أو أكثر»(٢٤). وعلى هذا الأساس فإن (فعو) مقطعان: أولهما (فَ) لأنه مؤلف من حبيس هو الفاء وطليق قصير هو الفتحة. و (عو) مقطع مؤلف من حبيس هو العين، وطليق طويل هو الواو.

وأبرز ما في هذا الفن الذي أبدعه الخليل توزيعُ الأصوات العربية على أساس مقطعي، يخالف الأساس الحرفي المتبع في الدراسات الصوتية الأخرى، وتجرّدُ هذا التوزيع من المقاصد التي لابست دراسة الصرف واللهجات، وخلوصُه للموسيقا مما لم يكن للعربية عهدٌ بمثله(٢٥).

وإذا كانت الدراسة المقطعية العروضية من العلوم الصوتية التي أضافها الخليل إلى إنجازه الأهم، وهو وضع المعجم على أساس صوتي أيضاً، فإن فضل الدراسات الصوتية العربية على ما سبقها من دراسات اليونان والرومان لا يتجلّى في الموضوعات وحدها. «فالتصنيف اليوناني والروماني تنقصهما الدقة الواجبة في هذا المجال. أما التصنيفان الهندي والعربي فيقومان على فحص وظائف أعضاء النطق، وعلى تحديد مواضعها بالنسبة لكل صوت، وعلى درجة اتصالها»(٢٦).

---

(٢٤) المصدر السابق ص٢٥٤.

(٢٥) رأى أحمد بن فارس — ورأيه لا يستند إلى أدلة كافية — أن العروض من العلوم اللغوية التي كانت معروفة عند العرب، ثم دثرت، ثم نشرت. وناشرها الخليل بن أحمد وأمثاله من علماء اللغة والعروض والنحو والصرف.

(٢٦) علم اللغة، د. محمود السعران ص٩٠.

الفصل الثاني

الدراسات الصوتية الحديثة

علم الأصوات العام

تمهيد

ذكرنا قبلُ أن الغربيين ــ وهم ورثة الحضارتين اليونانية والرومانية ــ لم يجدوا فيما ورثوا من علوم الأقدمين اللغوية غير شذرات صوتية ، لم يستطيعوا أن يصوغوا منها علماً له شأن كالعلم الذي صاغه العرب . ولهذا أصاب الركود والعقم هذا العلم في الغرب ، وظل الأوروبيون طوال العصور الوسطى يرددون أصداء اليونان والرومان .

« ومنذ القرن السابع عشر أخذت الدراسة اللغوية في أوروبا في النهوض ، ومن أهم فروع هذه الدراسة التي تقدمت في القرن الثامن عشر هذا الفرع الذي يسمى بعلم الأصوات اللغوية . فازدياد معرفة اللغويين بالتقدم الذي أصابه علم الطبيعة ، وعلم وظائف الأعضاء ، وازدياد اتصالهم بلغات مختلفة ، واشتغالهم بوصفها وبالمقارنة بين أنظمتها الصوتية كل أولئك وغيره كان عاملاً من عوامل تقدم الدراسة الصوتية وإعطائها درجة أكبر من الدقة والضبط » .

ويقضي الإنصاف البريء من الغلو بألّا يبالغ الباحث في إطراء ما قدمه الأوروبيون في القرنين السابع عشر والثامن عشر من بحوث صوتية « في صورة ناقصة ، وبطريقة تبعد كثيراً عن مناهج البحث العلمي . فمن ذلك بعض نظرات في أصوات اللغة (الفونيتيك) وردت في مؤلفٍ لكورديموا Cordemoy ظهر في سنة ١٦٦٨م ، وبعض ملاحظات وتجارب على الصوت قامت بها المدارس المنشأة في القرن الثامن عشر لتعليم الصم البكم » .

والحق أن نهاية القرن الثامن عشر شهدت بداية النهضة الحقيقية في الدراسات اللغوية ، وأن اكتشاف العلاقة بين اللغة السنسكريتية Sanscrit من ناحية واللغات اليونانية واللاتينية والجرمانية من ناحية أخرى هو المنطلق الذي انطلقت منه الدراسات اللغوية بصورة عامة . وبعد هذه الانطلاقة القوية المسلحة بمناهج علمية اتسعت ميادين الدراسات اللغوية ،

وتعددت موضوعاتها، وظفرت الأصوات اللغوية بالحظ الأوفى منها. وبعد فترة انتقالية اختلفت فيها الموضوعات والأفكار انقسمت الدراسات الصوتية إلى علمين: علم الأصوات العام General Phonetics وعلم الأصوات الخاص Phonology. وأهم الموضوعات التي عني بها علم الأصوات العام ــ وعليها وقفنا هذا الفصل ــ أعضاء النطق، ومخارج الأصوات وتقسيمها إلى زمر وفق المخارج.

أولاً ــ أعضاء النطق

ربما كانت دراسة أعضاء النطق وما نجم عنها من تحديد المخارج الثمرة الأولى التي اقتطفها علم الأصوات العام من شجرة العلوم الحديثة، وعلى رأسها الفيزياء بما صنعته من آلات تصوّر وتسجل، والتشريح بما أجراه في الجسم من مباضع تشرّح وتوضح، والفسيولوجيا بما انتهت إليه من معرفة علمية تحدد العمل الذي خلق له كل عضو من أعضاء النطق. إن التعاون بين هذه العلوم خطا بالدراسات الصوتية الغربية من التخمين الصادق عند العرب إلى اليقين الأصدق عند الغربيين، ومن محاكاة العصور الوسطى لعصري اليونان والرومان إلى الاستقلال بالرأي والاعتماد على الملاحظة المحكمة الأحكام، والتجربة القطعية النتائج في العصر الحديث.

وقبل أن نستعرض أعضاء النطق، ونعزو إليها وظائفها الكلامية، وقبل أن ندَّعي أن علم الفسيولوجيا جعل الوظيفة الأولى لأعضاء النطق صنع الكلام يحسن بنا أن نشير إلى حقيقة من حقائق الخلق، هي «أن تلك الأجزاء المسمّاة بأعضاء النطق ليست وظيفتها الأولى النطق، وأنها تؤدي وظائف أخرى أساسية في بقاء الكائن الحيّ مثل التنفس والأكل»(١). وحَسْبُكَ أن تقارن الإنسان ــ وهو الحيوان الوحيد الناطق ــ بالحيوانات العجماء، وبالبكم من البشر لتدرك أن إخراج النَّفَسِ لصنع الكلام يُعد ثانوياً إذا قيس بإدخاله لتنقية الدم، وأن تنقل اللسان بين مخارج الحروف دون اللوك والدفع للبلع. فما هذه الأعضاء؟ وما أجزاؤها الناطقة؟ وما الأصوات التي يخرجها كل جزء؟

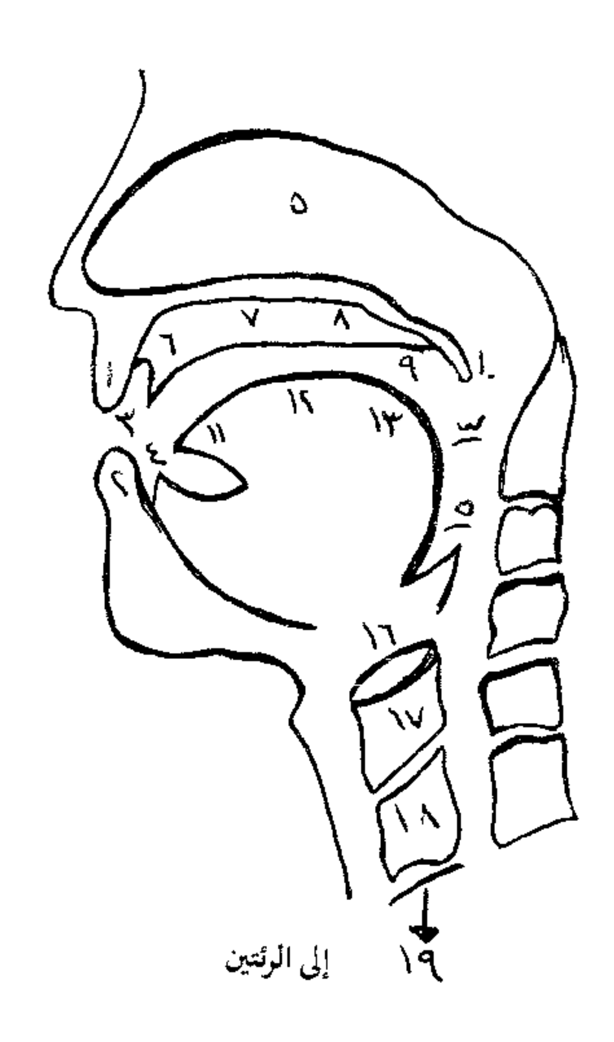
لا تزيد الأعضاء التامة الناطقة على بضعة أوصال هي: الرئتان والقصبة الهوائية الممتدة من الرئتين إلى الحنجرة، والحنجرة التي تلتصق على جانبي فوهتها العليا لحمتان

---

(١) أسس علم اللغة، ماريوباي ص٧٩.

تسميان الوترين الصوتيين، وتغلق هذه الفوهة لحمةٌ نبتت من جدار الحلق الأقصى لتغطي الحنجرة عند البلع، تدعى لسان المزمار، وجوفُ الفم الذي يتوسطه اللسان، ويزدان من الأمام بقوسين من الأسنان، وتغلقه عند الحاجة إلى إغلاقه الشفتان. وآخرها وأعلاها موضعاً جوفُ الأنف.

هذا هو التقسيم العضوي، أما التقسيم الذي يؤثره علم الأصوات الحديث ــ وهو يكاد يطابق التقسيم العربي القديم ــ فيقوم على أساس صوتي، إذ يقسم الجهاز الناطق إلى محطات، أو مراكز ناطقة وفق الأصوات التي تصدر عن كل محطة، فيجعلها بضعة عشر مركزاً، وهي من خارج الجسم إلى داخله: ١ ــ الشفة العليا ٢ ــ الشفة السفلى ٣ ــ الأسنان العليا ٤ ــ الأسنان السفلى ٥ ــ تجويف الأنف ٦ ــ اللثة (أصول الأسنان) ٧ ــ الغار (مقدم الحلق) ٨ ــ الطبق (وسط الحلق) ٩ ــ أقصى الحلق ١٠ ــ اللهاة ١١ ــ الذلق (طرف اللسان) ١٢ ــ وسط اللسان ١٣ ــ مؤخر اللسان ١٤ ــ الجدار الخلفي للحلق ١٥ ــ لسان المزمار ١٦ ــ الوتران ١٧ ــ الحنجرة ١٨ ــ القصبة الهوائية ١٩ ــ الرئتان.



ثانياً ــ مخارج الأصوات (الحروف)

لعل أفضل الأساليب التي تمكننا من الوقوف على مخارج الأصوات أن نراقب رحلة الهواء من الرئتين إلى الشفتين ، لأن الهواء ــ وهو المادة الأساسية التي تُصنع منها الأصوات ــ يتعرض في أثناء عبوره جوف الحلق فالفم فالشفتين إلى الاحتكاك أو الاصطدام بأشياء تصنع منه الأصوات .

إنْ مرَّ الهواء من الرئتين إلى الحلق والفم مروراً عفوياً لم تتغير له أوضاع الأعضاء الناطقة تغيراً إرادياً كان زفيراً صامتاً ، وإن اتخذ اللسان والشفتان أوضاعاً إرادية معينة ، فضاق طريق الهواء أو اتسع ، وانخفض اللسان أو ارتفع ، وتدوّرت الشفتان أو انبسطتا ، ولم يصطدم الهواء بعقبة تقطعه أو تمنعه خرجت الأصوات الصائتة Vowels . وإن عرض للهواء شيء يستوقفه ثم يقذفه ، أو يهزّه ويهتزُّ به خرجت الأصوات الصامتة Consonants . وإليك تفصيل ما أجملنا :

١ ــ **الأصوات الجوفية** : إذا أراد الناطق أن يصنع الأصوات الجوفية (نسبة إلى جوف الحلق والفم) وهي الألف والواو والياء الممدودات ، وما يقاربها من أصوات أجنبية (o, e, u لا مثيل لها في العربية أجرى الهواء من رئتيه في جوف الحلق والفم بلا عقبة تعترضه ، غير أن اللسان « يمكن أن يرتفع من مقدمه أو وسطه أو جزئه الخلفي »[٢] . أما الشفتان فتنفتحان مع الألف ، وتنبسطان مع الياء ، وتتدوران مع الواو كمن يتهيأ للثم طفل . وتسمى هذه الأصوات الثلاثة مع ما يقاربها من الأجنبيات أصواتاً صائتة Vowels[٣] . فإذا تحركت الواو في نحو (وَلَد) تحولت إلى زمرة الصامتة Consonants وصنفت مع الأصوات الشفوية .

٢ ــ **الأصوات الحلقية** : أما (الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء) فالعلماء القدماء من العرب يسمونها حلقية . « ويخصون الهمزة والهاء بأقصى الحلق ، والعين والحاء بأوسطه ، والغين والخاء بأدناه . غير أن الدراسات الحديثة أثبتت أن الهمزة والهاء من الحنجرة ، والغين والخاء من الطبق ، وأن الذي يخرج من الحلق هو العين والحاء »[٤] . وتصنف العين والغين مع الأصوات المجهورة ، وتصنف الهمزة والهاء والخاء مع المهموسة . والجهر يهزّ وتري الحنجرة ، والهمس يريحهما من الاهتزاز .

ومع أن أصوات الحلق أشيع في اللغات السامية ــ ولا سيما العربية ــ منها في

---

(٢) أسس علم اللغة ، ماريوباي ص٧٩ .

(٣) يطلق مصطلح الأصوات الصائتة في بعض الكتب على الزمرة الأخرى : الباء ، التاء ، الجيم .. الخ انظر فقه اللغة للمبارك ص٥٢ .

(٤) المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص٢٢٢ ــ ٢٢٣ .

اللغات الغربية ، فقد تجد بعضها في اللغات الأوروبية ، إذ تجد فيها صوتاً يشبه الهمزة ، ويسمى Glottal Stop تجده « في اللغة الإنكليزية حين النطق بكلمة مثل Co-operate »[٥] . وتجد الخاء في الألمانية ، لكنها أرق من الخاء العربية المفخمة . أما صوت الهاء فيماثله في الإنكليزية « الصوتُ الحنجري الاحتكاكي المهموس H في نحو Head »[٦] .

٣ ـــ **الصوتان اللهويان** : وهما في العربية القاف والكاف ، ويتم نطقهما بطريقة تكاد تكون واحدة . فإذا عزمت على إخراج القاف رفعت مؤخر الطبق حتى يسدّ المجرى الأنفي ويلاصق الجدار الخلفي للحلق ملاصقة محكمة ، ورفعت مؤخر اللسان ليتصل باللهاة وبجدار الحلق الخلفي أيضاً . حينئذ ينحبس الهواء وراء هذا القفل المحكم ، ثم ينفجر ، فيخرج الصوت .

والكاف كالقاف إلا أنه أقل عمقاً ، ومخرجه مؤخر الحلق ، لكنه إلى الغار أقرب ، والقاف إلى اللهاة أقرب . ولتجاور المخرجين يحدث نوع من الزحف في بعض اللهجات العربية العامية ، فيتقدم مخرج القاف نحو مخرج الكاف حتى يلتبس الصوت بأخيه ، ويظهر هذا الزحف في لهجة قسم من أهل فلسطين . وكلا الصوتين شديد مهموس . وإذا كان القاف غير معروف في الإنكليزية فالكاف كثير الشيوع ، ويرسم بأكثر من صورة ، لكن اختلاف الرسم لا يعني اختلاف النطق ، مثل : Cut, Quick .

٤ ـــ **الأصوات الشجرية (الغارية)** : هي ثلاثة أصوات :

أولها الشين ، وهو صوت رخو مهموس مرقق ، ينطق برفع مقدمة اللسان نحو الشجر (الغار) ، ويرفع الطبق ليلتصق بالجدار الخلفي للحلق ، ويسدّ المجرى الأنفي . فإذا مرّ الهواء في المجرى الضيق بين اللسان والغار حدث صوت الشين من الاحتكاك والصفير .

وثانيها الجيم ، وهو صوت مجهور آخذ من الشدة بنصيب ومن الرخاوة بنصيب . ويتم نطقه بأن يرتفع مقدم اللسان ليلتصق بالغار ، فيحجز الهواء ، ثم يطلقه ببطء نسبي ، يؤدي إلى احتكاكه بمخرجه ، غير أن هذا الصوت تعرَّض لكثير من التغيير : أصبح قريباً من صوت (g) الإنكليزي في ألسنة القاهريين ، وياء في منطقة الخليج ، وقارب الشين في دمشق ولبنان .

ويدّعي المستشرق إنو ليتمان E. Littmann أن النطق الأصلي لهذا الصوت هو الجيم

---

(٥) أسس علم اللغة ، ماريوباي ص٧٧ .

(٦) مبادىء علم اللسانيات الحديث ، د . سامي عياد حنا د . شرف الدين الراجحي ص٢٣٦ الإسكندرية ١٩٩١م .

القاهرية، وحجته أن نطق هذا الصوت في العبرية شبيه بالنطق القاهري[٧] . ودعواه مردودة لأمرين :

أولهما أن قراءة القرآن المأخوذة بالتواتر والمشافهة لا تعرف هذا الصوت .

وثانيهما أن الأصوات العبرية ليست حجة على العربية، لأن كل صوت منها يقابل صوتاً عربياً أو أكثر وصوت (الجيمل) العبري المنطوق بجيم القاهرة « يقابله ج، وقد يقابله غ أو ق، أو ك، أو ط »[٨] . ومهما يكن من أمر هذا الادعاء فإن تغير الأصوات في العربية يحدث وفق قوانين صوتية عامة، ولا علاقة بها للعبرية، ولا لما يقابل الأصوات العربية من الأصوات العبرية . والصوت المعادل لصوت الجيم القرآنية الفصيحة يمثله الرمز الإنكليزي (j)، وتسمعه في نحو : Judge .

وثالث الأحرف الشجرية الياء المتحركة غير الممدودة، في نحو : يذهب . وهو صوت مجهور، إذا أردت نطقه فاسمح لمقدمة لسانك بأن تصعد نحو وسط الحلق، واترك الهواء المارّ من الفراغ الباقي بين اللسان والغار يتسرب تسرباً احتكاكياً . حينئذ تسمع صوت الياء . وقريب من الياء العربية المتحركة الصوت الإنكليزي الذي تسمعه في نحو : Yesterday .

٥ ـــ **الأصوات الذلقية** : وهي : اللام والراء والنون . ويسميها بعض الباحثين الأصوات اللثوية[٩] ، ويسميها آخرون الأصوات المائعة[١٠] .

أما اللام فصوت جانبي مجهور، ينطق بأن يتصل طرف اللسان باللثة، ويرتفع الطبق، فيسد المجرى الأنفي، ويرافق نطقَه اهتزازٌ في وتري الحنجرة . والأصل فيه الترقيق، غير أنه يفخم في لفظ الجلالة (الله) ما لم تسبقه كسرة . ويتم الترقيق بخفض مؤخرة اللسان، والتفخيم برفعها . ويبدو أن تنويع النطق بهذا الصوت شائع في غير العربية، وتستطيع أن تلمسه بالإصغاء إلى كلمتي Love و Milk . ويُعلَّل حدوث الفرق باختلاف موضع الانغلاق الناجم عن رفع اللسان إلى الطبق[١١] .

وأما الراء فصوت مجهور مكرور، يرقق ويفخم، ونطقه يهز وتري الحنجرة وذلق اللسان، وترقيقه يتم بخفض مؤخرة اللسان، وتفخيمه ينجم عن رفعها . وللترقيق والتفخيم

---

(٧) انظر المدخل إلى علم اللغة، د . رمضان عبد التواب ص٥٢ .

(٨) التضاد في ضوء اللغات السامية، د . ربحي كمال ص٢٢ دار النهضة بيروت ١٩٧٥م .

(٩) المدخل إلى علم اللغة، د . رمضان عبد التواب ص٤٧ .

(١٠) أسس علم اللغة، ماريوباي ص٨٦ .

(١١) المصدر السابق ص٨٦ .

مواضع وضوابط يتقنها القرّاء المجوّدون ، إذْ يرققون الراء المكسورة أو الساكنة المسبوقة بكسرة مثل : رِضوان وفِرْية ، ويفخمونها فيما عدا ذلك . ويختلف تكرار الراء في اللغات الأوروبية ، فهو خفي في الفرنسية واضح بعض الوضوح في الإنكليزية ، وكلّ الوضوح في الإيطالية . وتسمى الراء بسبب ما يصحبها من جهر وكرور صوتاً مهتزّاً Vibrant[١٢] .

وأما النون فصوت ذلقي مجهور ، إذا هممت بنطقه فألصق طرف لسانك بلثتك العليا ، واخفض الطبق لتفتح المجرى الأنفي . فإذا جرى الهواء من الرئتين هزّ الوترين ، وخرج من الأنف . ولهذا يقترح ماريوباي تسمية النون صوتاً أنفياً Nasal[١٣] . ويلاحظ باحثون آخرون أن صوت النون الساكنة يختلف باختلاف الأصوات التي تعقبها ، ويسمون هذا الصوت : أسنانياً ، ولثوياً ، وغارياً ، ولهوياً[١٤] . ولو أنصفوا لالتزموا ما اصطلح عليه علم التجويد من إظهار وإخفاء وإدغام ، أو أفادوا من هذه المصطلحات .

٦ ــ **الأصوات النطعية** : هي ثلاثة أصوات : الدال ، والتاء ، والطاء .

الدال صوت أسناني لثوي مجهور . إذا أردت أن تنطقه فألصق مقدمة اللسان بالأسنان واللثة العليا لتمنع الهواء من المرور ، ولتسد التجويف الأنفي . وابسط مؤخرة اللسان ، ودع الوترين يهتزان ، ثم أطلق الهواء الحبيس ، فمتى انفجر تَمَّ نطقه . ولما كان النطق به يحتاج إلى تفجر الهواء بعد حبسه فقد اقترح بعض الغربيين تسميته وأمثاله الأصوات الانسدادية Occlusives أو الانفجارية Plosives[١٥] .

والطاء والتاء نظيرا الدال ، كلاهما صوت شديد مهموس ، إلا أن صوت الطاء مفخم ، لأن مؤخرة اللسان ترتفع نحو الطبق عند نطقه ، وصوت التاء مرقق ، لأن مؤخرة اللسان لا ترتفع .

٧ ــ **الأصوات الأسلية أو أصوات الصفير** : هي ثلاثة أصوات : الزاي ، والسين ، والصاد .

صوت الزاي رخو مجهور مرقق ، إذا هممت بنطقه فارفع طرف اللسان (أسلته) نحو الأسنان العليا ، ومقدمته نحو اللثة العليا ، وسدّ المجرى الأنفي بالطبق ، وذلك بأن ترفع الطبق نحو الجدار الخلفي للحلق ، ودع الهواء يمرّ بين اللسان واللثة والأسنان مروراً احتكاكياً ،

---

(١٢) المصدر السابق ص٨٦ .

(١٣) المصدر السابق ص٨٦ .

(١٤) مناهج البحث في اللغة ، د . تمام حسان ص١٠٧ ــ ١٠٨ .

(١٥) أسس علم اللغة ، ماريوباي ص٨٢ .

القاهرية ، وحجته أن نطق هذا الصوت في العبرية شبيه بالنطق القاهري[٧] . ودعواه مردودة لأمرين :

أولهما أن قراءة القرآن المأخوذة بالتواتر والمشافهة لا تعرف هذا الصوت .

وثانيهما أن الأصوات العبرية ليست حجة على العربية ، لأن كل صوت منها يقابل صوتاً عربياً أو أكثر وصوت (الجيمل) العبري المنطوق بجيم القاهرة « يقابله ج ، وقد يقابله غ أو ق ، أو ك ، أو ط »[٨] . ومهما يكن من أمر هذا الادعاء فإن تغير الأصوات في العربية يحدث وفق قوانين صوتية عامة ، ولا علاقة بها للعبرية ، ولا لما يقابل الأصوات العربية من الأصوات العبرية . والصوت المعادل لصوت الجيم القرآنية الفصيحة يمثله الرمز الإنكليزي (j) ، وتسمعه في نحو : Judge .

وثالث الأحرف الشجرية الياء المتحركة غير الممدودة ، في نحو : يذهب . وهو صوت مجهور ، إذا أردت نطقه فاسمح لمقدمة لسانك بأن تصعد نحو وسط الحلق ، واترك الهواء المارّ من الفراغ الباقي بين اللسان والغار يتسرب تسرباً احتكاكياً . حينئذ تسمع صوت الياء . وقريب من الياء العربية المتحركة الصوت الإنكليزي الذي تسمعه في نحو : Yesterday .

٥ ــ **الأصوات الذلقية** : وهي : اللام والراء والنون . ويسميها بعض الباحثين الأصوات اللثوية[٩] ، ويسميها آخرون الأصوات المائعة[١٠] .

أما اللام فصوت جانبي مجهور ، ينطق بأن يتصل طرف اللسان باللثة ، ويرتفع الطبق ، فيسد المجرى الأنفي ، ويرافق نطقَه اهتزازٌ في وتري الحنجرة . والأصل فيه الترقيق ، غير أنه يفخم في لفظ الجلالة (الله) ما لم تسبقه كسرة . ويتم الترقيق بخفض مؤخرة اللسان ، والتفخيم برفعها . ويبدو أن تنويع النطق بهذا الصوت شائع في غير العربية ، وتستطيع أن تلمسه بالإصغاء إلى كلمتي Love و Milk . ويُعلَّل حدوث الفرق باختلاف موضع الانغلاق الناجم عن رفع اللسان إلى الطبق[١١] .

وأما الراء فصوت مجهور مكرور ، يرقق ويفخم ، ونطقه يهز وتري الحنجرة وذلق اللسان ، وترقيقه يتم بخفض مؤخرة اللسان ، وتفخيمه ينجم عن رفعها . وللترقيق والتفخيم

---

(٧) انظر المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص٥٢ .

(٨) التضاد في ضوء اللغات السامية ، د . ربحي كمال ص٢٢ دار النهضة بيروت ١٩٧٥م .

(٩) المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص٤٧ .

(١٠) أسس علم اللغة ، ماريوباي ص٨٦ .

(١١) المصدر السابق ص٨٦ .

مواضع وضوابط يتقنها القرّاء المجوّدون ، إذْ يرققون الراء المكسورة أو الساكنة المسبوقة بكسرة مثل : رِضوان وفِرْية ، ويفخمونها فيما عدا ذلك . ويختلف تكرار الراء في اللغات الأوروبية ، فهو خفي في الفرنسية واضح بعض الوضوح في الإنكليزية ، وكلّ الوضوح في الإيطالية . وتسمى الراء بسبب ما يصحبها من جهر وكرور صوتاً مهتزّاً Vibrant(١٢) .

وأما النون فصوت ذلقي مجهور ، إذا هممت بنطقه فألصق طرف لسانك بلثتك العليا ، واخفض الطبق لتفتح المجرى الأنفي . فإذا جرى الهواء من الرئتين هزّ الوترين ، وخرج من الأنف . ولهذا يقترح ماريوباي تسمية النون صوتاً أنفياً Nasal(١٣) . ويلاحظ باحثون آخرون أن صوت النون الساكنة يختلف باختلاف الأصوات التي تعقبها ، ويسمون هذا الصوت : أسنانياً ، ولثوياً ، وغارياً ، ولهوياً(١٤) . ولو أنصفوا لالتزموا ما اصطلح عليه علم التجويد من إظهار وإخفاء وإدغام ، أو أفادوا من هذه المصطلحات .

٦ ــ **الأصوات النطعية** : هي ثلاثة أصوات : الدال ، والتاء ، والطاء .

الدال صوت أسناني لثوي مجهور . إذا أردت أن تنطقه فألصق مقدمة اللسان بالأسنان واللثة العليا لتمنع الهواء من المرور ، ولتسد التجويف الأنفي . وابسط مؤخرة اللسان ، ودع الوترين يهتزان ، ثم أطلق الهواء الحبيس ، فمتى انفجر تَمَّ نطقه . ولما كان النطق به يحتاج إلى تفجر الهواء بعد حبسه فقد اقترح بعض الغربيين تسميته وأمثاله الأصوات الانسدادية Occlusives أو الانفجارية Plosives(١٥) .

والطاء والتاء نظيرا الدال ، كلاهما صوت شديد مهموس ، إلا أن صوت الطاء مفخم ، لأن مؤخرة اللسان ترتفع نحو الطبق عند نطقه ، وصوت التاء مرقق ، لأن مؤخرة اللسان لا ترتفع .

٧ ــ **الأصوات الأسلية أو أصوات الصفير** : هي ثلاثة أصوات : الزاي ، والسين ، والصاد .

صوت الزاي رخو مجهور مرقق ، إذا هممت بنطقه فارفع طرف اللسان (أسلته) نحو الأسنان العليا ، ومقدمته نحو اللثة العليا ، وسدّ المجرى الأنفي بالطبق ، وذلك بأن ترفع الطبق نحو الجدار الخلفي للحلق ، ودع الهواء يمرّ بين اللسان واللثة والأسنان مروراً احتكاكياً ،

---

(١٢) المصدر السابق ص٨٦ .

(١٣) المصدر السابق ص٨٦ .

(١٤) مناهج البحث في اللغة ، د . تمام حسان ص١٠٧ ــ ١٠٨ .

(١٥) أسس علم اللغة ، ماريوباي ص٨٢ .

تسمع صفير الصوت يصحبه اهتزاز الوترين في الحنجرة. وشبيه بصوت الزاي الصوت الإنكليزي Z في نحو : Zoo .

وصوت السين كصوت الزاي في الرخاوة والرقة والصفير، إلا أنه مهموس، لا يهز نطقُه وتري الحنجرة. وشبيه به الصوت الإنكليزي (S) في نحو : Class ويسمى مع أمثاله أصوات الصفير Sibilants(١٦) .

وصوت الصاد كصوت السين في الهمس، إلا أنه مفخم، وتحدث فخامته من ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق في أثناء نطقه. وهو في صفيره ورخاوته واحتكاكه شبيه بالزاي والسين، إلا أنه مطبق، وهما منفتحان .

٨ ــ **الأصوات اللثوية** : هي ثلاثة : الثاء، والذال، والظاء. وفي تسميتها خلاف : فالخليل بن أحمد [ت : ١٧٥هـ] سماها اللثوية(١٧) ، وعنه نقل المتأخرون. وشارح المفصل جعلها أسنانية المخارج فقال : « الظاء والذال والثاء من حيّز واحد، وهو ما بين أطراف اللسان وأصول الثنايا وبعضها أرفع من بعض »(١٨) ، لكنه سماها لثوية، فقال : « هي لثوية لأن مبدأها من اللثة »(١٩) ، وهذه الجملة من كلام الخليل. وسترى بعد تحليل هذه الأصوات أن في تسميتها لثوية اتساعاً وتقليداً للخليل، وأن تسميتها أسنانية أقرب إلى الدقة .

أول هذه الأصوات الثاء، وهو رخو مهموس مرقق منفتح، يعادله في الإنكليزية الصوت المرموز له بـ (Th)، في نحو Thing . ويتم نطقه بوضع طرف اللسان بين أطراف الثنايا، وبترك منفذ ضيق يمرّ منه الهواء مروراً بطيئاً. أما اللسان فيبقى أكثره مستوياً، بينما يرتفع الطبق ليسدّ المجرى الأنفي، فيلتصق بالجدار الخلفي للحلق. وهذا الصوت تحوّل في أكثر اللهجات العامية إلى صوتي التاء والسين .

والصوت الثاني ــ وهو الذال ــ رخو مرقق كالثاء، لكنه مجهور. وطريقة نطقه مماثلة لطريقة نطق الثاء. ولا يزيد عليه إلا في شيء واحد، هو اهتزاز الوترين، ويرمز له في الإنكليزية برمز الثاء نفسه (Th) وتسمعه في نحو : That .

وثالث اللثويات الظاء. وهو نظير الذال، ويتميز بأنه في أثناء نطقه ترتفع مؤخرة اللسان نحو الطبق فيغدو مفخماً. وقد أدرك سيبويه هذا الفرق فقال : « ولولا الإطباق في

---

(١٦) المصدر السابق ص٨٥ .

(١٧) العين، للخليل ١/٦٥ .

(١٨) شرح المفصل لابن يعيش ١٠/١٢٥ .

(١٩) المصدر السابق ١٠/١٢٥ .

الظاء لكانت ذالاً »[٢٠] . وليس لهذا الصوت مثيل في الإنكليزية . « وقد تحول هذا الصوت في بعض العاميات إلى ضاد مرة ، وإلى زاي مطبقة مرة أخرى . فأما في الكلمات القديمة في عاميتها فقد انقلب إلى ضاد ، مثل ظهر = ضهر »[٢١] .

٩ ـــ الأصوات الشفهية : هي ثلاثة أصوات : الباء والميم والواو المتحركة .

الباء صوت شديد مجهور مرقق . إذا هممت بنطقه فأغلق شفتيك ، وارفع الطبق لتغلق به ما بين الحلق والتجويف الأنفي ، وهز الوترين ، ثم أطلق الهواء الحبيس إطلاقاً انفجارياً . وهذا الصوت يضارع الصوت الإنكليزي المرموز له بالرمز (B) في نحو Boy . وهو في الإنكليزية يعد صوتاً شفوياً Labial وطبقياً Velar وحنجرياً Guttural[٢٢] .

ولهذا الصوت نظير مهموس لا عهد للعربية به ، تسمعه في العبرية وفي اللغات الأوروبية ورمزه في الإنكليزية (P) ، ومثاله الصوت الأول من Pen والأخير من Stop .

والصوت الثاني هو الميم ، وهو صوت أنفي مجهور . في نطقه تنطبق الشفتان انطباقاً تامّاً ، وينخفض الطبق ، فلا يجد الهواء مخرجاً غير الأنف ، فينفلت منه ، ويهز الوترين وهو خارج ، ولهذا يسميه ماريوباي أنفياً Nasal آخذاً بمخرج الهواء ، وشفوياً أنفياً آخذاً بمحبسه ومخرجه معاً[٢٣] . ورمزه في الإنكليزية (M) ومثاله : Maximum .

وثالث الأصوات في هذه الزمرة صوت الواو المتحركة في نحو : (وَصَل) . وهذا الصوت في العربية شفوي مجهور ، وفي الإنكليزية « نصف علة Semivowel ونصف ساكن Semiconsonant »[٢٤] ورمزه فيها (W) ومثاله : (Was) .

١٠ ـــ الأصوات الشفهية الأسنانية : لا تعرف العربية من هذه الأصوات غير صوت الفاء . وهو صوت رخو مهموس مرقق . يُنطق برفع الشفة السفلى حتى تلامس رؤوس الأسنان العليا ملامسة رقيقة ، تسمح بخروج الهواء خروجاً احتكاكياً ، وبرفع مؤخر الطبق لكي يسدّ التجويف الأنفي ، وبإراحة الوترين من الاهتزاز . وشبيهٌ به في الإنكليزية الصوت المرموز له بـ (F) نحو : For . ولهذا الصوت نظير مجهور رمزه (V) ويجتمعُ هذان الصوتان في : Five .

---

(٢٠) الكتاب لسيبويه ٢/٤٠٦ .

(٢١) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص١٨٤ .

(٢٢) أسس علم اللغة ص٨٢ .

(٢٣) أسس علم اللغة ، ماريوباي ص٧٧ ـــ ٧٨ .

(٢٤) المصدر السابق ص٨١ .

ومع أن العربية لا عهد لها بمثل هذا الصوت المجهور ففي العبرية يتحول صوت الباء أحياناً إلى (ڤ = V)، أو يُفرد له صوت ورمز كتابي خاصان به، ويسمى في الأبجدية العبرية (ڤاڤ)[٢٥].

١١ ــ صوت الضاد: أرجأنا الحديث عن هذا الصوت لتفرده، ولم نسمه باسم مخرجه لعجزنا عن تحديد مخرجه القديم. ولهذا آثرنا أن نجعله عنواناً لنفسه إقراراً بمنزلة هذا الصوت في العربية. وهذه المنزلة جعلته عند الأقدمين عنواناً للعربية كلها، فسموها باسمه، فقالوا: لغة الضاد. وليس إقرارنا بذلك ضرباً من المفاخرة، إذ أقر بتفرده برجشتراسر حينما قال: «الضاد العتيقة حرف غريب جداً غير موجود، حسبما أعرف، في لغة من اللغات غير العربية. ولذلك كانوا يكنون عن العرب بالناطقين بالضاد. ويغلب على ظني أن النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب، غير أن للضاد نطقاً قريباً منه جداً عند أهل حضرموت»[٢٦].

وإذا كانت معرفة الصوت بالإصغاء المباشر إلى نطقه القديم مستحيلة في العصر الحاضر، فوصف المخرج ميسور. الخليل ألحقه بالجيم والشين الصوتين الاحتكاكين[٢٧]. وسيبويه قال في صفته: «ومن بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد»[٢٨]. وفيه قال المبرد: «الضاد مخرجها من الشدق، فبعض الناس تجري له في الأيمن، وبعضهم تجري له في الأيسر»[٢٩]. وهذه الأقوال تعني أنه كان صوتاً احتكاكياً رخواً جانبياً. فكيف ينطقه العرب اليوم؟

ينطق العرب الضاد اليوم كما ينطقون الدال، فيخرج صوته شديداً مجهوراً فخماً، ويأتيه التفخيم من ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق عند نطقه، وبذلك التفخيم يفارق الدال.

ولعل صعوبة النطق بالضاد عملت عملها في تغييره، فصار كما نسمعه من أهل القاهرة شبيهاً بالدال (يضحك = يدحك) أو قريباً من التاء (مرفوض = مرفوت)، أو صار كما نسمعه من ألسنة العراقيين شبيهاً بالظاء (ضياء = ظياء). وهذا الخلط بين الضاد والظاء

---

(٢٥) دروس في اللغة العبرية، د. ربحي كمال ص٦٨. جامعة دمشق ١٩٦٠م.

(٢٦) التطور النحوي للغة العربية ص١٨ أخرجه وصححه وعلق عليه د. رمضان عبد التواب القاهرة ١٩٨٢م.

(٢٧) العين، للخليل ١/٦٤.

(٢٨) الكتاب، لسيبويه ٢/٤٠٥.

(٢٩) المقتضب للمبرد ١/١٩٣ تح محمد عبد الخالق عضيمة القاهرة ١٩٦٣م.

قديم، إذ وقعت أمثلة قليلة منه في عصر الراشدين[٣٠]، ثم كثرت هذه الأمثلة، وفشت فاشية الخلط بين الصوتين منذ مطلع القرن الثالث الهجري، حتى أجازه ابن الأعرابي[٣١] [ت: ٢٣١هـ]. ثم استفحل الأمر في أيام الحكم العثماني لعجز الأتراك عن إخراج الضاد (حضرة = حظرة).

وإذا كانت صعوبة النطق بالضاد قد حملت العرب على تغيير مخرجه فاللغة العبرية — شأنها شأن غيرها من الساميات — لم تتجشم صعوبة هذا النطق، واستبدلت بصوت الضاد صوتاً آخر. ولهذا تجد أن الكلمات العبرية المساوية للكلمات العربية الضادية تستبدل بالضاد صاداً في أغلب الأحيان نحو: أرض = إِرِصْ، رضَّ = رَصَصْ، بيضة = بيصا[٣٢].

---

(٣٠) المزهر للسيوطي ٥٦٢/١.

(٣١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٣٣/٣ تح د. إحسان عباس بيروت ١٩٦٨م.

(٣٢) التضاد في ضوء اللغات السامية، د. ربحي كمال ص٢٧.
وللوفاء بحق (الضاد) من الدرس المفصل تراجع المصادر التالية: المدخل إلى علم اللغة د. رمضان عبد التواب ص٦٢. التطور النحوي للغة العربية برجشتراسر ص١٨. دروس في علم أصوات العربية جان كانتينو ص٨٦. الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس ص٤٩.



الفصل الثالث

علم الأصوات الخاص
(أو علم الأصوات التشكيلي PHONOLOGY)

تمهيد

ربما كانت ترجمة المصطلح من لغة إلى لغة أصعب من وضع مصطلح جديد. ومصطلح الفونولوجيا Phonology من النمط الذي تصعب ترجمته بكلمة أو بضع كلمات تدل على معناه في اللسانيات الحديثة.

معناه اللغوي المعجمي: «علم الأصوات الكلامية»[١]، غير أن هذا المعنى أخذ يفارقه، ليحل محله معنى جديد ألصقته به الدراسات اللسانية الحديثة، فغدا عنواناً لعلم صوتي متخصص بدراسة الأصوات في لغة من اللغات ليكشف عن أساليب التركيب والتشكيل فيها. فإذا كانت السمة الأولى لعلم الأصوات العام (التحليل) فالسمة الأولى لهذا العلم (التشكيل). لكن التشكيل ههنا لا بد له من الاعتماد على نتائج التحليل التي توصل إليها علم الأصوات العام الذي درس الأصوات وحدد صفاتها ومخارجها، وقسمها إلى زمر وفق هذه الصفات والمخارج.

وإذا لم يكن بد من عَزْو الفضل إلى ذويه فالقدر الأكبر من الفضل في توضيح هذا المصطلح وفي وضعه، وفي تحديد الموضوعات التي يتضمنها يعود إلى اللغوي الروسي تروتسكوي [ت: ١٩٣٨م] الذي جعل من نتائج التحليل الصوتي بنية حية، تنتظمها مجموعة من العلاقات الناجمة عن أنظمة اللغة المدروسة، لا عن الأنظمة اللغوية الإنسانية بصورة عامة[٢].

---

(١) المورد، منير البعلبكي دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٩م.

(٢) انظر علم اللغة في القرن العشرين. مونان ص٩٧ وما بعدها ترجمة نجيب غزاوي دمشق ١٩٨٢م.

إنْ كنت من الذين يرون أن المصطلح يجب أن يدل على ما وضع له فاعلم أن أتباع هذا المنهج أَوْلى باسم (البنيوية) من بلومفيلد وأتباعه، لأن أتباع البنيوية ينقضون البناء، وأتباع هذا المنهج يشيدونه. إن التحليل وفق المنهج البنيوي ينتقل باللغة من المركب إلى البسيط، ومن الجملة إلى المورفيم. وهذا المنهج ينتقل من الجزء إلى الكل، إذ يبدأ بالفونيم Phoneme والمقطع Syllable وينتهي بالمجموعة النغمية Tone Group ثم ينتقل إلى الجملة الفونولوجية Phonological Sentence. وأهم المسائل التي يعالجها هي: الفونيم، والمقطع، والنبر، والتنغيم، وقواعد التشكيل الصوتي.

أولاً ـــ الفونيم Phoneme

الفونيم مصطلح لساني حديث نقله الباحثون العرب إلى لغتنا بأكثر من صورة فقالوا: هو صوت، وصوتم، وصوتون، وصويتم ... إلخ. وشفع كل باحث ترجمته للكلمة بمسوغات لغوية ومعنوية. ولما كان اختيار واحد من هذه الألفاظ يضعنا في أنظار الألفاظ الأخرى موضع اللبس واللمز فقد آثرنا أن نستعمل المصطلح الأجنبي، ونترك لغيرنا الجرأة على المفاضلة والاختيار.

الفونيم لغةً إحدى وحدات الكلام الصغرى[٣]، واصطلاحاً هو أصغر وحدة صوتية يمكن عن طريقها التفريق بين المعاني[٤]. فإذا أسقطت القيد الأخير من التعريف الاصطلاحي، وهو (التفريق بين المعاني) أمكنك أن تحطم الفونيم لتصل إلى ما هو أصغر منه أو أبسط، وهو الألوفون Allophone. وكما حلل علماء الفيزياء النووية الذرة، فوجدوا فيها كهارب موجبة، وأخرى سالبة، وثالثة تخلو من الإيجاب والسلب فقد وجد علماء اللغة أن الفونيم يتضمن عنصراً خالياً من السلب والإيجاب، ولا أثر له في تحديد المعنى فسموه الألوفون.

ولتوضيح معنى الفونيم نستعين علمي الدلالة والتجويد، وعلم الأصوات. فنقول: إن النون واللام والقاف في: نام، ولام، وقام، فونيم مستقل، لأن هذه الأصوات تحدد معاني الألفاظ حينما تتصل بما بعدها. غير أن فونيم النون قد يتغير نطقه في مجموعة من الألفاظ والجمل، ويبقى فونيماً واحداً.

---

(٣) المورد، منير البعلبكي ص٦٨٢.

(٤) معجم علم اللغة النظري، محمد علي الخولي ص٢٠٩ مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٢م.

فأنت تدغم النون في نحو : إنْ نام ، وتخفيها في نحو من شاء ، وتغنّها في نحو : لن يفعل ، ومع أن علم التجويد يميز بين هذه الصور يبقى صوت النون فونيماً واحداً ، ولكنه يضيف إليه صوراً أخرى ، منها الصوت اللهوي المفخم في نحو : ينقم ، والغاري المكرور في نحو : إن رحلت ، والطبقي في نحو : ينكث . ويقول علم الأصوات : إن النون على اختلاف مخارجها في هذه الصور المتعددة فونيم واحد ، وهي في الوقت نفسه ألوفونات متعددة .

وتمييز الألوفون من الفونيم نلاحظ أن صوت الثاء في : ثالث فونيم . أما تغير النطق الذي أصاب هذا الفونيم في اللهجات العامية ، فجعله تاء أو سيناً (تالت ، سالس) فإنه لم يحوله إلى فونيمين جديدين ، بل ولّد منه ألوفونين آخرين . فالثاء فونيم ، وكل صوت ينجم عنه بعوامل التغير اللهجي ألوفون . ولا يعني هذا أن الألوفون لا ينجم إلا عن التغير اللهجي، فإن كل صورة لفظية يتجلى فيها الفونيم على نحو مغاير للأصل يعد ألوفوناً له ، كصور النون التي عرضناها قبلُ . وإذا كنت في الثاء مختاراً تنطقها سيناً أو تاء محاكاة للعامية المتبعة في مجتمعك فإن لبعض الألوفونات سمة الجبر كالنونات اللهوية والغارية والطبقية . ويأتي الجبر من تجاور الأصوات ، فإن تجاورها يحدد طريقة النطق(٥) .

ولم يجمع الباحثون العرب على جعل الفونيم أساساً للتحليل اللغوي الصوتي ، إذ فضل بعضهم العدول عنه إلى الحرف ، فقال : « في إمكاننا نحن أن نطلق عليه اسم (حرف) مقصوداً به الرمز الكتابي ، ونعمل بذلك على التفريق بين الاصطلاحين : صوت ، وحرف . فالصوت هو ذلك الذي نسمعه ونحسه . أما الحرف فهو الرمز الكتابي الذي يتخذ وسيلة متطورة للتعبير عن صوت معين أو مجموعة من الأصوات ، لا يؤدي تبادلها في الكلمة إلى اختلاف في المعنى »(٦) .

وتقبله آخرون ، ورأوا أن له فوائد عملية جمة ، أبرزها أنه يُعين الكاتب والقارىء على دقة التواصل ، إذ يساعد على جعل الكتابة والقراءة في غاية الإتقان بما يضيفه من رموز ألوفونية إلى المورفيمات المرسومة . وبذلك نتجنب مزالق السقوط في النطق غير الصحيح . وفي أواخر سنة ١٩٩٦م ظهرت مصاحف ، اتبع طابعوها أسلوباً يشبه هذا الأسلوب لمساعدة القراء المبتدئين على إتقان أحكام التجويد من إظهار وإخفاء وقلقلة ومدّ ، غير أن القرّاء المجوّدين لم يجدوا فيها ما يغني عن التلقي والمشافهة ، لأن الأصل في قراءة القرآن السماع .

---

(٥) انظر الأصول ، د . تمام حسان ص١١٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م .

(٦) المدخل إلى علم اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص٨٣ — ٨٤ .

ثانياً ــ المقطع Syllable

من الفونيم ينتقل التشكيليون إلى المقطع. والمقطع « مجموعة من الأصوات المفردة، تتألف من صوت طليق (صائت) معه صوت حبيس (صامت) أو أكثر »[٧]. ولتمييز المقطع من الفونيم يستطيع القارىء أن يفحص نسيج الكلام العربي، فيرى أنه لا يمكن أن يكون كله من أصوات حبيسة صامتة فحسب، ولا من أصوات طليقة فحسب. فليس في كلامنا نحو: (بْتْشْجْ، جْحْخْذْ) ولا نحو (أوْيْ) لاستحالة نطقها[٨].

إن المستعمل من الكلام تتعاقب فيه الأصواتُ الصائتة والصامتة أي: الطليقة والحبيسة، فيتألف حينئذ من مقاطع مثل: عودي، ففي هذه الكلمة مقطعان: أولهما (عو)، ويتألف من (ع) الحبيس و (و) الطليق، والثاني (دي)، ويتألف من (د) الحبيس، و (ي) الطليق.

ولما كان الصائت أوضح في السمع من الصامت، فقد جُعلت الصوائت قمة الوضوح السمعي في بنية المقاطع، وأحلت الصوامت مكانة ثانوية[٩]. واستثنى بعض الباحثين أربعة الصوامت التالية (ل، ن، م، ر) فجعلها في مرتبة متوسطة. وصنف بعض الباحثين الغربيين الأصوات كلها وفق وضوحها في السمع، فجعلها ثمانية أقسام. أخفتها أو أخفاها المهموسة مثل (T, S, F) وأقواها الصوائت مثل (A, O, E)[١٠].

ويفضي بنا استقراء الكلام العربي إلى أنه ينطوي على خمسة أضرب من المقاطع، نصل إليها من تحليل الجملة التالية: دنا من بابْ قصْرْ. على النحو التالي [ح: رمز الحبيس، ط: رمز الطليق]:

١ ــ ٢ دنا   دَ = ح + ط قصير   واسم هذا المقطع قصير مفتوح.
     نا = ح + ط طويل   اسمه متوسط مفتوح.
٣ ــ من   = ح + ط قصير   اسمه متوسط مغلق.
٤ ــ بابْ   = ح + ط طويل + ح   اسمه طويل مغلق.
٥ ــ قصْرْ   = ح + ط قصير + ح + ح اسمه طويل مضاعف الإغلاق.

---

(٧) الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي ص٢٥٤.

(٨) الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي ص٢٥٤.

(٩) انظر الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس ص١٦١ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧١م.

(١٠) هذا التصنيف من صنعة جسبرسن Jespersen [ت: ١٩٤٣م] انظر دراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر ص٢٤٤ عالم الكتب القاهرة ١٩٧٦م.

والمقاطع الثلاثة الأولى كثيرة الشيوع، والرابع قليل، والخامس لا تظفر به إلا في الوقف[١١].

وإذا كان التشكيليون قد تبنوا المقطع، وجعلوه وسيلة من وسائل التحليل والتشكيل، فإنه ليس ظاهرة مبتكرة ابتدعوها. «فالأكاديون كانوا يرمزون إلى كل أصوات المقطع الواحد برمز واحد في كتابتهم المسمارية»[١٢]. فلما تهدّوا إلى الأبجدية أقلعوا عن الرسم المقطعي. وعلماؤنا العرب أدركوا قبل الغربيين بعشرة قرون على الأقل بنية المقطع الصوتي، ومازوه من الحرف. ألمَّ به أبو النصر محمد الفارابي [ت: ٣٣٩هـ]، ثم جاء أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد [ت: ٥٩٥هـ] فكان أوضح ممن سبقه فهماً وإفهاماً للمقطع الصوتي، وجاوز الإدراك إلى الابتكار إذ وضع له المصطلح الدال عليه وهو المقطع[١٣].

ثالثاً ــ النبر Stress

تتصل بالمقطع ظاهرة صوتية أخرى يسميها علم الصوت التشكيلي (النبر). ويعرَّف النبر بأنه «نشاط فجائي يعتري أعضاء النطق في أثناء التلفظ بمقطع من مقاطع الكلمة»[١٤] ينجم عنه وضوح في الأداء.

وهذا النشاط العضوي يمكن تعقبه من الحجاب الحاجز إلى الشفتين. فالحجاب يضغط الرئتين ليقذف من هوائهما مقداراً أعظم مما يقذفه في نطق المقاطع الأخرى. فإذا بلغت الدفقة الهوائية الوترين، وكان الصوت مجهوراً قوي اهتزازُهما، وإذا كان مهموساً تباعد الوتران أكثر مما هو مألوف، وحدث انفجار أو احتكاك أشدُّ من المعهود. وتستطيع أن تلاحظ هذا النشاط إذا راقبت الأعضاء المساعدة على النطق بلْهَ الناطقة[١٥].

وإذا كان النبر لا يؤثر في تغيير معاني الألفاظ العربية فهو في بعض اللغات الأجنبية عامل من عوامل التغيير المعنوي. إن تغيير موضع النبر في الكلمة الإنكليزية قد ينقلها من زمرة

---

(١١) انظر الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس ص١٦٥.

(١٢) الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي ص٢٥٦.

(١٣) انظر التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدي ص٢٦٠ وما بعدها تونس ١٩٨١م.

(١٥) انظر الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس ص١٧٠.

الأسماء إلى زمرة الأفعال ، فإذا قصرت صوت (o) من كلمة Report كانت اسماً بمعنى تقرير ، وإن أطلته أصبحت فعلاً بمعنى يقدم تقريراً[١٦] ، ولذلك يعد النبر في هذه اللغة وأمثالها فونيماً دلاليّاً هاماً .

وليس في الدراسات العربية اللغوية ـــ على غناها ـــ ما يدل بصورة قاطعة على أن علماءنا الأقدمين درسوا النبر ، أو حمّلوه شيئاً من الدلالة المعنوية ، لكننا لا نستبعد أن تكون قراءة القرآن الكريم قد نظرت إليه بعين العناية من الناحية الصوتية ، وإن لم ينظر إليه النحاة والصرفيون بعين المعنى . ولهذا فمن الإسراف أو الإجحاف أن يقول بعض المستشرقين : « نبر الكلمة فكرة مجهولة تماماً لدى النحاة العرب ، بل لن نجد له اسماً في سائر مصطلحاتهم »[١٧] .

وأياً كان موقف المستشرقين من النبر في اللغة العربية ، فالثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره أن قراءة القرآن توزع النبر على الألفاظ تبعاً لعدد المقاطع في كل لفظ . فاللفظ الأحادي المقطع (قُلْ) منبور بلا خلاف ، والثنائي المقطع (سيرا) ينبر مقطعه الأول ، والثلاثي المقاطع (تعالى) ينبر مقطعه الأوسط[١٨] . ولو أقيمت دراسة النبر على قواعد يجمع عليها الباحثون العرب لأوغلنا في دراسة النَبر ، وحددنا نبر الألفاظ المختلفة المقاطع ، لكن قواعدهم لما تزلْ تقريبية لا قطعية ، ولذلك اجتزأنا باليسير المغني عن الكثير .

رابعاً ـــ التنغيم Intonation

إذا انتقلت من النبر الذي يعرو بعض الكلمة لتصغي إلى إيقاع الكلمات المنسوقة في عبارة تامة ، وأحسست أن تناغماً خاصاً ينتظمها ، فقد وقفت على ما تسميه الصوتيات الحديثة (التنغيم) . وجوهر التنغيم أن يعطي المتكلم العبارة نغمات معينة ، تنجم نفسياً عن عاطفة يحسُّها ، وفكرياً عن معنى يعتلج في ذهنه ، وعضوياً عن تغير في عدد الهزات التي تسري في وتري الحنجرة ، فيزيد الاهتزاز أو ينقص وفق الغرض الذي يتوجه إليه الكلام .

ولقد رأى محمد الأنطاكي ، كما رأى أكثر الدارسين المحدثين ، أن الإيقاع في العربية

---

(١٦) المورد ، منير البعلبكي ، وغيره من المعاجم التي تعنى بالنطق والنبر .

(١٧) العربية الفصحى ، هنري فليش ص٤٩ تعريب د . عبد الصبور شاهين بيروت ١٩٨٣م .

(١٨) درج الباحثون على العدّ المعكوس ، أي : على البدء من اليسار فالأول عندهم من تعالى (لى) ، والثاني (عا) ، والثالث (ت) . وآثرنا العدّ من اليمين إلى اليسار لئلا نربك القارىء .

« من الجوانب التي لا تزال تنتظر من يقوم بدراستها دراسة جدية معتمدة على استقراء واسع للنصوص العربية »[١٩] . وذهب غيره المذهب نفسه حين لاحظ أن التنغيم لم يحظ من أجدادنا بالبحث المستفيض[٢٠] . وخالفهما بعض المخالفة أستاذنا سعيد الأفغاني رحمه الله ، إذ وقع على نصّ في الخصائص يدل على أن ابن جني [ت : ٣٩٢هـ] كان يدرك تأثير التنغيم في تحوير العبارة الواحدة من معنى إلى معنى ، أو من أسلوب إلى أسلوب ، كأن ينقل العبارة من التعجب إلى الاستفهام ، قال : « ترد الجملة عن العرب ، فيجعلها بعضهم تقريراً ، وبعضهم استفهاماً حذفت أداته ، وبعضهم استفهاماً أريد به الإنكار والتهكم ... ولو ورد مع النص حال المتكلم لانقطع الخلاف . وما أظنه يريد بحال المتكلم إلا طريقة التنغيم وأسلوب الأداء »[٢١] .

وإن أردت أن تسوّغ صنيع القدماء فقل : إنهم لم يغفلوا عن التنغيم ، بل عقلوه وأغفلوه ، أو لم يولوه حقه من العناية ، كأنهم كانوا يعتقدون أنه مما يُدرك بالحسّ ، وما يُدرك بالحسّ لا يحتاج إلى درس .

ومثل هذا التسويغ يبدو مرفوضاً في نظر المحدثين ، لأن معظم اللغات تنغيمية ، للتنغيم فيها وظائف نحوية : فنغمة تعني التوكيد ، وأخرى ترمي إلى التهديد ، وثالثة تُفصح عن التعجب ، ورابعة تستفهم . هذه الأغراض كلها موصولة النسب بالصعود والانخفاض في النغم واللين والاشتداد .

ومن أكثر الباحثين المحدثين احتفالاً بالتنغيم الدكتور تمام حسان الذي دعا إلى دراسة التنغيم ضمن الأُطر الأربعة التالية : شكل النغمة صعوداً أو هبوطاً أو استواء ، والمدى الفاصل بين أعلى النغمات وأدناها ، واللحن الناجم عن مجموع النغمات ، والميزان الذي هو محصلة المدى واللحن . وحينما درس تنغيم العربية ضمن هذه الأُطر وصل إلى أن في الكلام العربي ستة موازين يضبط بها التنغيم :

أولها إيجابي هابط ، يتجلى في تأكيد الإثبات ، وتأكيد الاستفهام بغير هل والهمزة .

وثانيها إيجابي صاعد ، يتمثل في تأكيد الاستفهام بالهمزة وهل .

وثالثها نسبي هابط يتبدى في الإثبات بلا تأكيد .

ورابعها نسبي صاعد ، تلحظه في الاستفهام بغير أداة ، أو بالهمزة وهل .

---

(١٩) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص٢٦٨ .

(٢٠) التفكير اللساني ، د . عبد السلام المسدي ص٢٦٦ .

(٢١) في أصول النحو ، سعيد الأفغاني ص٩٣ ـــ ٩٤ .

والخامس سلبي هابط ، ويستعمل في التأسف والإشفاق وإلقاء التحية .

والسادس سلبي صاعد ، يتردد صداه في التمني واللوم والرجاء[٢٢] .

ونحن ، على إعجابنا ، باستقصاء الباحث ودقته في الاستقراء والاستنباط نتساءل : ألا يمكن أن تكون هذه الموازين متأثرة بطريقة من طرق الأداء؟ صحيح أن الفروق التنغيمية في الأداء تتجلى في اللهجات العامية المتعددة ، لا في الفصحى الموحدة ، غير أننا لا نعتقد أن فصحى عُمان تؤدى بتنغيم وهران ، وأن لحون الحسرات والحزن في الأداء السوري للفصحى كلحونها في الفصحى الليبية . ولهذا نُعتت هذه الموازين نعوتاً متفاوتة ، فقيل : إنها ابتدائية محدودة[٢٣] ، وقيل : إنها رائدة مبتكرة[٢٤] .

خامساً ــ النسج اللغوية وأنظمة التشكيل الصوتي

لا يقف علم الأصوات التشكيلي عند مرحلة التحليل ، بل يجاوزها إلى التشكيل . فبعد أن يدرس الفونيمات والمقاطع ، ويتعرف النبر والتنغيم يحاول الكشف عن النظم التي تتبعها كل لغة في نسج الكلام من الأصوات . ومن المعروف أن اللغة لا تعيش على ألسن الناس عناصر صوتية مبعثرة ، بل كلاماً حيّاً ، تأتلف عناصره في كل لغة من اللغات وفق نواميسها الصوتية الخاصة بها . فما ائتلف من العناصر الصوتية أُخذ ، وما اختلف نُبذ ، والمأخوذ تتشكل منه نسج الألفاظ ، والمنبوذ يبقى أمشاجاً مقطعة غير مستعملة ، كما تُلقى نكاثة الخيوط غير الصالحة للنسج .

ولا يفهمن من توفر الغربيين على دراسة علم الأصوات التشكيلي أن قدماءنا غفلوا عن هذا العلم أو هوّنوا من شأنه . لقد درسوا جوانب هامة منه ، غير أن دراستهم افتقرت إلى الوسائل العلمية الإحصائية ، وعلى رأسها الحيسوب (الكمبيوتر) . ولذلك تمخضت دراستهم عن نتائج تعوزها الدقة لا الصحة . وأبرز موضوعاتهم : كثرة أصوات ٍ وندرة أخرى في نسج الكلمات ، وتنافر الأصوات وتجاورها ، وأنظمة النسج وفق المخارج .

آ ــ **أكثر الأصوات وأقلها في نسج الكلمات** : حينما بسط الخليل بن أحمد [ت : ١٧٥هـ] بين يديه نسيج العربية ليصنع منه معجم العين تبين له أن الأصوات ــ

---

(٢٢) مناهج البحث ، د . تمام حسان ص١٩٨ وما بعدها .

(٢٣) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص٢٥٣ .

(٢٤) مبادىء اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص١٢٣ .

وهي لحمة اللغة وسداها — ليست سواء في مقدار ما يدخل منها في هذا النسيج، إذ يندر بعضها فلا يخالط إلا ألفاظاً يسيرة، ويكثر بعضها حتى يخالط أكثر الألفاظ. وبعد مقارنة أكثرها شيوعاً بأقلها ظهر أن أشيعها أصوات الذلاقة، وهي عند الخليل (ل، ن، ر، ف، ب، م). وأن ما بقي من الأصوات — واسمها عنده على اختلاف مخارجها الحروف الصتم أو حروف الإصمات — أقلّ تداولاً واستعمالاً[٢٥].

ومع أن تقسيم الخليل غير دقيق فقد وافقه عليه بعض المشتغلين بقراءة القرآن، فذكر أن المصمتة اثنان وعشرون وأن المذلقة هي الستة التي ذكرها الخليل[٢٦]. وإذا التمسنا للخليل تأويلاً يسوّغ ما ذهب إليه قلنا: إن الخليل — وهو من أعلم الناس بالأصوات — لا يجهل أن الأصوات الذلقية التي ذكرها تشتمل على ثلاثة شفوية، وهي: الفاء والباء والميم، ولكنه لم يرد بالذلاقة خروج الصوت من أسلة اللسان أو ذلقه، وإنما أراد بالذلاقة الرشاقة والطلاقة في النطق. فهذه الأصوات الستة أيسر نطقاً من أصوات الحلق، وأصوات الطبق. وإذا احتكمنا إلى القواعد الصوتية في لغات العالم كافة قلنا: إن أشيع الأصوات أيسرها نطقاً، ولذلك شاعت هذه الأصوات، وخمدت أصوات أخرى كالثاء والظاء والخاء والذال، أو أصابها، في اللهجات العامية على الأقل، تغيير يزحف بمخارجها نحو السهولة.

وإذا احتكمنا إلى القواعد الصوتية نفسها وأخذنا بإيثار السهولة على الصعوبة صدقنا النتيجة التي خرج بها الخليل، وهي أن الألفاظ الرباعية والخماسية مثل خرنق وسفرجل لا تخلو أبنيتها من صوت أو أكثر من أصوات الذلاقة، لأن هذه الأصوات كالراء والنون في خرنق، والراء واللام في سفرجل تيسر العسير وتخفف ثقل الأصوات الأخرى كالخاء والقاف والجيم، ولهذا يندر خلو الألفاظ الرباعية والخماسية من رشاقة هذه الأصوات.

لقد صدق حسّ الخليل، وبرهنت على صدقه نتائج الدراسات الإحصائية التي أجراها الحيسوب إذ أثبتت أن لأصوات الذلاقة السيادة في نسيج الألفاظ العربية، تليها العين والقاف[٢٧].

وهذه النتائج ليست في حاجة إلى حيسوب. فلو استعرضت لسان العرب في طبعته

---

(٢٥) انظر مقدمة معجم العين للخليل.

(٢٦) انظر الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي بن أبي طالب ص١١١ تح أحمد حسن فرحات دار الكتب العربية دمشق ١٩٧٣م.

(٢٧) انظر مبادىء اللسانيات، د. أحمد محمد قدور ص١٢٩.

الحديثة[٢٨] لوجدت أن للألفاظ التي تنتهي أصولها بصوت الراء مجلداً ونصف مجلد . وقريبٌ منها الألفاظ التي تنتهي أصولها بالميم والقاف ، فللمنتهيات بالميم مجلد كامل ، وللمنتهيات بالقاف مجلد آخر . فإذا نظرت في الألفاظ الأخرى التي تنتهي بالصاد والضاد والطاء والظاء وجدتها جميعاً في مجلد واحد . ولك في ديوان المتنبي ــ وهو أربعة مجلدات ــ دليل آخر : فالمجلد الثالث كله مخصص لقوافي الشاعر اللامية الروي ، وأربعة أخماس الرابع لما نظمه على الميم والنون .

وهكذا يتبيّن لك أن الأصوات التي سماها الخليل أحرف الذلاقة هي أشيع الأصوات العربية في أبنية الألفاظ العربية .

ب ــ الأصوات المتآخية والمتعادية في النسيج المقطعي : في كلامنا على المقاطع العربية تبين لك أنه يستحيل صنع الألفاظ من أصوات كلها صامتة ، فلا يقال نحو (زْزْشْشْ) أو من أصوات كلها صائتة نحو (أْ يْ وْ) . فلا بد إذن من تناوب هذه وتلك . أدرك علماؤنا هذه القاعدة الصوتية بالحسّ السليم ، وأدركوا كذلك أنه يتعذّر أو يقبح صنعُ المقاطع من أصوات متقاربة المخارج ، لأن اللسان يستصعب التنقل بين المخارج المتقاربة كالسين والصاد ، والقاف والكاف . قال ابن جني [ت : ٣٩٢هـ] : « فمن ذلك ما رفض استعمالُه لتقارب حروفه (أصواته) نحو : سص وصس . وطت وتط ، وصش وشص ، لنفور الحس منه ، والمشقة على النفس لتكلفه . وكذلك قج وجق ، وكق وقك »[٢٩] .

نستطيع أن نخلص من كلام ابن جني إلى نظام في النسج أو قاعدة تقول : إذا تقاربت الأصوات أو اتحدت في المخارج تعثكلت ، فلم تنسج منها المقاطع . وإذا اختلفت مخارجها ائتلفت فنسجت منها المقاطع والكلمات ، فأنت تستقبح أن تقول سص ، أو عح لأن مخرجي الأول اللثة والأسنان ، ولأن مخرجي الثاني الحلق . لكنك إذا أخذت صوتاً من اللثة وآخر من الحلق وجدت في نطقهما معاً راحة ، فتقول بلا عنت ولا مشقة : صح ، عس .

وتطبيقاً لهذه القاعدة الصوتية رأى علماء البلاغة أن من شروط الفصاحة في الكلمة أن تتباعد مخارج الأصوات التي تشكلها . فليس من الفصاحة إذن أن يقول امرؤ القيس في شعر صاحبته : (غدائرها مستشزرات)[٣٠] ، أو أن يقول أعرابي سئل عن ناقته : « تركتها

---

(٢٨) الطبعة التي أشرنا إليها هي طبعة صادر اللبنانية ، ولسان العرب موزع فيها على خمسة عشر مجلداً .

(٢٩) الخصائص لابن جني ١/٥٤ .

(٣٠) من بيت امرىء القيس :

غدائرهـا مستشزرات إلى العـلا ... تضل العقـاص في مثنـى ومـرسل

ديوانه ص٤٤ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٦م .

ترعى الهعخع »[٣١] .

ومن هذا الباب أيضاً أن الخليل استبعد من تقاليبه التي بنى عليها المعجم ما لم تقله العرب، وأكثره من هذا النمط المتقارب أو المتراكب المخارج . فقد استبعد في أول العين أربعة الألفاظ التالية (قهع ، قعه ، عقه ، هعق) ، لأن الحنجرة العربية والأذن العربية كلتيهما لا تسيغانها نطقاً ووقعاً .

ومنه كذلك الموازين التي احتكم إليها أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي [ت : ٥٤٠هـ] في تمييزه الأصيل من الدخيل . وهي موازين مستنبطة من التشكيل الصوتي اللغوي لكلام العرب ، إذ أفضى به الاستقراء إلى أنه لا يجتمع في أصول كلمة عربية صوتا الجيم والقاف ، وصوتا الصاد والجيم ، وأنه ليس في أبنية العرب راء بعد نون ، وزاي بعد دال . فأما الجص والصنجة والنرجس والمهندز فمن الدخيل المعرّب[٣٢] .

ج ـ أنظمة النسج وفق المخارج : من دراسة الأصوات والمقاطع ينتقل علم الأصوات التشكيلي إلى أبنية الألفاظ بغية الكشف عن الطرائق المتبعة في نسجها ، وعن صلة هذه الطرائق أو الأنظمة بمخارج الأصوات . ولما كانت المخارج العربية أقرب إلى أسماعنا فقد قصرنا الحديث على الأصوات العربية ، وأنظمة النسج في ألفاظها .

من المتقدمين الذين عُنوا بنسج الألفاظ وفق المخارج بهاء الدين أحمد بن علي السبكي [ت : ٧٦٣هـ] فقد قسم مخارج الحروف في مدرجها ثلاثة أقسام : أعلاها الحلق ، وأوسطها الفم ، وأدناها الشفتان . ولعله اختار أن يجعلها ثلاثة لا أربعة ولا اثنين ليكون تقسيم المدرج الصوتي موازياً للجذور الثلاثية في أكثر الألفاظ العربية . ثم راح يضرب أصول الألفاظ الثلاثية على أقسام المدرج الثلاثة ، فوجد على سبيل المثال أن الفعل (بَعُدَ) تتعاقب أصواته وهي الباء الشفوية ، والعين الحلقية ، والدال الخارجة من الفم على النحو التالي : الأدنى فالأعلى فالأوسط . فلما قلب هذه الجذور فقال : بدع ، عبد ، دعب ... توصل إلى أشكال عديدة من النسج .

ثم قاس السبكي هذه الأشكال بمقياس إحصائي ، وهو مقياس الكثرة والقلة ، وذهب إلى أن أفصح الأشكال أكثرها شيوعاً في الكلام العربي ، وأبعدها عن الفصاحة أقلُّها أفراداً ، فقال : «أحسن التراكيب وأكثرها استعمالاً ما انحدر فيه من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى ،

---

(٣١) المزهر للسيوطي ١/١٨٥ .

(٣٢) المعرب للجواليقي ص ١٠٠ تح د . ف عبد الرحيم دار القلم دمشق ١٩٩٠م .

ثم ما انتقل فيه من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى ، ثم من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط »(٣٣) . ومثال الشكل الأول : (عدم) ، ومثال الثاني (دمع) ، ومثال الثالث (عمد) .

وبعد مقارنة هذه الأشكال بما يقابلها من دراسات إحصائية تبين « أن هناك تطابقاً بين استحسان السبكي للشكل الأول وورود هذا الشكل أولاً في الإحصاءات »(٣٤) أما الأشكال الأخرى التي استحسنها السبكي أو استقبحها فقد جاءت نتائجها مقاربة لنتائج الإحصاء الحديث . ومن المتوقع أن يقع الاختلاف ، فالسبكي يدرس بالحس والتخمين ، والمحدثون يدرسون بالحيسوب . غير أن الاختلاف في النتائج لا يقلل من قيمة السبكي وأمثاله ، لأن المنهج الذي انتهجه السبكي منهج علمي . وحسبه أن يوفق في المبدأ ، وإن لم يوفق في النتيجة لافتقاره إلى الوسائل الإحصائية الدقيقة .

خاتمة البحث في الجانب الصوتي :

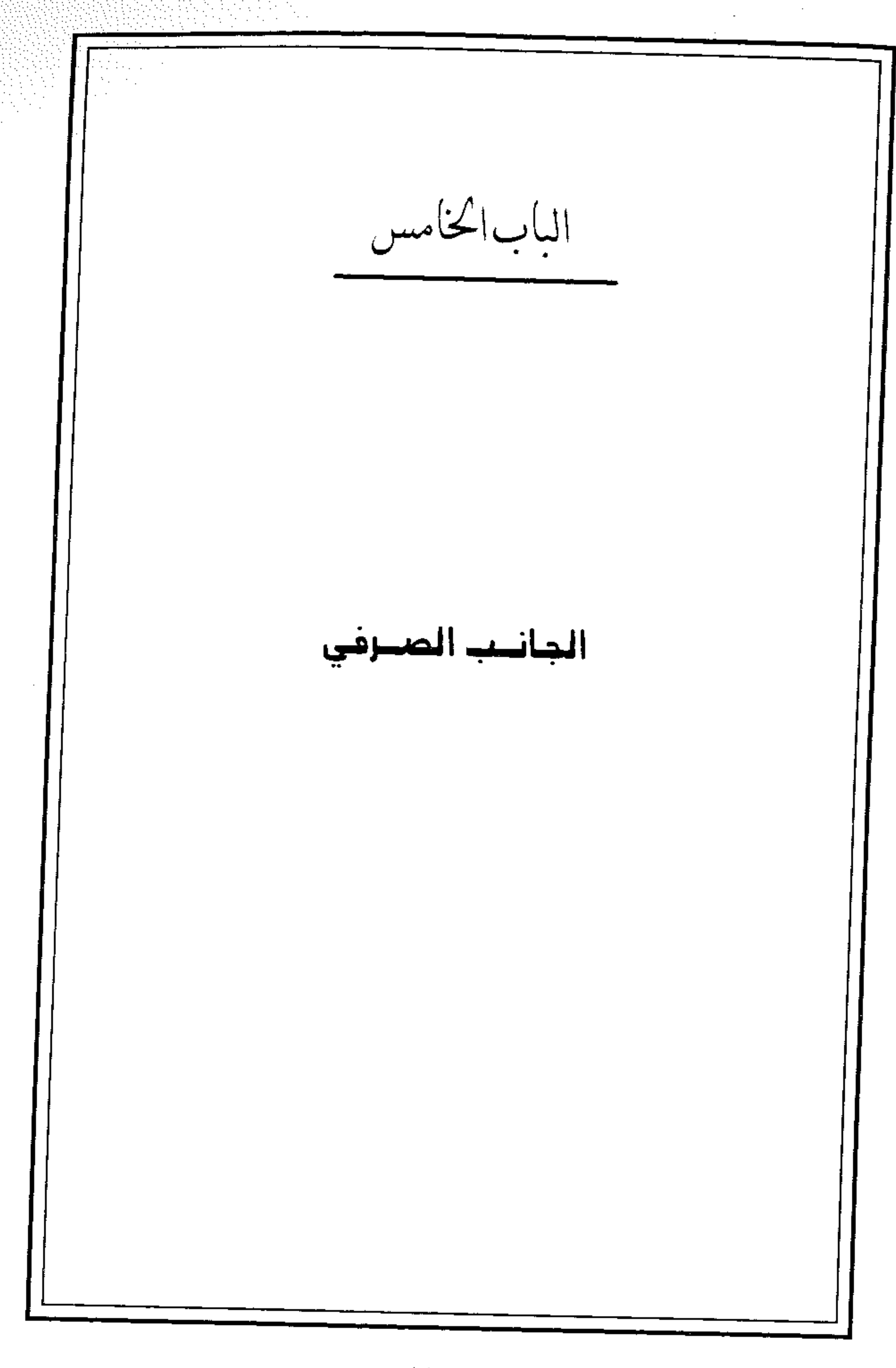
بعد أن وقفت على تاريخ الدراسات الصوتية ومناهجها ومباحثها عند الهنود واليونان ، ثم عند العرب ، ثم على تطورها عند الغربيين في العصر الحديث تستطيع أن توازن ما أنجزه العرب في الجانب الصوتي بما أنجزه الغرب . وسوف يتبين لك مدى التقدم الذي أحرزه العرب في المناهج والنتائج على السواء .

فاتباعهم المنهج الوصفي نزع الدراسات اللغوية من إسار الفلسفة والمنطق ، وطبع دراستهم بالطابع العلمي .ودراستُهم لأعضاء النطق ومخارج الأصوات عرَّفتهم طبيعة الأصوات ، وهي العناصر الصغرى التي تتألف منها اللغة . وإلمامهم بالمقاطع والتنغيم وبائتلاف الأصوات واختلافها مكنهم من الإحاطة بكثير من المسائل التي عالجها علم الأصوات التشكيلي ، فأفادوا من دراسة المخارج في دراسة الأنظمة التي تنسج الألفاظ على منوالها ، واستطاعوا أن يميزوا جميلها من القبيح على أساس الكثرة والقلة والاستعمال والإهمال ، وهو الأساس المتبع في الإحصاء الحديث . وقاربت أحكامهم المبنية على الحدس الصادق والتخمين الراجح الدراساتِ الحديثة ، وما فيها من دقة مشفوعة الأحكام بالأرقام .

---

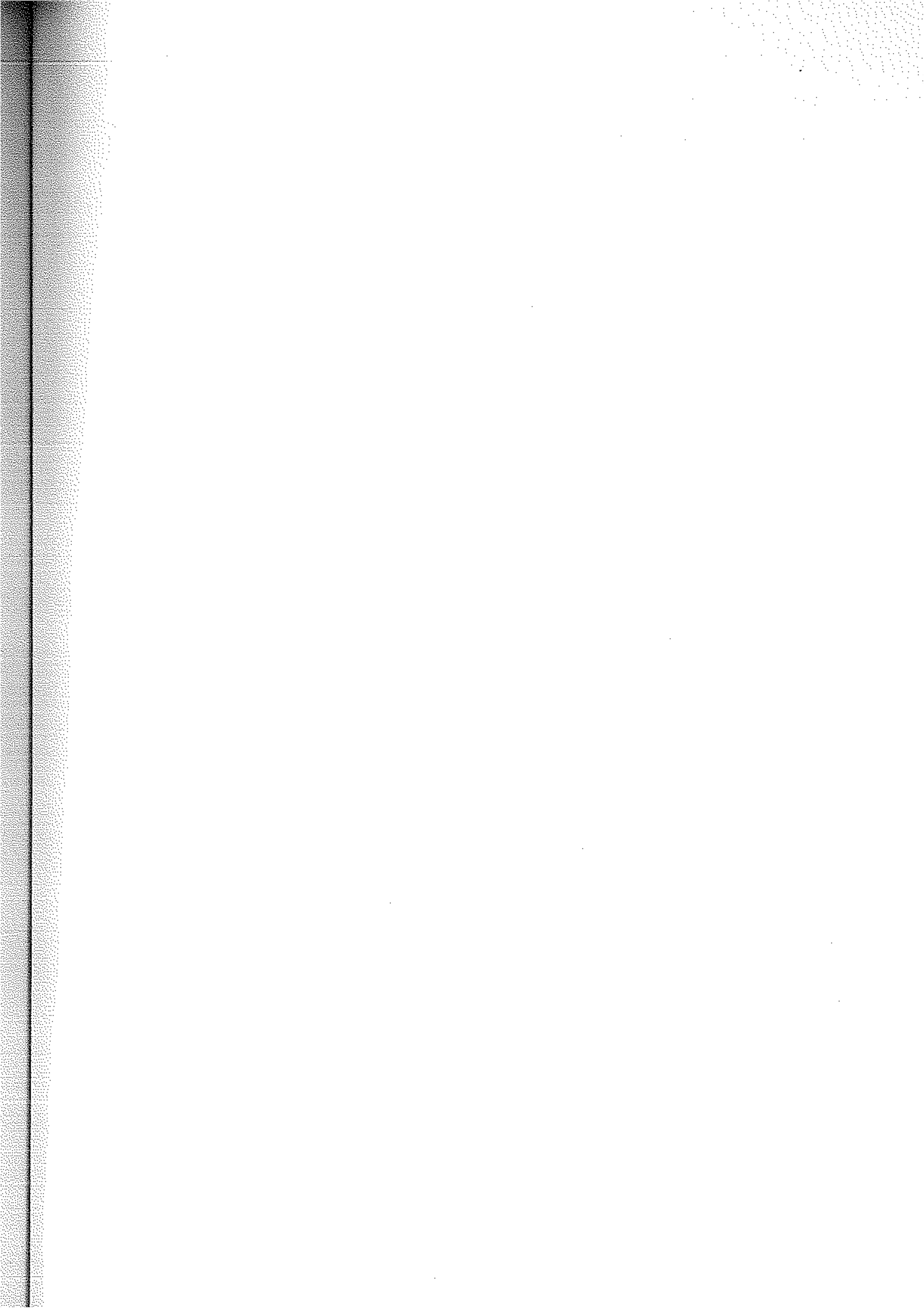
(٣٣) المزهر للسيوطي ١/١٩٧ ـــ ١٩٨ .

(٣٤) مبادىء اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص١٢٧ .



الباب الخامس

الجانب الصرفي



الفصل الأول

الجانب الصرفي
في الدراسات اللغوية

أولاً ــ مقدمة ومصطلحات

إذا كانت الدراسات الصوتية التي عرضنا أهم مباحثها قد عرّفت علماء اللغة العناصر الصغيرة التي تتألف منها اللغة فإن هذه المعرفة لم تكن مقصودة لذاتها، بل كانت وسيلة لغيرها، لأنها نثرت بين أيدينا أصوات اللغة ومقاطعها ذرات مفككة، ولم تعرضها علينا ألفاظاً مركبة ذوات صيغ تنتظمها، كالأبنية التي يعرضها علينا ما يسميه الأقدمون علم الصرف، وما يسميه المحدثون المورفولوجيا Morphology. ولم تعرضها جملاً مؤلفة وفق قوانين تبين صلة بعضها ببعض مما يسميه الأقدمون علم النحو، ويسميه المحدثون الغربيون Syntax.

ولهذا لم يكن بد من عقد بابين آخرين لإكمال ما بدأنا به: باب ندرس فيه بنى الألفاظ كما يُعِدُّ البنَّاءُ الحجارة ويسوِّيها، وباب ندرس فيه ترابط الألفاظ كما يدرس المهندس الصرح المشيد ليكتشف الأسس العلمية والفنية التي اعتمد عليها مصممُ الصرح وبانيه. وقبل أن نلج الباب الأول نعرض المصطلحات التي تواضع العلماء على استعمالها في علم المورفولوجيا، وأهمها:

١ ــ **المورفولوجيا**: هو علم يتناول الناحية الشكلية للصيغ وعلاقتها التصريفية والاشتقاقية، وما يتصل بصوغها من إضافة ملحقات في أولها، وتسمى صدوراً، وفي أثنائها، وتسمى أحشاء، وفي آخرها، وتسمى أعجازاً. ويقابل المورفولوجيا في العربية علم الصرف(١)، وهو «علم بأصول، يعرف بها أحوال أبنية الكلمة التي ليست بإعراب»(٢).

---

(١) علم اللغة وفقه اللغة، د. عبد العزيز مطر ص٦٣.

(٢) التعريفات للجرجاني ص٣٢ الدار التونسية للنشر ١٩٧١م.

٢ ـــ **اللغة التركيبية Synthetic** : هي التي « تجمع عدة معان في كلمة واحدة »[٣] . ومن هذا النمط لغتنا العربية . ففي قولك : سنكتب ، دللت على المستقبل والمتكلمين الذين سيقومون بالكتابة ، وعلى فعل الكتابة وزمانه بكلمة واحدة اتصلت بها في أولها سابقتان : السين والنون .

٣ ـــ **اللغة التحليلية Analytical** : « هي اللغة التي تعبر عن المعاني المنفصلة بكلمات يمكن أن تستعمل مستقلة »[٤] . ومن هذا الضرب اللغة الإنكليزية ، إذ تعبر ببضع كلمات عن (سنكتب) وهي : We Will Write .

٤ ـــ **المورفيم Morpheme** : عرفنا المورفيم في حديثنا عن البنيوية ، ونزيده توضيحاً ، فنقول : « المورفيمات ألفاظ تدل على المعاني الرابطة بين الماهيات »[٥] . والمورفيم الواحد يسمى « وحدة صرفية »[٦] ، ومثاله سين الاستقبال في العربية ونون نكتب وألف اسم الفاعل كاتب .

٥ ـــ **الصدور أو السوابق Prefixes** : هي المورفيمات التي تلصق ببدايات الألفاظ ، ومثالها (UN) الدالة على النفي في الإنكليزية ، في نحو Unable وهمزة التعدية في العربية نحو : أكرم .

٦ ـــ **الأحشاء (الأثناء) Infixes** : هي المورفيمات التي تتوسط حشو الكلمة . وقد تكون تغييراً في الأصوات مثل : Foot-Feet أو زيادة مثل : Red-Read أو حذفاً من الحشو مع زيادة في العجز Sleep-Slept .

٧ ـــ **الأعجاز أو اللواحق Suffixes** : هي المورفيمات التي تلحق أواخر الكلمات مثل : (Ren) و (S) وكلتاهما تفيد الجمع في نحو : Children و Boys . هذه أهم المصطلحات ، والأخرى تشرح حينما ترد في البحث .

ثانياً ـــ استقلال الصرف عن النحو عند العرب

يخطىء من يتصور أن النحو العربي استلحق الصرف به أو استردفه ليكون تابعاً له .

---

(٣) أسس علم اللغة ، ماريوباي ص١٥١ .

(٤) المصدر السابق ص١٥١ .

(٥) الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ص٢٩٣ .

(٦) المدخل إلى علم اللغة ، د . محمود فهمي حجازي ص٥٦ .

فالعلمان صدرا عن مشكاة واحدة هي اللغة العربية ، وهدفا إلى هدف واحد هو حماية القرآن من اللحن ، وكما يقع الخطأ في حركات الإعراب يقع في أبنية الألفاظ ومخارج الحروف ، ولهذا لم يكن بدٌّ من ظهور العلمين في وقت واحد لتحقيق غرض واحد .

ومن الأدلة على أن العلمين كانا فرسي رهان ، وأنهما سارا في قَرَن واحد ، وأن كلًّا منهما كانت له مكانته كتابُ سيبويه . فالقسم الأعظم من جزئه الثاني جاء وقفاً على الصرف ، ومنها أن هذين العلمين ظهرا معاً في الكوفة في بداية النهضة الفكرية الكوفية ، فحمل لواءَ النحو أبو جعفر محمد بن علي الرؤاسي [ت : ١٨٧هـ] وحمل لواء الصرف معاذ بن مسلم الهراء [ت : ١٨٧هـ] . « وكان علمُ معاذ بالصرف مثل علم الرؤاسي في النحو ، كان محدوداً لا غَناء فيه »[٧] . وإلى معاذ هذا — على ضؤولة علمه — ينسب الفضل في تمييز الصرف من النحو ، ووضع الأسس الأولى لهذا العلم .

وهبك صدقت ما قيل من تجريح معاذ ، فنفيت قدرته على تمييز الصرف من النحو ، فهل تستطيع أن تنفي القدرة نفسها عن أبي عثمان بكر بن علي المازني [ت : ٢٤٩هـ] صاحب كتاب التصريف الذي شرحه ابن جني في (المنصف) ؟ إن وصول هذا الكتاب إلينا دليل قاطع على نضج الصرف ، وعلى أنه تمّ « انفصال الصرف عن النحو »[٨] منذ بداية القرن الثالث الهجري على أقل تقدير .

ولم يكن انفصال الصرف عن النحو انفصالاً اعتباطياً لا مسوغ له ، بل جاء تعبيراً عن إدراك الأوائل لطبيعة كل علم . قال ابن جني : « التصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلام الثابتة . والنحو إنما هو معرفة أحواله المتنقلة »[٩] . ولا أعرف عالماً فرق بينهما بمثل هذا الكلام الموجز الدقيق العميق .

وإذا ظهر بين علمائنا من يقدم النحو فقد ظهر بينهم من يقدم الصرف ، قال أحمد ابن فارس [ت : ٣٩٥هـ] : « وأما التصريف فإن من فاته علمُه فاته الأعظم »[١٠] ، وقال ابن عصفور علي بن مؤمن [ت : ٦٦٩هـ] : « التصريف أشرف شطري العربية وأغمضُهما »[١١] . وليس تشريف التصريف بالإطراء والتعريف ، وإنما بما قدمه علماؤه . فما أبرز المباحث

---

(٧) المدارس النحوية ، د . شوقي ضيف ص١٥٤ دار المعارف مصر ١٩٧٢م .

(٨) البحث اللغوي عند العرب ، د . أحمد مختار عمر ص١٢٧ . عالم الكتب ١٩٨٨م .

(٩) المنصف لابن جني ٤/١ ، تح : إبراهيم مصطفى مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٠م .

(١٠) الصاحبي لابن فارس ص٣١٠ .

(١١) الممتع لابن عصفور ص٢٧/١ تح د . فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٩م .

الصرفية التي درسها علماء الصرف والمورفولوجيا عامة ، وماحظّ علمائنا العرب من هذه المباحث ؟

ثالثاً ــ مباحث الصرف

لو كان غرض هذا الكتاب أن يجتزىء بما بحثه العرب من قضايا الصرف لوجد ضالته في التعريف المفصل الذي سرد ما عالج علماؤنا فقال : « علم الصرف هو أصول وقواعد تعرف بها أحوال بنية الكلمة : صيغها الأصلية والعارضة ، وما يلابسها من تغير معنوي في مدلولها ، مصدره البناء المحدث بالتصغير ، أو بالنسبة ، أو التثنية ، أو الجمع ، أو التأنيث في الأسماء ، والتحويل إلى الماضي والمضارع والأمر في الأفعال ، ومن تغير صوتي في بنيتها ، مصدره الظواهر التصريفية كالتجريد ، والزيادة والحذف ، والإبدال ، والإعلال ، والإدغام ، والقلب المكاني والإمالة ، والتحريك والتسكين للابتداء ، والوقف ، والتخفيف والتثقيل »[١٢] .

ولو انتهجنا هذا النهج لتحول بحثنا إلى كتيب من كتب الصرف . غير أن النهج الذي التزمناه هو الإفادة من المناهج والنتائج الحديثة لنوازن بها ما درسه علماؤنا ، ولهذا اقتصرنا على المباحث اللغوية الصرفية العامة ، ومنها :

١ ــ التحليل الصرفي ووحداته

التحليل في كل علم وفن يسير في اتجاه واحد أو يكاد يكون واحداً ، وهو الانتقال من المركب إلى البسيط ، ومن الكبير إلى الصغير ، ومن الصغير إلى الأصغر . على هذا النحو حلل البنيويون ، كما ذكرنا قبل ، الجملة إلى كلمات ، والكلمة إلى مورفيمات . فالمورفيمات عندهم هي الوحدات الصرفية الصغرى . لكن المورفيمات نفسها يمكن أن ترد إلى وحدات صرفية أصغر منها هي الفونيمات (الأصوات) .

وإذا كان المورفيم هو الوحدة الصرفية فعلينا أن نميزه من السيمانتيم Semanteme وهو « الوحدة الدالة على معنى معجمي »[١٣] . فإن قلت : المطر انهمر . فـ (مطر) سيمانتيم و(الـ) مورفيم التعريف ، والانهمار في الفعل (انهمر) سيمانتيم ، وصيغة الغائب التي نسبت الانهمار إلى المطر مورفيم . نخلص من هذه المقارنة إلى أن السيمانتيم جزء من علم الدلالة ،

---

(١٢) تصريف الأسماء والأفعال ، د . فخر الدين قباوة ص١٣ جامعة حلب ١٩٨١م .

(١٣) اللغة ، فندريس ص١٠٥ .

ويسمى عند بعض اللغويين الوحدة الدالة، أو الوحدة المعجمية Lexeme[(١٤)] وأن المورفيم جزء من علم الصرف، ويسمى عند المحدثين الوحدة الصرفية. وإن شئت أن تجمع المصطلحين في مصطلح واحد يغنيك عنهما، فاجمعهما تحت مصطلح الوحدة الدالة Moneme كما يرى أندريه مارتينيه A. Martinet.

ولمارتينيه مذهب في التحليل الصرفي يسميه التقطيع المزدوج يحلل على ضوئه الكلام إلى وحدات. فإن أراد أن يحلل جملة مثل: قلمي في حقيبتك قال: هي مؤلفة من خمس وحدات: قلم + ي + في + حقيبة + ك. تنطوي على نوعين من الوحدات أولهما الوحدات المعجمية (وفي الجملة منها اثنتان قلم وحقيبة). والثاني وحدات صرفية، (وفي الجملة منها ثلاث: ي + في + ك). والأولى تسمى مفتوحة لأنها قد تستعمل بدلالات أخرى، والثانية مغلقة لمحافظتها على دلالتهما حيثما وقعت. ويسمي مارتينيه هذا التحليل التقطيع الأولي.

أما المرحلة الثانية من التحليل المارتيني فتسمى التقطيع الثانوي، وتعني ردّ الوحدات المعجمية إلى وحدات صوتية، كرد قلم إلى ق + ل + م. ومارتينيه يرى أن هذا المستوى من التقطيع متوافر في جميع اللغات الإنسانية التي تمت دراستها حتى اليوم[(١٥)].

ومن يتتبع اللسانيين يظفر بطرائق تحليلية أخرى، لكنها لا تضيف إلى ما ذكرنا جديداً له شأن، ولا تخالف ما عرضنا مخالفة تستحق العرض، بل تفارق طريقة مارتينيه في المصطلح والأسلوب، وتوافقها في الاتجاه. ومن هذه الطرائق طريقة كاتفورد Catford التي تنتقل في التحليل من الجملة إلى المورفيم على خمس مراحل. وطريقة نيدا Nida التي تمسك بعصا التحليل من وسطها، إذ تبدأ بالكلمة وتصعد إلى الجملة، ثم تهبط إلى المورفيم فالصوت[(١٦)].

ومهما تبلغ حظوظ مارتينيه وكاتفورد ونيدا من الدقة، فكل ما يعنينا من تحليلاتهم اللسانية الصرفية هو أنها انصرفت عن الوحدة القديمة أي الكلمة Word واختارت وحدات جديدة أهمها اثنتان: الوحدة الدلالية Semanteme والوحدة الصرفية Morpheme.

ولما كانت الوحدة الصرفية أهمّ ما يهمنا ههنا فإن تحديدها يُعدُّ أمراً ضرورياً لفهم ما يذهب إليه اللسانيون. غير أن تحديدها بحدّ جامع مانع مطلب عسير المنال، لأن واضعي هذا المصطلح من الغربيين وأتباعهم من العرب يختلفون في تعريف المورفيم أيَّ اختلاف.

---

(١٤) مبادىء اللسانيات العامة، مارتينيه ص١٩ ترجمة أحمد الحمو وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٨٥م.

(١٥) انظر المصدر السابق ص٢٠ وما بعدها.

(١٦) علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر ص٣١ وما بعدها. الكويت دار العروبة ١٩٨٢م.

فلنقنع من الحدّ بالوصف المستنبط من الأقوال المختلفة، ولنقل: المورفيم هو الوحدة الصرفية الصغرى التي تحمل معنى حرفياً لا فكرياً، وتقوم بوظيفة نحوية لا دلالية، حينما تأخذ مكانها من التراكيب.

ولتوضيح هذا الوصف نقول: من المعاني الصرفية النسب الذي تعبر عنه الياء المشددة في نحو (عربيّ). ومنها المشاركة التي تدل عليها ألف (صارع). والتصغير والتأنيث اللذان تصنعهما ياء (بثينة) وتاؤها. ومن الوظائف النحوية الجزم الذي تضطلع به (لم) في: لم ينفق، والنصب الذي تقوم به (أن) في أحب أن أقرأ، والجر الذي تجريه (اللام) في لفظ الجلالة (لله). إن هذه الأصوات والمقاطع السبعة (يّ، ا، يْ، ة، لم، أن، ل) نموذجات للوحدة الصرفية (المورفيم).

ولعلك لاحظت أن المورفيم قد يكون مقطعاً مثل (لم) وقد يكون صوتاً واحداً كياء (بثينة)، وقد يكون أصغر من ذلك كالكسرة الدالة على اسم الفاعل في نحو (مكرِم) وفتحة اسم المفعول في نحو (مكرَم).

ولعلك لاحظت أيضاً أن المورفيمات قد تأتي منفصلة عن الوحدات الدلالية كمورفيمي النصب والجزم (لن، ولم)، وقد تلابس الوحدات الدلالية، فتلاصق أوائلها كأحرف (أنيت) الدالة على المضارعة (أكرم، يكرم، نكرم، تكرم) وتسمى حينئذ صدوراً Prefixes، أو تلاصق أواخرها كعلامات التثنية والجمع (خالد، خالدان، خالدون) فتسمى أعجازاً Suffixes أو تقتحم أوساطها كألف اسم الفاعل (كاتب) وواو اسم المفعول (مكتوب) وياء التصغير (دفيتر) فتسمى أحشاء Infixes.

ومن مقارنة العربية بالإنكليزية يتبين لنا أن اللسانيات لم تقع على جديد مفيد حينما ابتكرت هذه المصطلحات، واعتمدت عليها في التحليل. إن الميزان الصرفي العربي سمى هذه المورفيمات أحرف الزيادة، وخصّ كل مورفيم بمعنى صرفي. غير أن السوابق واللواحق في الإنكليزية أظهر منها في العربية. والأحشاء في العربية أجلُّ قدراً ومقداراً من الأحشاء في الإنكليزية، لأن العربية تؤثر الاشتقاق على الإلصاق كما يكره العربي الولاء والتبنّي في النَّسَب والاستلحاق. إن العربية تولد الألفاظ الفرعية من الأصول الثلاثية بصبها في قوالب صرفية، تسمى الأوزان أو الصيغ. وهي ذوات معان صرفية تكاد تكون ثابتة، فما هذه الصيغ وما معانيها الصرفية؟

٢ ــ الصيغ الصرفية

ذكرنا غير مرة أن العربية لغة اشتقاقية ولود، وتولُّدُ الألفاظ فيها لا يتمُّ على نحو

اعتباطيّ، وإنما وفق صيغ أو قوالب محددة. وأوزان تكاد تكون ثابتة لا يعروها شذوذ، فإن عراها كان شكلياً بسبب ما يطرأ على الألفاظ من عوارض صرفية كالإعلال والإبدال والإدغام.

« والصيغة هيئة صرفية، تكون علامة على وحدة معينة (مورفيم) كصيغة استفعل التي هي علامة الطلب »[١٧]. أو هي « الهيئة التي ركبت فيها حروف الكلمة الأصلية والزائدة، والبناء الذي جمعت فيه، أو القالب الذي صُبت فيه هذه الحروف. وهو الذي يعطي الكلمة صورتها وشكلها، أو يجعل لها جرساً ووزناً معيناً، ويسمى البناء أو الوزن أو الصيغة »[١٨].

فمن الجذر الثلاثي (علم) تستطيع أن تولد صيغة الفاعل (عالم) وصيغة المفعول (معلوم) والتفضيل (أعلم) وصيغ المبالغة (علّام، وعليم، وعلّامة). وعشرات الصيغ الاسمية والفعلية الأخرى بزيادة حرف (مورفيم) أو أكثر من أحرف الزيادة في كل قالب من القوالب الصرفية الثابتة. وتستطيع كذلك أن تولد من آلاف الجذور الثلاثية الصيغ الصرفية نفسها دالة على المعاني نفسها من فاعلية ومفعولية وتفضيل ومبالغة دلالات مطردة لا يعروها شذوذ ولا انحراف، ولا يتخلف منها شيء.

واختلف علماؤنا في عدة الصيغ اختلافاً واسعاً. قال علي بن جعفر المعروف بابن القطاع [ت: ٥١٥هـ]: « أول من ذكرها سيبويه في كتابه، فأورد للأسماء ثلاثمائة مثال وثمانية أمثلة... والذي انتهى إليه وسعنا، وبلغ جهدنا بعد البحث والاجتهاد، وجمع ما تفرق في تأليف الأئمة ألف مثال ومئتا مثال وعشرة أمثلة »[١٩]. وهذا العدد موضع بحث وتحقيق، إذ شك في صحته مَنْ لا يُشك في إخلاصهم للعربية، وحملوا التزيد أو المبالغة غير المتعمدة على التكرار والسهو، وافتقار الدراسات القديمة إلى آلات الإحصاء الدقيقة. فلنهملْ العدد ولنجتزىء بالقول: إن الصيغ كثيرة[٢٠].

وهذه الصيغ تهب الألفاظ العربية تصنيفاً تصريفياً يختلف عن تصنيفها المعجمي ويمنح كل مجموعة متفقة في القوالب مختلفة في الأصوات معنى صرفيّاً واحداً، كأن تقول: لأسماءِ الآلات صيغ قياسية هي: مِفعال ومِفعلة ومِفعل. فمتى ظفرت بكلمة صُبّتْ في قالب من هذه القوالب دلت في الغالب على آلة تعرف معناها من الأحرف الثلاثية الأصلية:

---

(١٧) علم اللغة وفقه اللغة، د. عبد العزيز مطر ص٦٥.

(١٨) فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك ص١١٢.

(١٩) المزهر للسيوطي ٤/٢.

(٢٠) انظر فقه اللغة د. صبحي الصالح ص٣٣٠.

فالمنشار آلة للنشر، والمصفاة آلة للتصفية، والمبرد آلة للبرد. وعلى هذا النحو تستطيع أن تلمح في المجموعات اللفظية المتفقة في الصيغ معاني صرفية عامة تضاف إلى دلالاتها المعجمية الخاصة.

تقول، على سبيل المثال: ما جاء من المصادر على وزن (فَعَلان) يدل على حركة كالغليان، وما جاء على (فُعال) يدل على داء كالزكام، وما جاء من الأفعال على وزن (استفعل) يدل على الطلب مثل: استسقى. غير أن هذه المعاني الصرفية ليست تامة الاطراد، وليس الحديث عن معانيها من أغراض الكتاب الذي بين يديك.

ولعل أجلّ فائدة تجنيها لغتنا العربية الثابتة القوالب قدرتُها على التجدد والتولد، ومواكبة التطور في جوانب الحياة المختلفة. إنها تهيىء القوالب اللفظية مرتقبة ما يملؤها من المعاني. فحينما أجازت المجامع اللغوية صياغة الآلات على وزن (فعّالة) صنعت العربية عشرات الأسماء لآلات مبتكرة، تفوق في دلالاتها ورشاقتها ووضوحها وقربها من الذوق العربي أسماءها الأصلية في لغاتها وعند الناطقين بهذه اللغات. ومن هذه الأسماء: الطيارة والسيارة، والحوامة والعوامة، والنقالة والغسالة. وقدرة هذه الألفاظ على ترجمة معانيها أعظم من الأوزان القياسية القديمة، لأنها نقلت من المبالغة إلى الآلة.

ونحن لا ننكر على اللغات الإلصاقية صيغها، غير أن القدر الأعظم منها يصنع من كلمتين، أو من كلمة ومورفيم. فالإنكليز سموا الطائرة بكلمتين هما Air و Plane ألصقت إحداهما بالأخرى حتى أصبحتا Airplane. وصاغوا اسم الفاعل بإضافة المورفيم (ing) إلى آخر الحاضر البسيط، والجمع بإضافة مورفيم الجمع (s) إلى نهاية المفرد. ولإدراك الفرق بين الإلصاق والاشتقاق في صنع الصيغ نقارن لفظة (السيارة) بنظيرتها الإنكليزية Automobile. فاللفظة العربية ولدت ولادة طبيعية من أب وأم. أبوها السير وهو الجذر الثلاثي، وأمها صيغة (فعالة) التي كانت للمبالغة ثم آلت إلى الآلة. فاحتضنتها حتى شاعت وتقبلها الناس. ونظيرتها الإنكليزية صنعت من كلمتين Auto ومعناها الذاتي أو الذات، و Mobile ومعناها المتحرك، فالمعنى المتحصل من اجتماع الكلمتين هو المتحرك الذاتي. أو المتحرك بذاته. وهذا المعنى لا يخصّ السيارة من بين الآلات، فالساعة التي حول معصمك متحركة بذاتها، لكنها لا تسير من مكانها. فالمصطلح العربي قوي الدلالة على ما وضع له، وهو المبالغة في السير. إن الصيغ الاشتقاقية تتمخض عن ألفاظ تحافظ على جزء من المعنى الجذري للأصول الثلاثة، كما يحافظ أبناء الأسرة الواحدة على سماتهم وقسماتهم جيلاً بعد جيل. أما الصيغ الإلصاقية فتفتقر إلى هذا الجزء من المعنى الجذري كما يفتقر المولدون والمهجنون إلى وحدة الملامح.

والخلاصة إن الصيغ في اللغات الإلصاقية تركب الكلمات أحياناً من عنصرين متنافرين لإعطاء المعاني الجديدة. والصيغ العربية الاشتقاقية تنجب كلمات «تبدو كأنها أذيبت ثم صيغت، فتوزعت أجزاؤها وحشيت أطرافها وأوساطها مع الاحتفاظ دوماً بمادتها الأصلية، فخرجت في قالب معين، ووزن محدود، لا يختلف من مادة إلى أخرى»(٢١).

٣ ـ تقسيم الكلام قديماً وحديثاً

قدّمنا لهذا البحث من الكتاب بمقدمة ميزت الكلمات ذوات المعاني المعجمية من المورفيمات ذوات المعاني النحوية والصرفية. وهذا التمييز يستند إلى التقسيم اللساني الحديث، وإلى طرائقه في التحليل والتشكيل. أما الصرف العربي القديم فيقسم الكلام كله ثلاثة أقسام، ذكرها ابن مالك في مطلع ألفيته فقال:

كلامنـــا لفـــظ مفيـــدٌ كاستقـــمْ　　　واسم وفعـل ثم حرف الكلِـــمْ(٢٢)

وتقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف قديم قدمَ النحو العربي، وهو معزوٌّ إلى علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، مثبت في الصحيفة التي دفعها عليّ إلى أبي الأسود الدؤلي، وطلب إليه أن ينحو نحوها في التقسيم والدرس ليقيم صرح النحو. جاء في الصحيفة: «الاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل»(٢٣).

وهبك من الذين يشكّون في نسبة الصحيفة إلى عليّ، فشكك لا ينفي عن التقسيم أنه قديم، إذْ تجده في أول كتاب سيبويه، وعن سيبويه أخذه النحاة. ولم يخالف عنه إلا من أضاف الخالفة (اسم الفعل) لتكون قسماً رابعاً. «قال أبو حيان: زاد أبو جعفر بن صابر قسماً رابعاً سماه الخالفة، وهو اسم الفعل»(٢٤).

وفي العصر الحديث ضاق بعض الباحثين بهذا التقسيم، ورأى في إضافة الخالفة منفذاً لتغيير التقسيم. فأسماء الأفعال (صه، هيهات، أف) تنطوي على سمات اسمية وفعلية، ومن ينظر إليها بعين اللسانيات فقد يلحقها بالمورفيمات الصرفية. ومن ينظر في غيرها فقد يتراءى له أن الكلام العربي يحتمل قسمة أخرى على أسس أخرى.

---

(٢١) فقه اللغة، محمد المبارك ص١٢١.

(٢٢) شرح ابن عقيل ١٧/١ تح: محمد محيي الدين عبد الحميد دار الفكر ١٩٩١م.

(٢٣) أمالي الزجاجي ص٣٤٠ تح: عبد السلام محمد هارون دار الجيل بيروت ١٩٨٧م.

(٢٤) الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي ٣/٣ تح: إبراهيم محمد عبد الله دمشق ١٩٨٦م.

لقد ظهرت محاولات كثيرة جادة لإعادة النظر في التقسيم، أبرزها تلك التي حاولها الدكتور تمام حسان، إذ دعا إلى تقسيم الكلام العربي إلى سبعة أقسام، وهي: الاسم، والصفة، والفعل، والضمير، والخالفة والظرف، والأداة[٢٥]. وينبغي ههنا ألا نتعجّل فنرفض أو نتقبل. وألا نتهم الباحث بأنه يحاكي في تقسيمه الإنكليز الذين يقسمون كلامهم ثمانية أقسام، وهي الاسم Noun والفعل Verb والظرف Adverb والضمير Pronoun والصفة Adjective وحرف الجر Preposition وحرف العطف Conjunction والتعجب Interjection[٢٦]. فقد يكون تشابه التقسيمين في خمسة أقسام توافقاً غير متعمد، وقد يكون هذا التشابه شكلياً، تتفق فيه الأسماء وتختلف المسميات، فلننظر في التقسيم الجديد المقترح قبل أن نحكم له أو عليه.

آ ــ **الاسم**: الاسم في هذا التقسيم كل كلمة لا يشكّل الزمن جزءاً منها، كأسماء الذوات والأعلام (كتاب، قلم، زيد، فاطمة)، وأسماء المعاني (علْم، جهْل)، وأسماء الجنس والجمع (عجم، إبل)، والمبهمات من المكاييل والموازين والمقاييس والأعداد المحتاجة إلى ما يميزها كعشرين رطلاً قمحاً.

ب ــ **الصفة**: هي كلمة تدل على موصوف بالحدث، وتضم خمسة أشياء يسميها نحاتنا: اسم الفاعل، واسم المفعول، واسم التفضيل، والصفة المشبهة، ومبالغة اسم الفاعل، وتسمى في هذا التقسيم صفة الفاعل، وصفة المفعول ... الخ. ومعنى الموصوف بالحدث أن هذه الصفات ــ عدا الصفة المشبهة ــ تتصف بالفعل الذي تشتق منه اتصافاً غير دائم. أما الصفة المشبهة فاتصافها به ثابت. والميزتان الأساسيتان اللتان تميزان الصفة من الاسم ارتباطها بالزمن، وقيامُها بأكثر الأعمال التي يقوم بها الفعل من رفع للفاعل، ونصب للمفعول به. وليست تسمية الاسم المشتق صفةً بدعة لا سابقة لها، وإنما هي من مصطلحات النحو العربي المعروفة. قال ابن الخشاب: [ت: ٥٦٧هـ]: «اسم الفاعل هو الصفة الجارية على الفعل المضارع في حركاته وسكناته كضارب»[٢٧]. غير أن الأقدمين سموا المشتقات صفات، ولم يخرجوها من إطار الأسماء، بل جعلوها فرعاً من فروعها ليميزوها من الذوات والمعاني والأسماء المبهمة.

ج ــ **الخالفة**: نغفل الحديث عن الفعل لاتفاق الأقدمين والمحدثين أو تقاربهم في

---

(٢٥) اللغة العربية معناها ومبناها ص٨٦ وما بعدها.

(٢٦) A Comprehensive English Grammar C. E. .Eckrsley and J. M. Eckrsley page 3-4 Oxford Press 1980.

(٢٧) المرتجل لابن الخشاب ص٢٣٦ تح علي حيدر دمشق ١٩٧٢م. وشرح ابن عقيل ١/١٥١، ١٥٦.

تحديد سماته . ونتحدث عن الخالفة التي ذكرها أبو حيان الأندلسي [ت : ٧٤٥هـ][٢٨] ومن سبقه من النحاة ، ولا سيما الكوفيين . فقد أطلقها الكوفيون على اسم الفعل وحده ، وأطلقها التقسيم الجديد على الأسلوب الإنشائي المعبر عن تأثر المتكلم وتأثيره في المخاطب . ولعل المقصود بها ما يقصده الإنكليز من اللغة المؤثرة Affective Language .

إن التقسيم الجديد للكلام وسّع مفهوم الخالفة ، إذ أراد بها التعجب نحو : ما أجمل السماء! والمدح والذم نحو : نعم الشاعر زهير ، وأسماء الأفعال نحو : هيهات السفر ، وأسماء الأصوات كقولك : هَيْد في زجر الإبل . والصفة الجامعة بين الخوالف جمودُها وتجردها من علامات الأسماء وعلامات الأفعال ، وقبولها لبعض المورفيمات الإلصاقية كالضمائر وعلامات التأنيث .

د ـــ **الظرف** : الظروف في التقسيم القديم بعض الأسماء ، وهي قسمان : مختصٌّ لا يأتي إلا ظرفاً ، وغير مختص يأتي ظرفاً وغير ظرف الأول مثل إذا ومتى ، والثاني مثل يوم وشهر . أما الظرف في التقسيم الجديد فمقصور على القسم الأول ، ولهذا فالظروف تسعة لا عاشر لها عنده ، وهي : إذ ، إذا ، إذن ، لمّا ، أيان ، متى ، أين ، أنّى ، حيث . وكل ما عداها مثل : بين وحين ، وأسماء الأوقات والجهات كالساعة والشهر ، وأمام ووراء ، وكل ما فارق المصدرية فصار نائباً عن الظرف فأسماء متصرفة . وأهم سمات الظرف الجمود والبناء .

هـ ـــ **الأداة** : لو رجعنا إلى مغني اللبيب ، والأزهية ، والجنى الداني ، ورصف المباني وغيرها من كتب الأدوات ، لوجدنا فيها خليطاً من أسماء وأفعال وحروف . والتقسيم الجديد يأخذ بهذا التعميم لمعنى الأداة ، إذ يذهب إلى أن الأداة كلمة فقدت المعنى المعجمي وخلصت لأداء الوظيفة النحوية ، وهي الربط بين الماهيات . ويرى أن الأدوات نوعان : أصلية مثل : لم ولن ، ومحولة عن أسماء وأفعال كأسماء الشرط والأفعال الناقصة . والأدوات كلُّها ـــ ما عدا أيّاً ـــ مبنيات ، لا تقبل التصريف من تثنية وجمع وتصغير ، ولا تدخلها علامات الأسماء وعلامات الأفعال في أغلب الأحيان .

و ـــ **الضمير** : يوسّع التقسيم الجديد معنى الضمير ، فيدخل في زمرته كل كلمة جامدة تدل على حضور (المتكلم والمخاطب) أو غيبة . فليست الضمائر إذن ما كان يعرف بالضمائر المنفصلة والضمائر المتصلة ليس غير ، بل تنضمُّ إليها أسماء الموصول وأسماء الإشارة . أما الضمائر المتصلة في نحو : أعرتك كتابي فإنها تعد من اللواصق التصريفية

---

(٢٨) انظر الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي ٣/٣ .

(المورفيمات) التي ذكرناها في بداية هذا الفصل . ولكنها تظل محتفظة بحقها في الانتماء إلى قسم الضمائر .

وأهم سمات الضمائر حاجتُها إلى قرائن توضحها ، وجمودُها ، وبناؤها ، فهي غير مشتقة ولا معربة .

وفي نهاية الحديث عن هذا التقسيم يحسن بنا أن نشير إلى أنه تقسيم مقترح وليس تقسيماً قطعياً ، يمكن إحلاله محل التقسيم القديم ، وينطوي على أكثر من إشكال يحتمل الجدال . ولا يجوز إحلاله محلّ القديم أو جعله رديفاً له ما لم تدرس أقسامه دراسة علمية وافية[٢٩] .

٤ ـ المعاني الصرفية

المقصود بالمعاني الصرفية المفاهيم المستنبطة من مباني الألفاظ . فمفهوم الجمع السالم مذكره ومؤنثه يستنبط من آلاف الأسماء المنتهية بواو ونون وياء ونون وألف وتاء مبسوطة . ومفهوم التأنيث يستخرج من آلاف الأسماء المنتهية بتاء مربوطة أو ألف مقصورة أو ألف ممدودة إلى جانب ضوابط معنوية ولفظية أخرى . ومفهوم التعريف الذي هو قسيم التنكير ندركه في الأسماء المبدوءة بـ (ال) أو التي تحمل قرائن أخرى كالإضافة والعلمية ... الخ .

وهذه المعاني الصرفية لا صلة لها بالدلالات المعجمية للألفاظ ، بل بالقوالب والصيغ ، وبما يلحق هذه الصيغ من مورفيمات تكاد تكون قياسية . فإذا قرأت كلمتي مستشزرات ومستوسقات أدركت ما فيهما من جمع وتنكير وسلامة وتأنيث من المورفيمات التي وهبتها هذه المعاني ، ولو لم تعرف أن الأولى بمعنى المتفرقات والثانية بمعنى المتجمعات . وإذا قرأت كلمة الرُّدَيْني عرفت ما فيها من تعريف وتصغير ونسب وتذكير وإفراد ، ولو لم تعرف أن الرديني الرمح المنسوب إلى امرأة اسمها ردينة عرفت بتقويم الرماح . إن كل ما أدركته يُعدُّ من المعاني الصرفية .

ودفعاً للبس نشير إلى أن اللسانيات الحديثة تطلق على المعاني الصرفية اسماً آخر ، وهو (المقولات الصرفية) . ويبدو أن اللسانيات قبست (المقولات) من المنطق الذي حمل عليه أكثر اللسانيين واتهموه بإفساد الدراسات اللغوية القديمة . إن (المقولة) مأخوذة من المصطلح المنطقي الإنكليزي Logical Category[٣٠]، والمعنى في نظرنا أدق في التعبير عمّا نريد من

---

(٢٩) كل ما ذكرناه في هذا الفصل عن أقسام الكلام السبعة مقتبس من كتب د . تمام حسان ونخصّ بالذكر منها : اللغة العربية معناها ومبناها . وأغفلنا ههنا الحديث عن الفعل لاتفاق القدماء والمحدثين على مفهومه .

(٣٠) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ص٨٩ ، ومبادىء اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص١٧٦ ويسميها محمد الأنطاكي المقولات النحوية انظر الوجيز في فقه اللغة ص٣٣٢ .

المقولة ، لأن المقول قد يكون له معنى كزيد ، وقد يكون أصواتاً بلا معنى كديز . ولهذا آثرنا (المعاني الصرفية) على (المقولات) الصرفية أو النحوية .

وأبرز المعاني الصرفية التي بحثها القدماء ، وأعاد اللسانيون دراستها : العدد إفراداً وتثنية وجمعاً ، والشخص حضوراً وغيبة ، والجنس تذكيراً وتأنيثاً ، والتعيين تعريفاً وتنكيراً . وههنا آثرنا ذكر التسميات اللسانية الحديثة وتفسيرها بالمصطلحات الصرفية المألوفة لئلا نلبس على القارىء .

آ ـ **العدد** : يعد التعبير عن العدد بصيغ صرفية من المعاني التي تشترك فيها اللغات على أنحاء تتقارب أو تتباعد ، لكنها لا تخلو منه . فاللغات الهندية الأوروبية ، ومنها الإنكليزية ، تقسم الأشياء إلى مفرد وجمع . فالمفرد واحد ، والجمع اثنان وما زاد عليهما . واللغات السامية ، وعلى رأسها العربية أحرص على الدقة في التعامل مع العدد . فالعربية تقسم الأشياء ثلاثة أقسام ، هي المفرد والمثنى والجمع . فالمفرد الواحد ، والمثنى اثنان ، وأقل الجمع ثلاثة ، والجمع نفسه جمعان : جمع قلة وهو ما لم تزد عدة أفراده على عشرة . وما زاد على عشرة فجمع كثرة . ولجموع القلة أربعة أوزان ، هي : أفعال وأفْعُل ، وأفعِلة ، وفِعْلة ، نحو : أقفال وأبحر وأرغفة وفتية . وجموع الكثرة كثيرة الأوزان تربو عدتها على ثلاثين صيغة ، فإذا أضفت إليها صيغ الاسم الجمعي ، وجمع الجمع كجمالات وبيوتات ، والجمعين السالمين مذكرهما والمؤنث زادت الصيغ على أربعين صيغة .

وللجمع في العربية صور أخرى منها : الجمع الذي لا واحد له من لفظه كالثَّوْل : سرب النحل . وما اشتهر جمعه وأشكل واحده كالمصارين : واحدها مصران أو مصير . وما اشتهر واحده وأشكل جمعه كالسبت جمعه سبوت أو أسبت . وما استوى واحده وجمعه كالفُلْك[(٣١)] . والمفرد الذي يجمع على صيغ وأوزان كثيرة ، فقد ذكر القاموس المحيط أحد عشر جمعاً للدار وخمسة عشر للعبد[(٣٢)] .

وهذه الكثرة من صيغ الجموع موضع نقاش ، لأنها ذات مظهرين : مظهر خصيب يدل على ثراء العربية ، ومظهر عصيب يربك الدارس ، إذ يضع بين يديه صيغاً ، لا قبل له بحفظها . ولذلك نجد بين الباحثين من يذكرها بالتنويه ، كما نجد بينهم من يقابل التنويه بالتسفيه .

---

(٣١) تجد هذه الصور في المزهر للسيوطي ١٩٩/٢ ، ٢٠١/٢ ، ٢٠٣/٢ .

(٣٢) جاء في القاموس المحيط [دار] : «جمع الدار أدْؤُر ، وأدْوُر ، وديار ، وديارة ، وديران ، ودوران . ودورات ، وديارات ، وأدوار ، وأدورة . وجاء فيه أيضاً [عبد] : «جمع العبد : عبدون ، وعبيد ، وأعبد ، وعُبدان ، وعِبدان ، وعِبِدّان بكسرتين مشددة الدال ، ومعبدة كمشيخة ، ومعابد ، وعِبدّاء ، وعِبِدّى ، وعُبُد بضمتين ، وعَبُد كندُس ، ومعبوداء ، وجمع الجمع أعابد» .

يقول الدكتور صبحي الصالح : « ما يزال في الباحثين العرب من يقودهم تعصبهم للغتهم إلى عدّ الجموع القياسية سالمة وغير سالمة إحدى خصائص العربية ... وفاتهم أن هذه الكثرة لا تزن شيئاً إن لم تشارك الأذهان النيرة في وضعها موضع الاستعمال »(٣٣) .

ولما كانت اللسانيات لا تستنبط أحكامها من لغة واحدة فإن التنويه والتسفيه لا يجلوان الوجه الحقيقي للجمع في لسان العرب ، ولهذا لا بد من مقارنة هذه الظاهرة بما يعدلها في لغة أخرى كاللغة الإنكليزية التي تعد من أشيع اللغات في العالم .

الشكل الأساسي في جمع المفرد يتم في الإنكليزية بإضافة اللاحقة (s) إلى أواخر الأسماء المفردة : Book = Books . ثم تتعدد الأشكال ، إذ يصبح مورفيم الجمع أحياناً (es) = Class classes ، أو يضاف مورفيم الجمع بعد تبديل آخر الاسم المفـرد : Wife = Wives, Country = Countries وقد يتم الجمع بتبديل حرف من حروف المفرد : Man = Men ، أو بإضافة مورفيم آخر هو Ox = Oxen (en) أو بإضافة مورفيم من ثلاثة أحرف Child = Children (ren) أو بحذف حرف وتغيير حرف نحو : Phenominun = Phenomina, Datum = Data(٣٤) .

وهذه الصور المتعددة من أسلوب الجمع ــ بلْهَ الصور التي لم نذكرها ــ تدل دلالة واضحة على أن الجمع في الإنكليزية ليس مطّرد الصيغة ، وأن العربية ليست متفردة في التنوع . فإما أن يعد التنوع في اللغتين جميعاً ثراءً تباهيان به ، وإما أن يعد ارتباكاً تؤاخذان عليه . وخير من هذا وذاك أن نترك النظرات المعيارية ، ونكتفي بالوصف بلا مدح ولا قدح .

أما التثنية فجليّة في العربية ، تعرو الأسماء المتصرفة ، وبعض المبهمات والأسماء المبنية كأسماء الإشارة وأسماء الموصول ، والضمائر والصفات . وتتغير من أجلها صور الأفعال بسبب الإسناد إلى الضمائر المثناة مثل : هذان الثوبان اللذان اشتريتهما سيبليان . إن معنى التثنية في العربية يسم مفهوم العدد بسمة الدقة ، ويجنبه اللبس . ونعني باللبس عدم التمييز بين المثنى والجمع في اللغات التي تخففت من ظاهرة التثنية .

إن مورفيم الجمع في الإنكليزية قد يلحق المفرد ، فيراد به الجمع ، وقد يلحقه فيراد به المثنى ، ولهذا يضطر الناطقون بهذه اللغة إلى تمييز المثنى بالعدد الصريح نحو : Two Books . أما الضمائر فلا تمسها ظاهرة التثنية من قريب ولا من بعيد ، ولذلك فالضمائر الإنكليزية لا تزيد على نصف الضمائر العربية ، فربما عبر الإنكليز عن ثلاثة ضمائر عربية أو خمسة

---

(٣٣) فقه اللغة ، د . صبحي الصالح ص٣٣٥ .

(٣٤) Practical English Grammar A. J. Thamson and A. V. Martinet page 8 Oxford University Press.

بلفظ واحد. فهم يعبرون بالضمير (They) عن هما وهم وهن وبالضمير (You) عن أنتَ، وأنتِ، وأنتما، وأنتم، وأنتن. والسياق يحدد صاحب الضمير.

ومن الجدير بالذكر أن ظاهرة التثنية في العربية أخذت تميل إلى الانحسار في اللهجات العامية، لتحل محلها صيغة الجمع. وفي الفصحى ما يسوّغ ذلك. فالعامة يقولون: ذهبوا ورجعوا والفاعل اثنان لا جماعة. وفي القرآن الكريم: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾[٣٥]. والمقصود قطع يد واحدة من يدي السارق ويد واحدة من يدي السارقة لا قطع الأيدي الأربع. وتقول العرب: ضُربت أعناقهما والمقطوع عنقان لا أكثر. فهل يعني هذا الميل عن التثنية أنها ثقيلة على اللسان، وأن العامية تؤثر التخفف؟

الحق أن المسألة ليست قاصرة على العامية فالأمثلة والشواهد الفصيحة لا تتأثم من تغليب الجمع على المثنى، كما لا تتأثم من وضع المفرد موضع المثنى، كقول جرير:

ألست أحسن من يمشي على قدم ... يا أملح الناس كل الناس إنسانا[٣٦]

يريد من يمشي على قدمين، وأملحهم عينين لا عيناً واحدة. ولا تتحرج من وضع المفرد موضع الجمع كقول علقمة الفحل:

بها جيف الحسرى، فأما عظامها ... فبيض، وأما جلدها فصليب

قال: وأما جلدها فوحّد، وهو يريد: وأما جلودها[٣٧].

ب ـ الشخص: يرتبط هذا المعنى بشيئين: أولهما الضمائر التي تختلف عدتها وأنواعُها من لغة إلى لغة. وثانيهما مورفيمات التصريف التي تباشر الأفعال. فإن قلت: حضرتْ فالتاء الساكنة حددت التأنيث، والضمير المقدر حدّد الغيبة والإفراد، فعرفت بذلك الشخص الذي أسند إليه الفعل. ولما كانت العربية تمتلك التثنية إلى جانب الجمع والإفراد فإن نطاقها في هذا المعنى أوسع مما في اللغات الأوروبية.

العربية حينما تصرف الفعل (يكتب) تعرضه أمامك بثلاث عشرة صورة، ولكل صورة مورفيم في بداية الكلمة، أو مورفيمان أحدهما في بدايتها والثاني في نهايتها، إذ تقول:

---

(٣٥) المائدة ٣٨.

(٣٦) ديوان جرير ص٤١٩ دار صادر بيروت.

(٣٧) ضرائر الشعر للقيرواني ص١٠٢ تح د. محمد زغلول سلام و د. محمد مصطفى هدارة. منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩٤م. ومما يؤيد انحسار التثنية أن العبرية ـ وعلامة التثنية فيها (الياء والميم) ـ لا تستعمل التثنية إلا في أحوال خاصة كأعضاء الجسم والأدوات المزدوجة مثل عنايم = عينان، رحايم = رحيان. انظر دروس في اللغة العبرية، د. ربحي كمال، ص١٠٦.

أكتب ، نكتب ، تكتب ، تكتبين ، تكتبان ، تكتبون ، تكتبن ، يكتب ، تكتب ، يكتبان ، تكتبان ، يكتبون ، يكتبن .

أما تصريف الفعل نفسه في اللغة الإنكليزية فيؤدّى بصورتين لا ثالثة لهما الأولى (Writes) مع الضمائر المفردة الغائبة : He, She, It والثانية (Write) مع بقية الضمائر . وللتمييز بين المفرد والجمع ، والحاضر المتكلم والحاضر المخاطب وجمع الغائب ومفرد الحاضر فلا بد من ذكر الضمائر قبل الأفعال . ولو ذكرت الضمائر لبقي لَبْسٌ آخر ، لا يخلصك منه غير السياق فإن قلت : You Write انصرف القول إلى خمسة ضمائر : أنتَ ، أنتِ ، أنتما ، أنتم ، أنتن ، وعلى السياق التحديد .

وأنت تعلم أن المورفيمات العربية اللاحقة بالفعل كياء المخاطبة ، أو السابقة له كأحرف أنيت قادرة على تحديد الحضور والغيبة والعدد والجنس ولو لم يسبق الفعل بالضمير المنفصل . أما تصريف الماضي فيحرم الصيغ من أحرف أنيت ، وحينئذ يتحدد الشخص بالضمير المتصل أو بالضمير المستتر الذي يعامل في العربية معاملة البارز فتقول : كتبتُ كتبنا ... كتبَ ... الخ . ولا جدال في أن العربية بسبب صيغها المتعددة ومورفيماتها الكثيرة أقدر من الإنكليزية على تحديد هوية الشخص ، وأزهد منها في الاعتماد على السياق ، وأبعد عن اللبس . غير أنها قد تتأثر ــ وهذا شأن أكثر اللغات ــ بالمفاهيم الاجتماعية فتخالف المألوف ، إذ تخاطب المفرد بالجمع إكراماً له ، وتقيم المخاطب مقام المتكلم ، كقول أبي فراس :

أراك عصيَّ الدمع شيمــتك الصبر   أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمر (٣٨) ؟

يريد : أراني ، شيمتي ، عليّ . لكنه بتجريده شخصاً من نفسه وبمخاطبة هذا الشخص المتخيل بعث الموقف ، ونقله من الخبر الميت إلى الحوار الحيّ .

ج ــ **الجنس** : الذكورة والأنوثة من صفات الخلق تجدهما في البشر والحيوان وبعض النبات . ولما كانت اللغات حريصة على أن تترجم ما في الحياة ، فقد عنيت الألسن كلها أو جلها بتمييز المذكر من المؤنث . غير أن التمييز لا يبلغ حد التطابق بين اللغة والواقع في كل حين ، بل تجد المذكر الحقيقي موسوماً بسمة من سمات الإناث ، في بعض الأحيان ، وتجد من الجوامد ما ذُكّر وما أُنث على نحو اعتباطي ، وليس للتذكير فيه أو التأنيث مسوغ خَلْقي أو منطقي .

وتجد في بعض اللغات طوائف من الألفاظ لم تلحقها سمات لغوية تسمها بذكورة أو

---

(٣٨) ديوان أبي فراس ص١٤٢ تح : محمد ألتونجي المستشارية الثقافية الإيرانية ١٩٨٧م .

أنوثة ، فبقيت خنثى لا جنس لها ، ووُضعت لها صيغ تخصها كضمير الغائب (It) الخاص بما لا يعقل ، والإنكليز لا يطلقونه على الأشياء وحدها ، بل على الأشياء وعلى الأحياء التي ذكّرها الله وأنّثها إن لم تكن عاقلة ، وعلى الطفل الذي لم يرق إلى سنّ التمييز ، وعلى المجهول . ويسمى هذا النوع عندهم المحايد : Neutral أو Neuter .

ومن يحتكم إلى المنطق فيما يذكر ويؤنث من الأشياء لم يلق عنده حكماً مقبولاً . فما الذي جعل العرب يذكرون المريخ ويؤنثون الأرض ، وكلاهما جرم من حجر لا مخلوق من البشر ؟ وما الذي حملهم على تذكير النهر وتأنيث البئر وكلاهما ماء ، أو على تذكير السيف والرمح وتأنيث القوس والدرع وكلهن أسلحة ؟

يردّ فندريس ذلك كله إلى أسباب دينية غيبية ، ترتبط بتصور الإنسان القديم للعالم[٣٩] . ويرى رايت W. Wright في محاضراته عن النحو المقارن في اللغات السامية أن الأمر يعود إلى الخيال السامي الذي حلق بأصحاب هذه اللغات ، فخلعوا على الجوامد أرواح الأحياء[٤٠] . وربما كان في كلام هذا المستشرق جانب من الحقّ ، إذ لو لم يكن الخيال السامي واسع الأفق ، خصب التصوّر والتصوير لما وقف الشاعر الجاهلي على الأطلال ، يحاور النؤي والأثافي والأوتاد والآرام ويناجيها .

وإذا لم يكن تذكير الجوامد وتأنيثها منطقياً فهل من المنطق بقاؤها حيادية بلا جنس ؟ لو أن اللغات التي انتزعت الذكورة والأنوثة عن الجوامد التزمت هذا النظام في كل كلامها لكان الأمر معقولاً ، ولكنها لم تلتزمه ، وحسبك أن تتذكر ما ذكرناه قبل قليل من إطلاق الضمير (It) على الطفل وعلى المجهول من الرجال العقلاء ليثبت عندك أن الأنظمة اللغوية ليست منطقية في كثير من الأحيان . ولسنا في حاجة إلى العود على البدء . فالدراسات الحديثة تتجنب تحكيم المنطق في اللغة ، وتؤثر القبول بكل شيء وبوصفه ، إذ لو كانت اللغة من صنع المناطقة لسارت الأجناس الثلاثة رتلاً واحداً ، والواقع الذي يقر به اللغويون الغربيون هو أن الحياد من المعاني الصرفية الضعيفة التي تزداد ضموراً ، وأنه كان شائعاً في اللاتينية واليونانية ثم خمل ، وبقيت منه بقية قليلة ، هي « في سبيل الانقراض »[٤١] . ولعل انقراض الحياد يعود إلى إيثار الناس التيسير على التعسير ، والتعامل مع هذه الظاهرة ظاهرة الجنس وفق نظامين لا ثلاثة أنظمة .

ولو قارنت المؤنث بالمذكر لوجدت الذكورة طاغية على الأنوثة في أكثر اللغات . فليس

---

(٣٩) اللغة ، فندريس ص١٣٣ .

(٤٠) Lectures on the Comparative Grammar page 191 W. Wright

(٤١) اللغة ، فندريس ص١٢٩ .

في الضمائر الإنكليزية إلا ضميران يخصان الأنثى ، وهما she, her . وإذا وصف الإنكليز النساء وصفوهن بصفات الذكور فهم يقولون Small Girl كما يقولون Small Boy أي أن الأنثى ليس لها مورفيم يخصها كتاء التأنيث في العربية . وأما الأسماء فالكثرة الساحقة منها تصاغ صياغة واحدة للمذكر والمؤنث ، خلا أسماء قليلة تؤنث بإضافة مورفيم التأنيث (ess) إلى آخر المذكر Poet = Poetess . وقد يؤنث الاسم بذكر ضمير المؤنث ، ويذكر بضمير المذكر : He Goat = She Goat فالضميرُ هو الذي ماز التيس من السخلة .

ولا شك في أن العربية أولت التأنيث عناية واضحة تتبدى بأكثر من صورة . فهي تقابل أسماء الذكور بأسماء تعدلها للإناث : خروف ونعجة ، كبش وشاة ، جمل وناقة ، حمار وأتان ... الخ . وتخصّ الإناث بمجموعة من الضمائر المنفصلة والمتصلة تباشر الأسماء والأفعال والحروف : (هن يرجعن كتبكن إليكن) . وهي تؤنث الصفات والأسماء بمورفيمات عديدة كالتائين المربوطة والمبسوطة (طالبة ـــ طالبات) والألفين المقصورة والممدودة (ظمأى ، حسناء) وقد تؤنث الحروف (ثُمت ، رُبّت) ، وتعامل الأفعال المسندة إلى أسماء الأجناس وجموع التكسير معاملة المسندة إلى الأنثى ﴿غلبت الروم﴾[٤٢] و ﴿قالت الأعراب﴾[٤٣] ، وتجمع كل اسم أعجمي بالألف والتاء (تلفونات) .

ولما كان المنطق عاجزاً عن تفسير اللغة ، فإنه عاجز عن أن يفسر تجرّد الصفات الخاصة بالنساء من مورفيمات التأنيث . فالعربية لا تدخل علامة التأنيث على نحو : حائض وطالق مع أنهما من أخص خصائص الإناث . وحجتها أن الرجل لا يمكن أن يشرك المرأة في مثل هذه الصفات ، فلما أُمن اللبس عُرف الجنس . والمنطق عاجز كذلك عن أن يعلل اشتراك المذكر والمؤنث في صفات ذوات أوزان خاصة (رؤوم ، جريح ، معطير) وأكثر هذه الصفات من صيغ المبالغة . ولعل ذلك يعود إلى علة اجتماعية ، وهي أن العربية رفعت مكانة المرأة في الصفات التي أربى اتصافها بها على المألوف ، فاستحقت أن تساوي الرجل في بعض الصيغ .

وإن أردت أن تعمم هذه العلة ، فقل : قد تكون عناية العربية بالتأنيث ناجمة عن رقي المرأة ، وعن سمو المكانة التي تبوأتها في حياة العرب ، ثم عن حمية العربي وحفاظه على عرضه ، وحرصه على تفرد المرأة . ولهذا كان يخصّها بهودج يحملها إن ظعن ، ويسير حادياً بها وبناقتها ، كما كان يخصها بألفاظ تميزها من الرجل . وكما كان يربأ بها عن مخالطة الرجال فيما خلقوا له

---

(٤٢) الروم ٢ .

(٤٣) الحجرات ١٤ .

من الغزو والقتل كان يتحدث عنها بألفاظ وصيغ تصونها من الابتذال والتشبه بالرجال .

كُتب القتـلُ والقتـال علينـا   وعلى الغانيـات جَرُّ الذيـولِ [٤٤]

د ـ **التعيين** : تحرص اللغات على أن تصنف الأسماء وفق تعريفها وتنكيرها أصنافاً ، فتجعل بعضها أجناساً عامة ، إذا ذكر المفرد منها أريد به جنسه كله كرجل وامرأة . وتجعل بعضها محدد الدلالة إذا أطلق انصرف معناه إلى شخص معين كخالد وهرقل . ويسمى الأول نكرة ويسمى الثاني معرفة .

للنكرة في العربية مورفيم واحد هو التنوين ، والتنوين نون ساكنة ، تلحق الاسم ، فتطلقه من إسار التعيين ، وتخلع عليه صفة الشمول ، وإن كان في الأصل معيناً كقولك : مررت بسيبويه وسيبويهٍ آخر . فالأول هو بشر بن عمرو النحوي ، والثاني رجل لا يعرفه السامع ، ولكنه يسمّى بهذا الاسم .

وإذا أراد الإنكليز تنكير الاسم قدموا عليه مورفيم التنكير Indifinite Article فتنكر . وفي الإنكليزية مورفيمان للتنكير : أولهما (AN) ويباشر الأسماء المبدوءة بالأصوات الصامتة (حروف العلة) نحو : An Actor . وثانيها (A) ويباشر الأسماء المبدوءة بالأصوات الأخرى ، وهي أكثر الأبجدية الإنكليزية نحو : A boy .

أما التعريف فطرائقه في العربية متنوعة ، أشهرها العلمية كأن تسمي كل واحد من الناس والبلاد والأنهار باسم يلازمه ويعرّفه . فيكون علماً فوقه أو علامة تسمه : كعمر ومكّة ودجلة . والإنكليز يخصون العلم Proper Noun بخصيصة كتابية ، إذ يستهلون رسمه بحرف كبير ، ويحرمون عليه مورفيمي التنكير (A, An) ومورفيم التعريف (The) . أما الأعلام العربية فتنوينها لا يعني تنكيرها إلا نادراً كمثال سيبويهٍ آخر السابق ، وإذا باشرتها (ال) أفادتها التشريف لا التعريف كالحسن والحسين رضي الله عنهما .

وثانية الطرق في التعيين الإشارة إلى الأسماء بهذا وهذه ونحوهما . والثالثة تعيين الأسماء بالموصولات الاسمية كالذي والتي ونحوهما . والحق أن الموصولات العربية ليست معرفة في ذاتها . وإنما تكتسب التعريف من صلاتها .

وتتوافر هذه الوسائل في الإنكليزية توافرها في العربية وفي معظم اللغات ، غير أن الإنكليز يلحقون أسماء الإشارة والموصولات بالضمائر ، فيسمون الأولى Demonstrative Pronouns ويسمون الثانية Relative Pronouns .

---

(٤٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/٤٩ دار الكتاب العربي ببروت ١٩٢٥م مصورة عن دار الكتب .

ومن وسائل التعيين إضافة النكرة إلى المعرفة مثل : دار الحكمة . والإضافة في العربية لا تقتضي لاحقة ولا سابقة ، وتتم بإلصاق اسم باسم حتى يصبحا كأنهما اسم واحد ، كعبد الله وأم كلثوم . أما الإنكليز فلديهم مورفيمان للإضافة هما (of, s) نحو : Shakespeare's Plays و The Door of the House وقد يكتفون بالفاصلة بين المتضايقين ، فيقولون : Keat's Poem[٤٥] .

وخامسة الوسائل وأشيعهن في اللغات تعريفُ النكرات بالأدوات (المورفيمات) ، وأغلب المورفيمات من نمط السوابق Prefixes التي تذكر قبل الأسماء ، فمتى باشرتها عرفتها . ولكل لغة أدواتها ، أو أداتها . وتعد الألمانية من أكثر اللغات احتفالاً بتنويع الأدوات . وتكتفي العربية بأداة واحدة هي (ال) والإنكليزية بأداة واحدة هي (The) . و (الـ) العربية في حقيقتها تنطوي على درجات متفاوتة من التعيين ، فإن كانت للعهد أفادت التعريف كقولك لمن استعار منك عمدة ابن رشيق : أعد إليّ الكتاب . وإن كانت للجنس كان التعيين بها أضعف مما يستفاد من التعيين بالعهدية كقولك : الذهب أنفس من الفضة . وهبها تمحضت للجنس ، فالجنس الذي يأتي بعدها يكتسب منها ومن السياق أكثر من معنى . ففي قوله تعالى : ﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾[٤٦] أفادت (ال) الاستغراق أي جمعت في الإنسان كل الناس من آدم إلى قيام القيامة . وفي قولك : عنترة الفارس دلالة على اجتماع كل شمائل الفروسية في عنترة . وهذا معنى قول النحاة : إنها تستغرق الصفات .

وفي العربية درجة متوسطة تقع بين التعيين والتنكير تعرف بالتخصيص . فإن قلت : كتابٌ صامتٌ أفصحُ من جليس ثرثار ، فأنت لم تفضل الكتاب الصامت على كل جليس بل على نمط مخصوص هو الثرثار . ووسيلة التخصيص الوصف ، ولذلك تسمى هذه النكرة نكرة مفيدة ، لأن فيها حظاً من التنكير وحظاً من التعيين ، يرقى إلى رتبة التخصيص ، وينحط عن رتبة التعريف .

ولعلك لاحظت أن الصفة تبعت الموصوف في التنكير ، ولو عرَّفت الموصوف لعرفت الصفة ، كأن تقول : الكتاب الصامت خيرٌ من الجليس الثرثار . والتطابق بين الصفة والموصوف في التعريف والتنكير والإفراد والتثنية والجمع والتأنيث والتذكير قاعدة مطردة في العربية ما لم يكن الوصف سببياً كقولك : قرأت قصيدة جزلاً أسلوبُها ، فحينئذ يطَّرد التطابق في جوانب ويتخلف في أخرى .

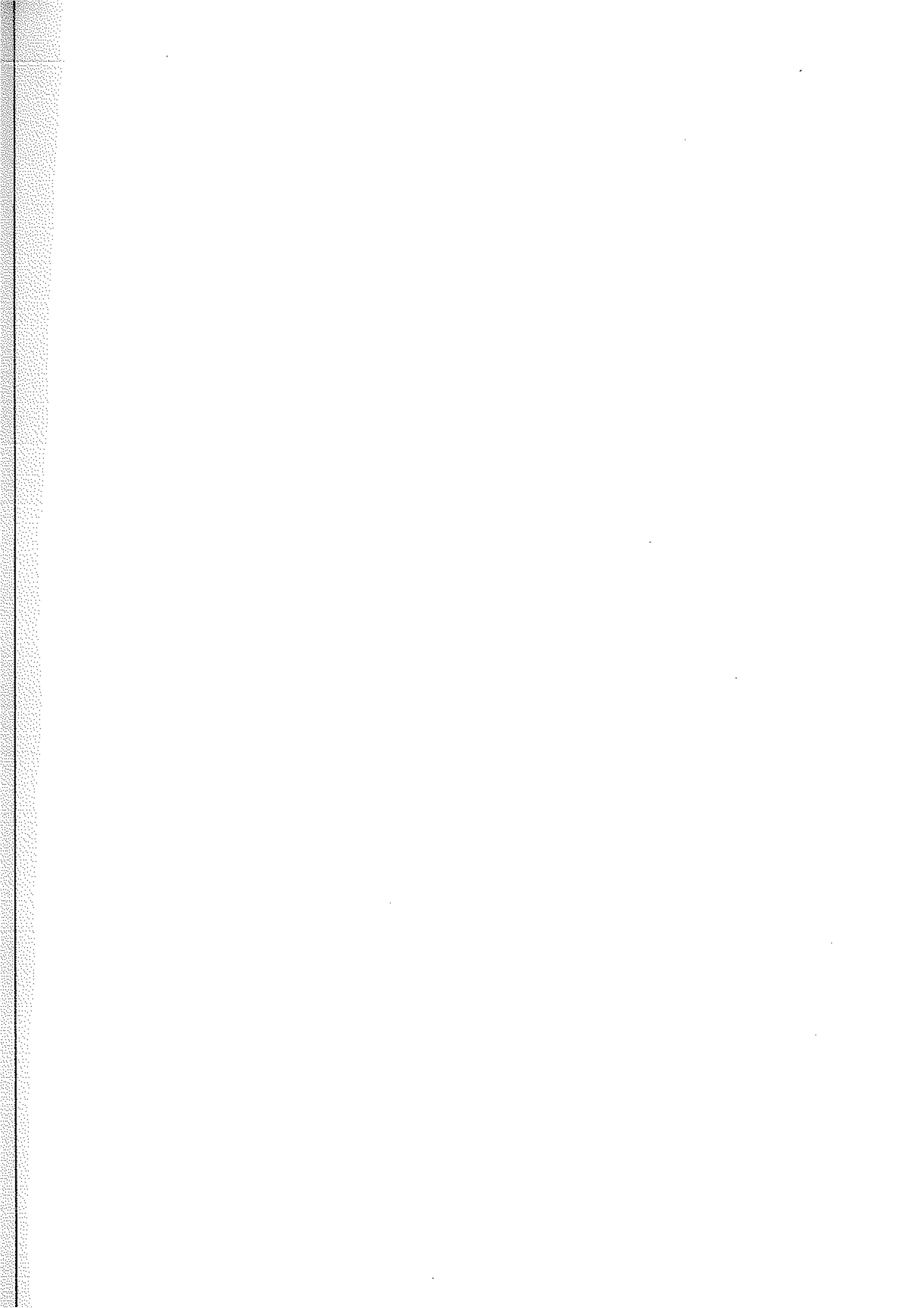
---

(٤٥) The Guide to English grammar page 34 Dar Al Hilal Beirut 1986.

(٤٦) النساء ٢٨ .

الباب السادس

الجانب النحوي



الفصل الأول

الجانب النحوي

أولاً ــ تمهيد

للدراسات اللغوية قديمها وحديثها منهجان أساسيان: منهج معياريّ ومنهج وصفي، الأول يرمي إلى صيانة اللغة المدروسة من اللحن والانحراف، ويسعى إلى الحفاظ على اللهجة الفصيحة من الهجنة، ويعدها المثل الأعلى فيما يقال، وفيما يكتب. والثاني لا يعبأ بصحة أو خطأ، وفصاحة أو شذوذ، بل يقصر همه الأول على وصف ما تتداوله الألسن في بيئة محدودة وزمن محدود. ويستنبط مما يصف أنظمة اللغة ونواميسها، سواء أكانت موافقة لمعايير الفصاحة أم مفارقة لها.

ولما كان النحو من أهم الفروع اللغوية فإنه تأثر بهذين المنهجين تأثّراً واضحاً، وكان للمرحلة التاريخية التي يدرس فيها النحو، وللأحوال الثقافية المحيطة بدراسته تأثيرها في اختيار المنهج وصبغه بصبغة معينة. ولنا في دراسة النحو العربي ما يوضح هذه المسألة.

حينما شرع نحاتنا الأوائل يدرسون العربية ليصلوا إلى قواعدها كانوا يوجهون دراستهم نحو غاية محددة هي الحفاظ على قراءة القرآن الكريم سليمة من الانحراف، بريئة من أوشاب اللحن. ولذلك جعلوا اللهجة الحجازية محكّاً تُضرب عليه اللهجات الأخرى، وتماز به التراكيب الفصيحة من سواها، أي: جعلوها معياراً يُحتج به للقبول والرفض، لكنهم لم يصلوا إلى هذا المعيار إلا عن طريق المنهج الوصفي.

فلما تأثر النحو بمنطق أرسطو، وحمل لواءه كثير من المعتزلة زادت معيارية المنهج رسوخاً، وأخذ القياس يحلّ محلّ السماع لسبب معروف، وهو اختفاء البيئة الفصيحة التي كان النحاة يستلهمون منها النصوص والشواهد. فاضطروا إلى الإصرار على التعلق باللهجة

المعيارية (لهجة قريش) والمنهج المعياري، وقصروا علمهم على التعليل والتأويل والشرح والاختصار لترسيخ ما توصل إليه الأقدمون.

وبعد أن ازدهرت الدراسات اللغوية الحديثة وجد اللسانيون أن المنهج الوصفي أقرب المناهج إلى الأساليب العلمية، فانتهجوه وانتبذوا المعايير المسبقة التي تخلع على اللغة قيماً تاريخية، أساسُها الفصاحة والسلامة والنقاء. لكنهم في الوقت نفسه لم يبخسوا المنهج المعياري حقّه، ولم ينكروا القواعد التي توصّل إليها، بل أقروا بما أنجز في حدود الفترات التاريخية التي ساد فيها، وفي حدود النتائج الخاصة بكل لغة درسها نحاتها معزولة عن اللغات الأخرى، وأبقوا لهذه الدراسة اسمها القديم، وهو النحو Grammar.

ثم وسّع اللسانيون ميادين الدرس اللغوي توسيعاً ذا بعدين: بعد إنساني، وبعد قومي.

أما البعد الإنساني فيعني أنهم درسوا اللغات دراسة مقارنة ليتوصلوا إلى التراكيب النحوية التي تشترك اللغات كلها أو جلها في استعمالها.

وأما البعد القومي فمعناه مدُّ الجسور بين العلوم اللغوية الخاصة بلغة واحدة، ليدرسوا النحو والصرف على هدي البلاغة، والعروضَ على هدي الصرف، والتركيبَ النحويَّ على هدي المعاني ودلالات الألفاظ. وبذلك تُفسَّر اللغة باللغة، ويؤازر كل علم قسيمه على النحو الذي كان علماؤنا الأقدمون يؤثرونه ويطبقونه في دراسة اللغة وتدريسها، وسموا هذا العلم علم التركيب: Syntax[1]. ومن غير المستغرب أن يؤدي هذا المنهج الموسّع إلى اتساع الموضوعات التي درسها اللسانيون. فما أهم البحوث التي درسوها تطبيقاً لهذا المنهج الموسع المتكامل؟

ثانياً ـــ دراسة الجمل

إذا كان الجانب الصرفيّ معنيّاً بدراسة المفردات، فالجانب النحوي معني بدراسة الجمل، وذلك لأن المفردات إن لم تنتظم في جمل ذوات روابط لم تستطع أن تعبر عن تفكير منظم. ومن المعروف أن تفكير الإنسان وتعبيره مرتبطان بالعادات اللغوية، أي أن بناء الجمل يتم وفق عادات تفرضها لغة المجتمع على الفرد.

---

(١) انظر مدخل إلى الألسنية، يوسف غازي ص٢١٤ منشورات العالم العربي الجامعية دمشق ١٩٨٥م. ومدخل إلى علم اللغة، د. محمود فهمي حجازي ص٦٦ وما بعدها.

ومع أننا «نفكر بجمل»[٢] كما يقول فندريس، فإننا لا نتوقف لنفحص ما يجري في الدماغ من عمليات عقلية معقدة إلا حينما نتعلم لغة أجنبية، يختلف فيها بناء الجمل عما ألفناه في لغتنا القومية. فما الجملة؟ وممَّ تتألف؟

يلتقي المنطق والنحو في تعريف الجملة، ويختلفان في المصطلحات. يقول المناطقة: «كل مفردين تجري بينهما نسبة موجبة أو سالبة فأحدهما موضوع والآخر محمول، ومجموعهما مع النسبة بينهما قضية. والموضوع في الجمل العربية يأتي مبتدأً أو نحوه إذا كانت الجملة جملة اسمية، ويأتي فاعلاً أو نحوه إذا كانت الجملة جملة فعلية. وأما المحمول فهو الركن الثاني من ركني الإسناد، وهو الخبر أو ما يقوم مقامه في الجملة الاسمية، أو الفعل أو ما يقوم مقامه في الجملة الفعلية. وأما النسبة بين الموضوع والمحمول فتدل عليها حركة الإعراب، وهيئة تركيب الجملة»[٣].

ويقول النحاة بلسان ابن هشام: «اللفظ المفيد يسمى كلاماً وجملة»[٤]: «ونعني بالمفيد ما يحسن السكوت عليه، وأن الجملة أعم من الكلام، فكل كلام جملة، ولا ينعكس»[٥]. ومما ذكرنا يتبين أن الكلام والجملة «ليسا مترادفين كما يتوهم كثير من الناس»[٦]. ويقول الدكتور مازن المبارك في توضيح كلام ابن هشام: «وأما الجملة عند جمهور النحاة فتعبير صناعي، أو مصطلح نحوي لعلاقة إسنادية بين اسمين، أو اسم وفعل، سواء أتمت الفائدة بها أم لم تتم، ولذلك فهي أعمُّ من الكلام، والكلام أخصُّ منها»[٧]. فإن قلت: النحو مفيدٌ، فقد أسندت الإفادة إلى النحو، وهذا الإسناد يجعل الكلمتين جملة، وهما في الوقت نفسه موضوع ومحمول، وهما أيضاً كلام لأنهما مفيدان فائدة يحسن السكوت عليها.

وإذا قلت: إنْ يفد النحو، فقد أسندت يفد إلى النحو فالإسناد جعل الكلمتين جملة، لكن الفائدة لم تتمّ بهما فهما ليسا بكلام. ولعلك لاحظت أن الجملة تكون اسمية

---

(٢) اللغة لفندريس ص١٠٤.

(٣) ضوابط المعرفة، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ص٢٠ دار القلم دمشق ١٩٩٣م.

(٤) نكتة الإعراب لابن هشام ص٣٦ تح د. غازي مختار طليمات دار طلاس دمشق ١٩٩٦م.

(٥) الإعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام ص٣٥ تح علي فوده نيل الرياض ١٩٨١م.

(٦) مغني اللبيب لابن هشام ص٤٩١ تح: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله وسعيد الأفغاني بيروت ١٩٧٩م.

(٧) المباحث المرضية المتعلقة بمن الشرطية لابن هشام، تح: د. مازن المبارك ص٥٠ دمشق دار ابن كثير ١٩٨٧م.

كالمثال الأول، وتكون فعلية كالمثال الثاني، وقد تكون مركبة من جملتين إحداهما أكبر من الأخرى، فتكون الصغرى خبراً لمبتدأ الكبرى نحو: التعليمُ غايتُه التفهيم.

وخلاصة القول في تركيب الجملة أنها مسند ومسند إليه. فإن أحببت أن تزيد عليهما ألفاظاً تكمل المعاني كالمفاعيل والظروف كان لك ذلك، غير أن هذه الفضلات مهما تكثر لا تصنع جملة أخرى، ولا تجعل الجملة الواحدة جملتين. وعلى هذا الأساس الإسنادي قد تجد في كلام العرب جملة من حرف واحد كقولك لمن تطلب منه الوفاء: فِ فهذه الفاء بقية الفعل (وفى) أي المسند، وأنت الفاعل المستتر هو المسند إليه. وبالمقابل قد يمرُّ بك بيت كامل فلا تجد في شطريه على كثرة ألفاظهما جملة واحدة لخلوهما من الإسناد، كقول عمر أبي ريشة:

من نضال عاثر مصطخب لنضال عاثر مصطخب[٨]

وتمييز الفعلية من الاسمية يستند إلى رتبة المسند ورتبة المسند إليه. فإن بدأت بالفعل وأتبعته الفاعل كقولك ظهر الحق فالجملة فعلية. وإن أخرت الفعل وقدمت المسند إليه فقلت: الحق ظهر انقلبت الصورة اللفظية، وبقي المعنى[٩]، وهنا يختلف النحاة.

فالكوفيون يرجحون المعنى على المبنى، ولا يأبهون للرتب، ويقولون الحق هو الفاعل سواء أتقدم أم تأخر. والكوفيون يرجحون المبنى، ويقولون متى تغير الترتيب صحبه مقدار من التغير في المعنى. إنهم يتقيدون بالشكل، وينكرون بقاء الفاعل فاعلاً بعد تقدمه، ثم يلتمسون لتغير الترتيب في التركيب تغيّراً في المعنى. ويقولون: إذا قدمت الاسم جعلته موضع الاهتمام، وإذا قدمت الفعل نقلت إليه بؤرة الاهتمام. إن همَّك في الاسمية إبراز الحق، وإن همك في الفعلية إبراز الظهور، وعلى هذا فجملة: الحق ظهر جملة اسمية، ومركز الاهتمام فيها المبتدأ.

ويظهر عوار الرأي البصري في تحليل الجملة المبدوءة باسم سبقته أداة شرط كقوله تعالى: ﴿إذا السماء انشقت﴾[١٠]. فهم لا يعدون السماء مبتدأ، خبرُه جملةُ انشقت على طريقتهم في تحليل الحقُّ ظهر. ولا فاعلاً مقدماً لفعل انشقت المتأخر على طريقة الكوفيين في التحليل. بل يقدرون فعلاً للسماء وفاعلاً لانشقت فيجعلون الجملة الواحدة نصفي

---

(٨) ديوان عمر أبي ريشة ص٤٤٢ دار العودة بيروت ١٩٨١م.

(٩) انظر جامع الدروس العربية ٢/٢٣٨ ـــ ٢٤٠.

(١٠) الانشقاق ١.

جملتين ، ويذهبون إلى أن التقدير : انشقت السماء انشقت هي . وفي ذلك ما فيه من تكلف لا مسوغ له .

ويبدو من إحصاء الجمل العربية وقياس الاسمية إلى الفعلية أن الفعلية أشيع ، وأجلُّ شأناً لأنها أحفل بالمعاني . والدليل على ما نذهب إليه أنك لو أحصيت جمل الأبيات الثلاثة الأولى من معلقة امرىء القيس : « قفا نبك ... » لوجدت فيها خمساً فعلية ، وجملة اسمية واحدة . ولعل كثرة الجمل الفعلية هي الدليل على أصالتها ، وعلى فرعية الجمل الاسمية . ولذلك يذهب بعض المشتغلين بعلم المعاني إلى أن بين الجمل الاسمية جملاً محولة عن جمل فعلية . فقولك الحق ظهر محولة عن ظهر الحق ، والباطل هُزم محولة عن : هزم الباطل ، والمخلصون يثيبهم الله محولة عن : يثيب الله المخلصين[(١١)] .

والجملة الاسمية المحوّلة عن الفعلية هي تلك التي صدرها اسم وعجزها فعل . أما التي صدرها وعجزها من الأسماء الخالصة كقوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾[(١٢)] فهي غير محولة ، ويسميها أحد المستشرقين الجملة الاسمية المحضة ، ويرى أنها تركيب قديم ، تفردت به اللغات السامية ، وافتقرت إليه اللغات الأوروبية[(١٣)] .

ومن يحلل بنية الجملة الإنكليزية يجد الفعل عنصراً أساسياً في تركيبها ، سواء أكان فعلاً أساسياً نحو : He went to London أم من أفعال الكون الثانوية الرابطة بين اسمين نحو : The boy is lazy . وإذا عددنا كل جملة تبدأ بالاسم اسمية قلنا : ليس في الإنكليزية غير الجمل الاسمية ، أي : الجمل التي صدورها أسماء وأعجازها أفعال . فإن تصدر الفعل انقلبت الجملة من الخبر إلى الاستفهام نحو ?Are you going وهذا النوع من الجمل يسمى الجمل البسيطة Simple Sentences[(١٤)] .

وإلى جانب الجمل البسيطة يستعمل الإنكليز ما يعرف باسم الجملة المركبة Compound Sentence[(١٥)] وهي مركبة من جملتين بسيطتين تربطهما أداة رابطة ، أو تفصل بينهما فاصلة إملائية من علامات الترقيم ، نحو : .She failed, for she never studied . وهذه الجمل بسيطها والمركب لا تبدأ بالأفعال ، فهي لذلك تعادل الجملة الاسمية الكبرى في اللغة العربية ، أي التي مبتدؤها اسم ، وخبرها جملة فعلية .

---

(١١) انظر مباحث في علم المعاني ، محمد طاهر الحمصي ص٣٤ وما بعدها . جامعة البعث حمص ١٩٨٧م .

(١٢) النور ٣٥ .

(١٣) انظر التطور النحوي ، برجشتراسر ص١٣٤ وما بعدها .

(١٤) The guide to English Grammar page 131.

(١٥) المصدر السابق ص١٣٣ .

ولعل الفرق الجوهري بين الجملتين العربية والإنكليزية هو اعتماد الإنكليزية على الترتيب في تمييز العامل من المعمول، واعتماد العربية على حركات الإعراب نحو ﴿وثيابك فطهر﴾[١٦]، ونحو ﴿إن مع العسر يسرا﴾[١٧]. فإذا اختفت علامات الإعراب لم يكن بد من الاعتماد على الترتيب، نحو: زار أخي صديقي فالأخ الزائر، والصديق المزور. ويسمى الشكل الأول من الجمل النمط الإعرابي، لأن حركة الإعراب تحدد وظيفة الكلمة في الجملة. ويسمى الشكل الثاني النمط التحليلي لأن معرفة الوظيفة التي تقوم بها الكلمة في الجملة تنجم عن تحليل التركيب اللفظي. والنمط الإعرابي أشيع النمطين في لغة العرب لأنها لغة معربة، والنمط التحليلي هو الشكل السائد في اللغات الأوروبية لإهمالها الإعراب.

ويبدو أن اللسانيات الحديثة لم تر في التقسيم السابق للجمل إلا دراسة سطحية، لا يكشف عن تركيبها الدقيق، فعمدت إلى إعادة النظر في النحو التقليدي، وأعملت في التراكيب الإسنادية مباضع التشريح لتقف على العناصر الأساسية في بنائها. فكيف فهم اللسانيون المركبات الإسنادية، وما الطرائق التي اتبعوها في تحليلها؟

ثالثاً ــ طرائق اللسانيات في تحليل المركبات الإسنادية

إذا ألحقت كلمة (بك) بكلمة (بعل) صنعت من الكلمتين مركباً مزجياً هو: بعلبك. وإذا أضفت كلمة (بحر) إلى (الظلمات) أفضيت إلى مركب إضافي، هو: بحر الظلمات. وإذا وصفت البحر بالحمرة نجم عن صنيعك مركب وصفي، هو البحر الأحمر. غير أن كل تركيب من هذه التراكيب الثلاثة غدا كالكلمة الواحدة، لأنه بعد التركيب لم يحمل أكثر مما في الكلمتين المنفردتين، ثم فقد دلالته على معنييْ الكلمتين حينما صار علماً لمدينة أو بحر. فأنت لا تفكر في حمرة إذا ذكرت البحر الأحمر، ولا يخطر لك الظلام إذا ذكرت بحر الظلمات.

أما إذا قلت: أظلم البحر، أو: البحر مظلم فقد نجم عن إسنادك الظلام إلى البحر تركيبٌ إسنادي يحمل معنى جديداً، لا تجده في الظلام وحده، ولا في البحر وحده، هو إثبات الظلام للبحر. ولا يتم الإسناد عند النحاة والمناطقة إلا بعنصرين: المسند الذي يسميه المناطقة المحمول، والمسند إليه الذي يسمونه الموضوع. وهذان العنصران متوافران في اللغات

---

(١٦) المدثر ٤.

(١٧) الانشراح ٦.

الإنسانية كلها أو جلها، وإن اختلفت اللغات فالخلاف في طرائق الإسناد لا في عناصره الجوهرية.

ولهذا عكف اللسانيون على تحليل التراكيب الإسنادية في مختلف اللغات لاعتقادهم أن أصول الإسناد متطابقة، وإن اختلفت الصور والفروع، وسلكوا في تحليلها ثلاثة اتجاهات، وهي الاتجاه الوظيفي Fonctionnalisme والاتجاه التوزيعي Distributionnalisme والاتجاه التوليدي التحويلي Transformational Generative System :

١ ــ الاتجاه الوظيفي

إذا كان اتباع المنهج الوصفي هو السمة الأولى للنحو الحديث، فإن هذا المنهج لا يغفل العلاقات التي تربط أجزاء الجملة، بل يُعنى بها كل العناية. وعنايته تلك تضيف إلى النحو الحديث سمة ثانية، وهي أنه نحو وظيفي، لأنه يقوم على إدراك الدور الذي تقوم به الكلمة في الجملة. وقيام كل كلمة من كلمات الجملة بوظيفتها يؤدي آخر الأمر إلى ظهور نظام خاص في رصف الألفاظ، يساعد على ترجمة الفكرة المتخلجة في ذهن المتكلم.

ولا يفهمن من ذلك أن للمتكلم الحرية الكاملة في اختيار النظام الذي ينتظم أجزاء الجملة، وإنما هو أسير العلاقات الثقافية واللغوية التي ترسم له أنظمةً خاصة في رصف الكلمات. فالكلمة المفردة جزء من آلة صغيرة متعاونة هي الجملة، كما أن الفرد جزء من آلة كبيرة متعاونة هي المجتمع. وهذا يعني أن التحليل الوظيفي للجملة رهين البيئة اللغوية.

ويذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن تحليل الجملة ــ وإن كان يردها إلى مسند ومسند إليه ــ لا يرتبط بالمعنى النحوي لطرفي الإسناد، أي: ليس شرط المسند أن يكون خبراً أو فعلاً، ولا شرط المسند إليه أن يكون مبتدأ أو فاعلاً، بل يتحدد كلٌّ منهما استناداً إلى ما تثيره كل كلمة من كلمات الجملة من الانتباه. فالمسندُ، كما يرى الاتجاه الوظيفي، هو المعنى المألوف الذي لا يثير ذكره اهتمام المتكلم أو السامع. والمسند إليه هو المعنى غير المألوف المراد إفادة السامع بمعرفته. فإن قيل لك: أين شاهدت النمر؟ فقلت: شاهدت النمر في الغابة. فالفعل (شاهدت) عنصر ثانوي انتقالي، و (النمر)، وإن كان مفعولاً به، هو المسند، لأنه معروف دلّ عليه سؤال السائل، و (في الغابة) هو المسند إليه، وإن لم يكن مبتدأ ولا فاعلاً، لأنه المعنى المقصود تحديده بالسؤال. وهو أهم ما في هذا التركيب.

وبناء على هذا لم يبق التحليل معتمداً على الكشف عن ركني الإسناد: المبتدأ والخبر، أو الفعل والفاعل، بل أصبح التحليل معنياً بالكشف عما في الوحدة اللغوية من قدرة فعالة على الاتصال اللغوي Communicative Dynamism. وهنا تُختار الكلمة المثيرة، فتجعل

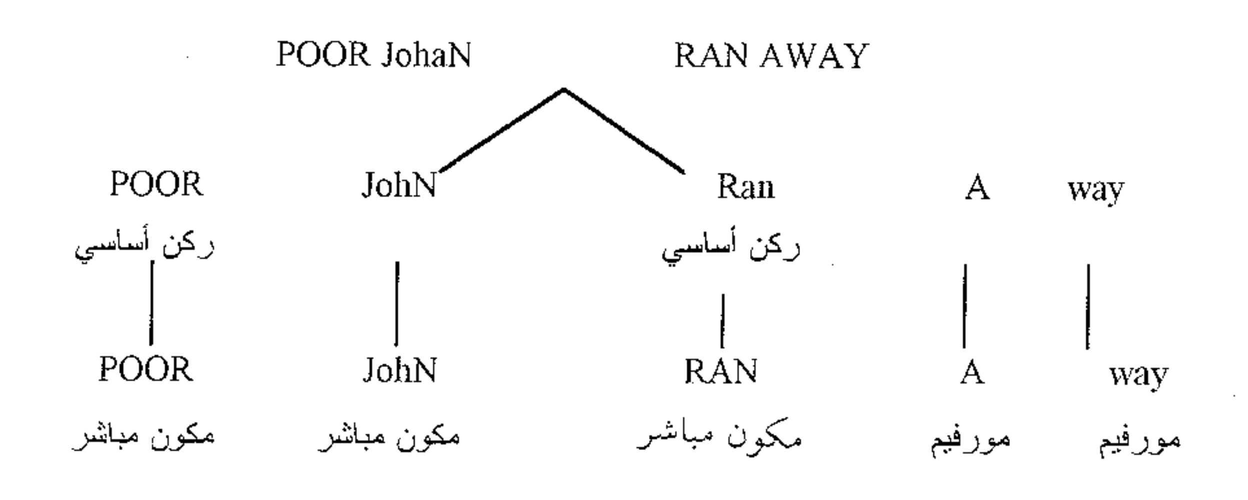
النواة المركزية المشعة في الجملة، وتسمى المسند إليه الصريح Reheme Proper[١٨] .

ومما تحسن الإشارة إليه ههنا أن الجملة لا تحلل معزولة عن السياق الذي وردت فيه، بل تحلل على ضوء ما يكتنفها من عبارات تحدد نواتها. فلو لم تسمع السؤال عن مكان الثمر، ما أدركت أن الغابة الواردة في الإجابة بؤرة الجملة ونواتها، مع أن الغابة ليست المسند ولا المسند إليه وفق المفهوم النحوي التقليدي.

والوظيفيون الغربيون ليسوا سواء في التحليل. فمنهم من يرى أن الفعل هو نواة الجملة، وأن المسند إليه التقليدي (أي الفاعل أو المبتدأ) أقل شأناً، وأن الفاعل والمفعول معاً دون الفعل وحده مكانةً وإثارة. فإذا قلت: الشاعر ينشد القصيدة، ففعل الإنشاد لا الشاعر ولا القصيدة نواة الجملة[١٩] .

٢ ـــ الاتجاه التوزيعي

إن الأساس الذي بُني عليه الاتجاه التوزيعي هو أن اللغة كلها، لا الجملة وحدها، مبنيةٌ من لبنات أو وحدات متراصفة، يمكن إدراكها، وتمييز بعضها من بعض بالتوزيع والتفريع. فإذا أردت أن توزع المثال الإنكليزي الذي ضربه بلومفيلد وهو: Poor John Ran Away فاقسمه إلى ركنين أساسين، ثم حلل كل ركن منهما إلى مورفيماته على النحو التالي:



(١٨) للاستزادة من التمرس بهذا النمط من التحليل راجع (مبادىء اللسانيات العامة) لمارتينيه ص١٢٣ .

(١٩) لتفصيل هذا الرأي انظر كتاب (مدخل إلى اللسانيات) لرونالد إيلوار ص١٢٢ ترجمة بدر الدين القاسم. وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٨٠م. ومبادىء اللسانيات، د. أحمد محمد قدور ص٢٤١ .

وإذا أبيت إلا أن تجري هذا التوزيع على جملة عربية فدونك الجملة التالية:

الأطفال يحبون اللعب

الأطفال (ركن) | يحبون اللعب (ركن)

الأطفال (مكون مباشر) يحبون (مكون مباشر) اللعب (مكون مباشر)

أل (مورفيم+ أطفال (مكون) يحب (مكون+ ون(مورفيم) الـ(مورفيم)+ لعب (مكون)

وليست هذه الطريقة التوزيعية هي الشكل الوحيد الذي توصل إليه أصحاب هذا الاتجاه. فمنهم من وزع عناصر التركيب اللغوي توزيعاً هرمياً، ومنهم من فرعها على شكل شجرة، ومنهم من جعلها قوساً منحنية[٢٠]. وهذه الطرق التي شق الطريق الأولى منها بلومفيلد تهدف إلى تحقيق غاية واحدة، وهي أن يقف الباحث اللغوي على العناصر المكونة للتراكيب. ومحصلة هذه الطرق أنك لو أردت أن تحاكي تركيباً منها لجأت إلى طريقة التعويض، فاستبدلت ببعض المكونات التي يشتمل عليها التركيب مكونات أخرى، فيتحصل لك تركيب جديد الفكرة، نمطيُّ الشكل.

٣ ـــ الاتجاه التحويلي التوليدي

مع أن الشهرة التي أصابها اللغوي الأمريكي تشومسكي[٢١] A. N. Chomsky تعود إلى نظريته في النحو التحويلي التوليدي فإن في كتبه ثلاثة أنواع من النحو:

أولها نحوُ الحالةِ المحدودة Finite State وهذا النحو «يحاول أن يفهرس السلاسل النحوية للجملة»[٢٢]. والفكرةُ الأساسية فيه «أن النحو يجب أن يكون مجموعة محدودة من القواعد تولّد عدداً غير محدود من الجمل التي تسير وفق القواعد»[٢٣].

وثانيها نحوُ التراكيب العباري Phrase Structure. وهذا النحو «يذهب وراء النحو ذي الحالة المحدودة. وهو يتكون من تحليل الجمل إلى الوظائف التركيبية Syntactic لكلماتها

---

(٢٠) للوقوف على هذه الطرق راجع: مدخل إلى الألسنية، يوسف غازي ص٢٢٤ وما بعدها.

(٢١) أفرام نعوم تشومسكي: لغوي أمريكي يهودي، ولد سنة ١٩٢٨ في فلادیلفیا من ولاية بنسلفانيا. دَرَس في جامعة بنسلفانيا، ثم في جامعة هارفرد. كان يميل إلى النزعات المتطرفة كالفوضوية، ثم أصبح اشتراكياً. وهو يدعي أن لليهود وجوداً تاريخياً في فلسطين، ويستند في إثبات هذا الوجود إلى أساطير التوراة (عن نظرية تشومسكي اللغوية) ترجمة حلمي خليل ص١٣ ـــ ١٥ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥م.

(٢٢) تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه ص١٠٩ د. صبري إبراهيم السيد الإسكندرية ١٩٨٩م.

(٢٣) تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه، د. صبري إبراهيم السيد ص١٠٩.

وعباراتها ، وتصنيف الكلمات باعتبارها أجزاء للكلام »[٢٤] .

« والنوع الثالث هو النحو التحويلي Transformational الذي أضيف إليه بعد ذلك النحوُ التوليدي ، فأصبح المصطلح الذي يعرف به Transformational Generative »[٢٥] وأهمّ ما يميز هذا النمط من النحو التوليدُ الناجم عن التحويل ، أي : أنه « يولد جمل اللغة كلها من الجملة النواة Kernel ، وهي الجملة الخبرية البسيطة المبنية للمعلوم »[٢٦] مثل : The man hit the ball وهذه الجملة النواة ، أو قل : هذا الخيط الأساسي مصدر خيوط تتفرع منه ، إذ يمكن أن تستخلص من هذا التركيب الأساسي بالتوليد « الجملة المنفية Negative والجملة المبنية للمجهول Passive والجملة الاستفهامية Interrogative ... الخ »[٢٧] .

والتحليل التشومسكي يرد الجمل إلى مستويين : المستوى التركيبي Syntantic Level والمستوى الفونولوجي Phonological Level . والمقصود بالأول ردّ الجملة إلى كلمات متعاقبة في الجملة . وبالثاني ردّها إلى فونيمات متراصفة ، أي : إلى وحدات صوتية . ومع أن الأساس الذي قام عليه نحوُ تشومسكي وصفيٌّ لفظي لا يأبه بدلالات الكلمات ، فإنه في الفترة الأخيرة أوْلى الجانب الدلاليّ حظّاً من العناية في تحويله وتحليله للجملة .

جوهر هذا الأساس الوصفي أن تشومسكي يصف الطرائق التي يتم بها الانتقال من البنية العميقة للجملة Deep Structure إلى الشكل النهائي لها ، وهذا الشكل النهائي يسميه تشومسكي البنية السطحية Surface Structure . ولما كان التحويل والتوليد يفتحان أمام الجملة العميقة طرائق متعددة في التركيب ، فقد كثرت التراكيب السطحية ، وتعددت أنماطها وصورها . فمن الجملة الإنكليزية التي ذكرناها قبل ، وهي The man hit the ball نستطيع أن نولد بالتحويل جملاً كثيرة سطحية منها :

1) Did the man hit the ball?

2) The man did not hit the ball.

3) The ball was not hit by the man.

كما نستطيع أن نصوغ عبارات أخرى كثيرة منها :

4) Who hit the ball?

5) If the man hit the ball.

6) The man is hitting the ball.

---

(٢٤) المصدر السابق ص١١١ .

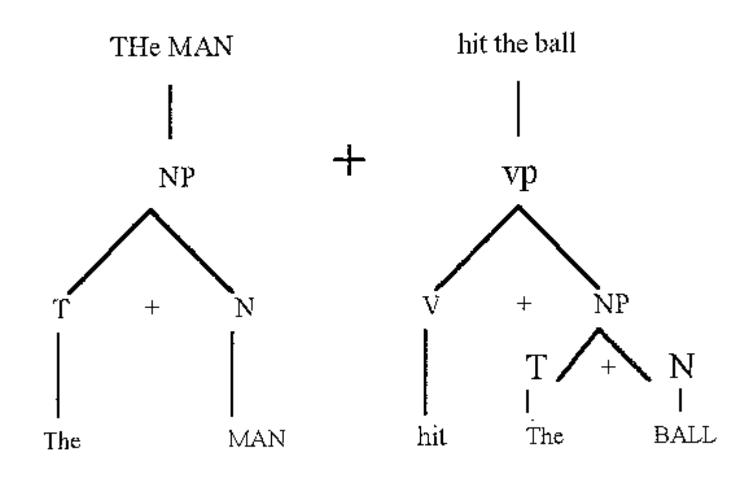
(٢٥) المصدر السابق ص١١٢ .

(٢٦) المصدر السابق ص١١٢ .

(٢٧) المصدر السابق ص١١٢ وما بعدها .

ولو أدخلت في نسيج العبارة الأصلية خيوطاً لفظية أخرى كالصفات والظروف وحروف الجر لوصلت إلى صور عديدة من جمل وعبارات تدل على مبلغ الثراء الذي ينطوي عليه هذا الأسلوب التحويلي التوليدي(٢٨) .

بتحليل الجملة الأساسية وردّها إلى عناصرها الأولى تستطيع أن تردها إلى مركبين أساسين : أولهما مركب اسمي هو the man ورمزه التحليلي NP والثاني مركب فعلي وهو مع الاسم المرتبط به : Hit the ball ورمزه VP وبعد هذه الخطوة تأتي الخطوة الثانية، وهي أن تفرع الجملة كلها على النحو المشجر التالي(٢٩) .



وبعد أن طور تشومسكي آراءه، وأدخل العناصر الدلالية في قواعده التحويلية التوليدية تعدّدت أنماط التحليل لديه ولدى مريديه، فحفلت كتبهم بأشكال من التحليل مشجرة ومدورة، ومربعة ومفرعة تطلب في مظانها من كتبه وكتب من درسه(٣٠) . وحسبنا ههنا تلك الإطلالة السريعة على تحليل تشومسكي وتحويله وتوليده، لئلا تخرج بنا الإطلالة إلى الإطالة، والإطالة إلى الملالة، أو إلى الانتقال من علم اللغة العام إلى اللسانيات الحديثة .

رابعاً ــ معنى الزمن بين الصرف والنحو

يعد الزمن معنى من المعاني النحوية المجردة . وهو يخالط الفعل، فيقيّد وقوعه بوقت من الأوقات. ولكل لغة أسلوبها في تحديد الزمن، غير أن اللغات ــ على اختلافها في تحديد

---

(٢٨) المصدر السابق ص١١٦ .

(٢٩) عن كتاب نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز ص١٢٦ ترجمة حلمي خليل .

(٣٠) من هذه الكتب نظرية تشومسكي اللغوية ص١٤٩، ١٥٨ واللسانية التحويلية التوليدية لعادل فاخوري ص٦١ وما بعدها .

الأزمنة وتقسيمها ــ تتفق في الخطوط العريضة للتحديد والتقسيم. فأكثر اللغات تصرف الأفعال تصريفاً Conjugation يوزعها على ثلاثة حقول زمنية وهي الماضي والحاضر والمستقبل.

الحاضر أضيق الحقول الزمنية، ومعناه في العربية اللحظة الفاصلة بين الماضي والمستقبل. والظرف الدال عليه هو (الآن)، وتعرفه كتب اللغة بأنه «الوقت الذي أنت فيه»(٣١). والماضي كل ما سبقه من الأزل إلى زمان التكلم، أي إلى الآن. والمستقبل كل ما يلحقه من الآن إلى الأبد بلا تفصيل.

وصيغ الزمن الفعلية الأساسية ثلاث هي: فَعَل، يفعل، افعلْ. ويمكن تحويل (يفعل) من الحاضر إلى المستقبل بالقرائن كالسين وسوف، أو بالسياق. فهل معنى ذلك أن الأزمنة في اللغة العربية تفتقر إلى الدقة، وإلى التقسيم المتنوع كما يدعي بعض المستشرقين؟ وهل إحساس الإنسان العربي بالزمن هاجسٌ باهت، أو طائف غائم الحدود متداخل الأوقات؟

قبل أن نجيب عما سألنا يحسن بنا أن نعرض للأزمنة في اللغة الإنكليزية، زاعمين أنها تمثل الثراء اللغوي الزمني في اللغات الأوروبية التي تباهي بتنوع الأزمنة وبتصريفها المفصل للأفعال، وبما يفضي إليه هذا التصريف من توزيع منسق دقيق، يجعل كل حقل من الحقول الزمنية الكبرى أربعة حقول صغرى على النحو التالي:

١ ــ الزمن الحاضر وهو أربعة فروع:

آ ــ الحاضر البسيط	The Present Tense: I Walk
ب ــ الحاضر التام	The Present Perfect Tense: I Have Walked
ج ــ الحاضر المستمر	The Present Continuous Tense: I Am Walking
د ــ الحاضر المستمر التام	The Present Perfect Continuous Tense: I Have Been Walking

٢ ــ الزمن الماضي وهو أربعة فروع أيضاً:

آ ــ الماضي البسيط	The Simple Past: I Walked
ب ــ الماضي التام	The Past Perfect: I Had Walked

(٣١) القاموس المحيط [أين].

(٣٢) قبسنا هذا التصريف للفعل بحسب الأزمنة من كتاب:

A Reference Guide to English page 334-345, Alice Maclin Usia Edition First Published in 1994.

ج ـــ الماضي المستمر — The Past Continuous: I Was Walking

د ـــ الماضي التام المستمر — The Past Perfect Continuous: I Have Been Walking

٣ ـــ الزمن المستقبل وهو كسابقيه أربعة فروع :

آ ـــ المستقبل البسيط — The Simple Future: I Will Walk

ب ـــ المستقبل التام — The Future Perfect: I Will Have Walked

ج ـــ المستقبل المستمر — The Future Continuous: I Will Be Walking

د ـــ المستقبل التام المستمر — The Future Perfect Continuous: I Will Have Been Walking

وبالنظرة العجلى إلى هذا التقسيم المتعدد الفروع يتبين للقارىء أن في الإنكليزية اثني عشر فرعاً . وهذا يعني أن الإنكليزية أحفل بالصيغ الزمنية من العربية . فإذا جعلنا الإنكليزية نموذجاً يمثل اللغات الهندية الأوروبية ، والعربية نموذجاً يمثل اللغات السامية كان علينا أن نتقبل ما ترمى به اللغات السامية من فقر لغوي في هذا الجانب من التصريف ، وأن نتقبل ما يُرمى به الفكر السامي من نقص في إدراك الزمن ، وعجز عن تقسيمه والتمرس به ، غير أن الأمر أعقد مما تقفنا عليه النظرة العجلى .

لو كان الزمن في العربية معنى صرفياً خالصاً يستنبط من الصيغ الفعلية وحدها لكان علينا أن نتقبل ما نرمى به ، وأن ندرس الزمن في أثناء دراستنا للصيغ الصرفية على النحو المتبع في أكثر الدراسات اللغوية . غير أن للمسألة وجهين : وجهاً صرفياً طغى على اللغة الإنكليزية ، وهو يتجلى في الصيغ التي سقناها بين يدي البحث متوازية كأنها معادلات الرياضيات . ووجهاً نحوياً يتجلى في العربية . إذ تستطيع لغتنا بالتراكيب والقرائن والأدوات أن تترجم المراحل الزمنية ترجمة دقيقة ، تماثل أو تبزّ ما يقابلها في أكثر اللغات احتفالاً بالزمن . ولذلك آثرنا أن نلحق دراسة الزمن بالجانب النحوي ، أو أن نشرك النحو والصرف في دراسته والكشف عن أسراره .

ولا نبالغ إذا زعمنا أن الزمن في العربية يخالط أقسام الكلام الثلاثة : الاسم والفعل والحرف . وأن هذه المخالطة تتجلى في حقول الزمن الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل . فأنت تستطيع أن تجد معنى الزمن على درجات متفاوتة في الأسماء والأفعال والحروف .

فأسماء الأفعال قد تعبر عن الماضي ومنها : هيهات وشتان ، وعن الحاضر . ومنها : آه وأف ، وعن المستقبل ، ومنها صه ومه . والمصادر قد تعبر عن الحاضر كسبحانك ولبيك وعن المستقبل كرويدك . وكتب النحو نصت على أن « اسم الفاعل جار على معنى الفعل المضارع

الأزمنة وتقسيمها ــ تتفق في الخطوط العريضة للتحديد والتقسيم . فأكثر اللغات تصرف الأفعال تصريفاً Conjugation يوزعها على ثلاثة حقول زمنية وهي الماضي والحاضر والمستقبل .

الحاضر أضيق الحقول الزمنية ، ومعناه في العربية اللحظة الفاصلة بين الماضي والمستقبل . والظرف الدال عليه هو (الآن) ، وتعرفه كتب اللغة بأنه « الوقت الذي أنت فيه »(٣١) . والماضي كل ما سبقه من الأزل إلى زمان التكلم ، أي إلى الآن . والمستقبل كل ما يلحقه من الآن إلى الأبد بلا تفصيل .

وصيغ الزمن الفعلية الأساسية ثلاث هي : فَعَل ، يفعل ، افعلْ . ويمكن تحويل (يفعل) من الحاضر إلى المستقبل بالقرائن كالسين وسوف ، أو بالسياق . فهل معنى ذلك أن الأزمنة في اللغة العربية تفتقر إلى الدقة ، وإلى التقسيم المتنوع كما يدعي بعض المستشرقين ؟ وهل إحساس الإنسان العربي بالزمن هاجسٌ باهت ، أو طائف غائم الحدود متداخل الأوقات ؟

قبل أن نجيب عما سألنا يحسن بنا أن نعرض للأزمنة في اللغة الإنكليزية ، زاعمين أنها تمثل الثراء اللغوي الزمني في اللغات الأوروبية التي تباهي بتنوع الأزمنة وبتصريفها المفصل للأفعال ، وبما يفضي إليه هذا التصريف من توزيع منسق دقيق ، يجعل كل حقل من الحقول الزمنية الكبرى أربعة حقول صغرى على النحو التالي :

١ ــ الزمن الحاضر وهو أربعة فروع :

آ ــ الحاضر البسيط — The Present Tense: I Walk

ب ــ الحاضر التام — The Present Perfect Tense: I Have Walked

ج ــ الحاضر المستمر — The Present Continuous Tense: I Am Walking

د ــ الحاضر المستمر التام — The Present Perfect Continuous Tense: I Have Been Walking

٢ ــ الزمن الماضي وهو أربعة فروع أيضاً :

آ ــ الماضي البسيط — The Simple Past: I Walked

ب ــ الماضي التام — The Past Perfect: I Had Walked

---

(٣١) القاموس المحيط [أين] .

(٣٢) قبسنا هذا التصريف للفعل بحسب الأزمنة من كتاب :

A Reference Guide to English page 334-345, Alice Maclin Usia Edition First Published in 1994.

ج ـــ الماضي المستمر — The Past Continuous: I Was Walking

د ـــ الماضي التام المستمر — The Past Perfect Continuous: I Have Been Walking

٣ ـــ الزمن المستقبل وهو كسابقيه أربعة فروع :

آ ـــ المستقبل البسيط — The Simple Future: I Will Walk

ب ـــ المستقبل التام — The Future Perfect: I Will Have Walked

ج ـــ المستقبل المستمر — The Future Continuous: I Will Be Walking

د ـــ المستقبل التام المستمر — The Future Perfect Continuous: I Will Have Been Walking

وبالنظرة العجلى إلى هذا التقسيم المتعدد الفروع يتبين للقارىء أن في الإنكليزية اثني عشر فرعاً . وهذا يعني أن الإنكليزية أحفل بالصيغ الزمنية من العربية . فإذا جعلنا الإنكليزية نموذجاً يمثل اللغات الهندية الأوروبية ، والعربية نموذجاً يمثل اللغات السامية كان علينا أن نتقبل ما ترمى به اللغات السامية من فقر لغوي في هذا الجانب من التصريف ، وأن نتقبل ما يُرمى به الفكر السامي من نقص في إدراك الزمن ، وعجز عن تقسيمه والتمرس به ، غير أن الأمر أعقد مما تقفنا عليه النظرة العجلى .

لو كان الزمن في العربية معنى صرفياً خالصاً يستنبط من الصيغ الفعلية وحدها لكان علينا أن نتقبل ما نرمى به ، وأن ندرس الزمن في أثناء دراستنا للصيغ الصرفية على النحو المتبع في أكثر الدراسات اللغوية . غير أن للمسألة وجهين : وجهاً صرفياً طغى على اللغة الإنكليزية ، وهو يتجلى في الصيغ التي سقناها بين يدي البحث متوازية كأنها معادلات الرياضيات . ووجهاً نحوياً يتجلى في العربية . إذ تستطيع لغتنا بالتراكيب والقرائن والأدوات أن تترجم المراحل الزمنية ترجمة دقيقة ، تماثل أو تبزّ ما يقابلها في أكثر اللغات احتفالاً بالزمن . ولذلك آثرنا أن نلحق دراسة الزمن بالجانب النحوي ، أو أن نشرك النحو والصرف في دراسته والكشف عن أسراره .

ولا نبالغ إذا زعمنا أن الزمن في العربية يخالط أقسام الكلام الثلاثة : الاسم والفعل والحرف . وأن هذه المخالطة تتجلى في حقول الزمن الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل . فأنت تستطيع أن تجد معنى الزمن على درجات متفاوتة في الأسماء والأفعال والحروف .

فأسماء الأفعال قد تعبر عن الماضي ومنها : هيهات وشتان ، وعن الحاضر . ومنها : آه وأف ، وعن المستقبل ، ومنها صه ومه . والمصادر قد تعبر عن الحاضر كسبحانك ولبيك وعن المستقبل كرويدك . وكتب النحو نصت على أن « اسم الفاعل جار على معنى الفعل المضارع

ولفظه »[٣٣] أي : أنه يحمل معنى الزمنين الحاضر والآتي . فإذا قلت لمن يسألك عن حالك : إني مسافر ، فالمعنى سأسافر . وكتب النحو نصت أيضاً على أن اسم الفاعل النكرة يعمل فيما بعده حينما « يكون بمعنى الحال والاستقبال »[٣٤] . وفي هذا النص دليل قاطع على ما فيه من عناصر الزمن . ولذلك سمى الكوفيون اسم الفاعل : الفعل الدائم . « قال ثعلب : الفراء يقول : (قائم) فعل دائم ، لفظه لفظ الأسماء لدخول علامات الأسماء عليه ، ومعناه معنى الفعل »[٣٥] .

وإذا خطر لك أن تنقض ما زعمنا فتقدر قبل المصادر أفعالاً تحمّلها معنى الزمن ، فاسم الفاعل يرفض هذا التقدير لأن زمانه فيه ، فما حاجته إلى زمان الفعل ؟

وأما الحروف ففي العربية منها ما يباشر الفعل الحاضر فيخلصه للحاضر ، ومنها ما يقلبه ماضياً ومنها ما يجعله مستقبلاً . فالحرفان (لا) و (ما) في نحو : لا يحسن أن تجامل الكذاب ، وما يحسن بك أن تجامله خلصا الفعل للحاضر . و(لم) في نحو : لم أكذب قط جعلته ماضياً ، و (لن) في نحو : لن أخادع أحداً جعلته مستقبلاً . و (لما) في نحو لمّا تشرق الشمس ، جعلت الفعل متوقع الحصول في المستقبل القريب ، و (السين) في نحو : سأقرأ ، تجعل الحاضر مستقبلاً قريباً من الحاضر ، و (سوف) في نحو : سوف أرحل تبعد المستقبل عن الحاضر . وأداة الشرط (إذا) تجعل الفعلين الماضيين بعدها مستقبلين كقول طرفة بن العبد :

إذا ابتدر القوم السلاح وجدتني ... منيعاً إذا بلت قوائمه يدي[٣٦]

وقد يتطاول المستقبل بعد (إذا) حتى يبلغ ــ وفعله ماض ــ آخر العمر في نحو : ﴿ كلا إذا بلغت التراقي ﴾[٣٧]، وآخر الدهر في نحو : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾[٣٨] .

وإذا جاوزنا الأسماء والحروف إلى الأفعال وجدنا فيها دلالات زمانية كثيرة التنوع ، لا تدل عليها الصيغة الصرفية وحدها ، بل يدل عليها معها السياق والأسلوب والأغراض

---

(٣٣) جامع الدروس العربية للغلاييني ١/١٨٦ .

(٣٤) المصدر السابق ٣/٢٨٢ .

(٣٥) مجالس العلماء للزجاجي ص٣٤٩ تح عبد السلام محمد هارون الكويت ١٩٦٢م .

(٣٦) ديوان طرفة بن العبد ص٣٨ . وهذا البيت هو البيت السابع والثمانون من معلقته، انظر الديوان طبعة صادر بيروت .

(٣٧) القيامة ٢٦ .

(٣٨) الانشقاق ١ .

البلاغية . فإبرام العقود في البيع والزواج يتم بصيغة الماضي ، والإبرام حاضر . وجمل الدعاء ، في نحو : رعاك الله ، لفظها لفظ الماضي ، ومعناها منصرف إلى المستقبل . والمستقبل المؤكد الوقوع يعبر عنه بلفظ الحاضر ليمثل بين عيني المخاطب فيتعظ به ، كقوله تعالى : ﴿ إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة ﴾[٣٩] .

ومن الإقرار بالحق ، ومن باب عزو الإنصاف إلى ذويه أن نذكر في حديثنا عن المستشرقين أن بينهم من تفقهوا في نحو العربية ، وعلى رأسهم برجشتراسر ، وهؤلاء كشفوا عما في الأزمنة العربية من تنوع ، وما فيها من دقائق وأبعاد تفوق ما في اللغات الغربية في بعض الأشياء[٤٠] .

وربما كانت الدلالات الزمنية التي توصل إليها الدكتور تمام حسان الدليل القاطع على ما زعمنا ، وعلى ما ذهب إليه برجشتراسر وأمثاله حينما درسنا ودرسوا معنى الزمن في التراكيب النحوية ، ولم ندرسه في الصيغ الصرفية ، لأن الألفاظ المتكاملة في التركيب النحوي أقدر على تجلية الأبعاد الزمنية من الصيغة الصرفية المفردة . استعان الدكتور تمام حسان الأدوات والأفعال الناقصة التي تقارب الأفعال المساعدة في اللغة الإنكليزية ، وتوصل إلى تقسيم زمني للأفعال يفوق ما في الإنكليزية ويربو على أزمنتها الاثني عشر التي ذكرناها قبلُ . وحسبنا أن نذكر منها ههنا الصور الزمنية الخاصة بالفعل الماضي ، وأن نحيل المستزيد إلى كتابه ليقف على الصور الزمنية كلها[٤١] .

آ ــ في الكلام الخبري :	ب ــ في الكلام الإنشائي الاستفهامي :
١ ــ الماضي البعيد المنقطع : كان فعل .	١ ــ هل كان فعل ؟ ألم يكن فعل ؟
٢ ــ الماضي القريب المنقطع : كان قد فعل .	٢ ــ هل كان قد فعل ؟ ألم يكن قد فعل ؟
٣ ــ الماضي المتجدد : كان يفعل .	٣ ــ هل كان يفعل ؟ ألم يكن يفعل ؟
٤ ــ الماضي المنتهي بالحاضر : قد فعل .	٤ ــ أقد فعل ؟ أما فعل ؟
٥ ــ الماضي المتصل بالحاضر : ما زال يفعل .	٥ ــ أما زال يفعل ؟ ألما يفعل ؟
٦ ــ الماضي المستمر : ظل يفعل .	٦ ــ هل ظلّ يفعل ؟ ألم يفعل ؟
٧ ــ الماضي البسيط : فعل .	٧ ــ هل فعل ؟ ألم يفعل ؟

---

(٣٩) النحل ١٢٤ .

(٤٠) التطور النحوي ص٨٩ وما بعدها .

(٤١) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ، د . تمام حسان ص٢٤٦ ــ ٢٥٢ .

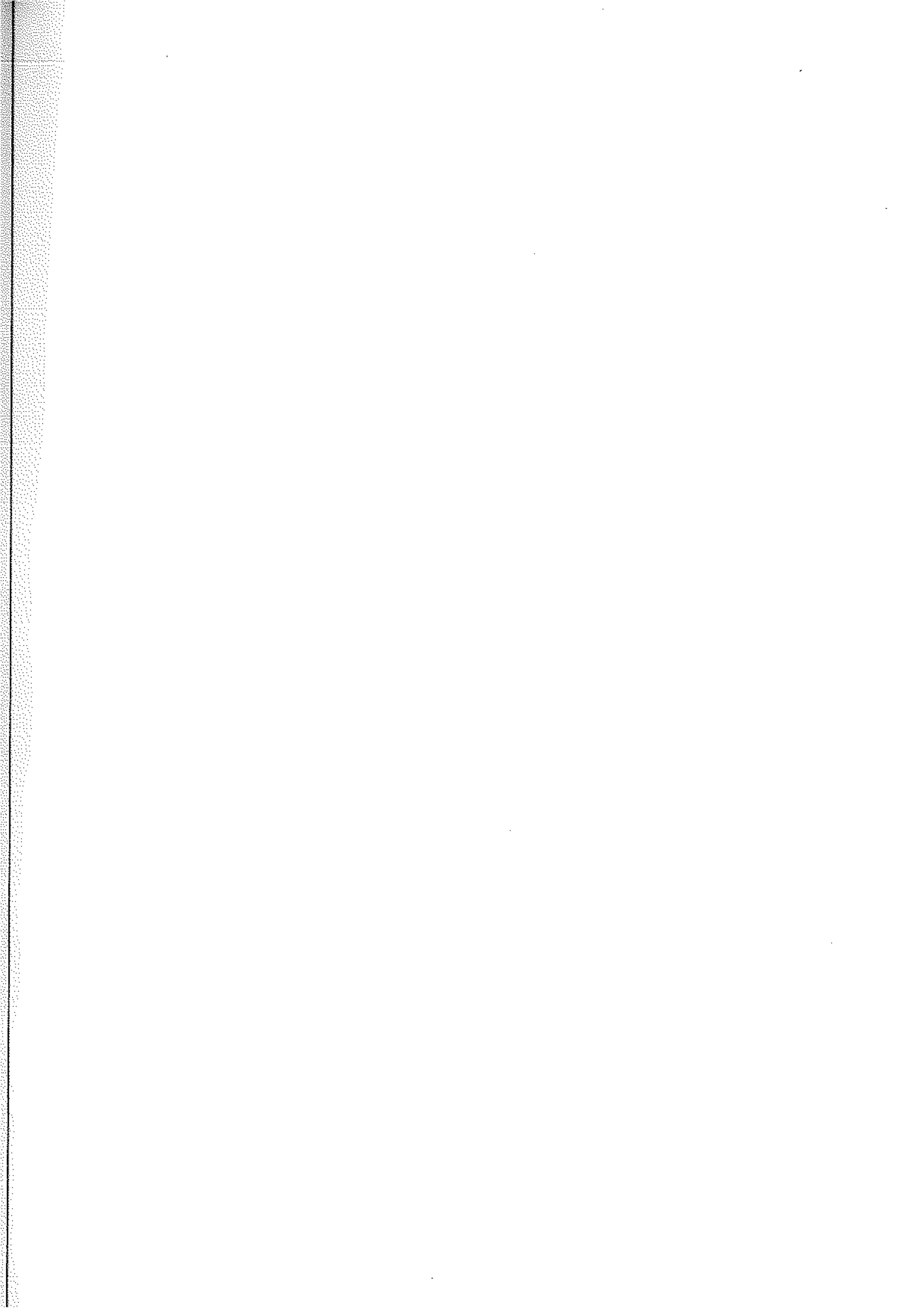
٨ ـــ الماضي المقاربي : كاد يفعل .   ٨ ـــ هل كاد يفعل ؟ ألم يكد يفعل ؟
٩ ـــ الماضي الشروعي : طفق يفعل .   ٩ ـــ هل طفق يفعل ؟ أليس يفعل ؟

ومن يقرن تفرع الزمن الماضي في اللغة الإنكليزية إلى أربعة فروع بما توصل إليه الدكتور تمام حسان يدرك أن I Walked يقارب الفعل العربي : مشيت ، أو الماضي المنتهي بالحاضر : قد مشيت . وأن الماضي المستمر I Was Walking يقارب الماضي المتجدد : كنت أمشي . وأن الماضي التام المستمر I Had Been Walking يقارب الماضي المستمر : ظللت أمشي .

وهكذا تبين بالدرس المقارن المشفوع بالأمثلة أن أربعة الفروع التي تتفرع من الزمن الماضي في اللسان الإنكليزي ليست أكثر من نصف الأزمنة التي ينطوي عليها الزمن الماضي في اللسان العربي ، وأن معنى الزمن في لغتنا لا يستنبط من الصيغ الصرفية وحدها ، بل يستنبط منها ومن التراكيب والأدوات والقرائن .

الباب السابع

الجانب الدلالي



الفصل الأول

الجانب الدلالي

أولاً ـــ تمهيد

لا يعد الباحثون المحدثون دراسة المعنى أي: دراسة الجانب الدلالي من اللغة فرعاً من فروع الدراسات اللغوية فحسب، بل يعدونه أهم هذه الفروع على الإطلاق. ولذلك سماه بعضهم «قمة الدراسات اللغوية، ورأى أنه يشغل المتكلمين جميعاً على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الفكرية، لأن الحياة الاجتماعية تلجىء كل متكلم إلى النظر في معنى هذه الكلمة أو تلك، وهذا التركيب أو ذاك. وهكذا أدلى كل متكلم تقريباً بدلوه في هذه المشكلة الخطيرة»[1].

وقبل أن ننظر فيما أدلى به أصحاب الدلاء يحسن بنا أن نشير إلى أن مصطلحيْ (المعنى) و (الدلالة) متقاربان في التراث العربي الإسلامي، وأن مصطلح الدلالة كاد يطغى على مصطلح المعنى في الدراسات اللغوية الحديثة، غير أن طغيانه لا يعني أنه أدلّ من المعنى على ما وضع له. إن سألت المعاجم أجاب القاموس المحيط: «دله عليه دلالة، ويُثلث، ودُلولة فاندل: سدّده إليه»[2]. وإن سألت المعنيين بالحدود أجابك علي بن محمد الجرجاني [ت: ٨١٦هـ] بأن المعنى ما يقصد بشيء، وبأن الشيء ما يجوز أن يخبر عنه، وتصح الدلالة عليه. وإن استوضحت النقاد قال حازم القرطاجني [ت: ٦٨٤هـ] في تعريف المعاني: «إنها الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان»[3].

أما تعريفات المتكلمين فقد اصطبغت بصبغة فلسفية لاشتغالهم بالمنطق. قال عبد

---

(١) علم اللغة، د. محمود السعران ص٢٦١.

(٢) القاموس المحيط [دل].

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ص١٨ تح محمد الحبيب بن الخوجة تونس ١٩٦٦م.

الرحيم بن الحسين الأسنوي [ت : ٧٧٢هـ] : « الدلالة هي أن يلزم من فهم الشيء فهم شيء آخر »[٤]. وأما علماء الأصول في المذهب الحنفي ، فقد ظل فهمهم للدلالة مرتبطاً باللغة على ما عُرفوا به من عنايتهم بالمنطق وبالقياس ، فهم يرون أن الدلالة تأتي من جهة اللغة عن طريق المعنى بدلالة سياق الكلام ومقصوده »[٥] .

وسواءٌ أكانت الدلالة مرادفة للمعنى أم أعمّ منه ، فإننا لن نفرق بينهما في هذا البحث ، ولكننا ـــ تأسياً بما درجت عليه الدراسات الحديثة ـــ نلتزم ما التزمت ، ونؤثر مصطلح الدلالة على مصطلح المعنى في هذا الجانب من الدرس اللغوي .

ثانياً ـــ مكانة الدرس الدلالي في تراثنا اللغوي

لا نبالغ إذا قلنا إن القمَّة التي تسنّمها الجانب الدلالي في العصر الحاضر أمر قديم أدركه علماؤنا حينما أولوه ما يستحق من الدرس . ولقد وقفتك الفقرة السابقة على أن الاهتمام بدلالات الألفاظ لم يقتصر على فرع واحد من فروع التراث ، وهو الدرس اللغوي ، بل كاد يشمل العلوم كلها من فقه ، وكلام ، وأصول ، وبلاغة ، ونقد ، ونحو . غير أن اللغويين كانوا أوسع المشتغلين به أفقاً ، وأغزرهم مادة ، وأخصبهم نتاجاً ونتائج . وربما كان صنع المعاجم ابتداء من معجم العين للخليل أول المظاهر وأدلها على ما نقول . وليس من المستغرب أن يكون للغويين قصب السبق في هذا الميدان ، لأن فهم التراث كله مرهون بالتحديد الدقيق لمعاني الألفاظ .

يلي ذلك الميلُ إلى جمع الألفاظ وفق ترتيب فكري ، أي سردها تبعاً لانتمائها إلى موضوع واحد . ألف أبو عمرو الشيباني [ت : ٢٠٦هـ] كتاب الإبل ، وكتاب النحل والعسل[٦] ، وألف الأخفش الأوسط [ت : ٢١١هـ] في صفات الغنم وألوانها وعلاجها وأسنانها[٧] ، وألف الأصمعي [ت : ٢١٣هـ] كتاب الشاء[٨] ، وألف أبو نصر أحمد بن حاتم [ت : ٢٣١هـ] كتاب الطير[٩] ، وألف ابن السكيت [ت : ٢٤٤هـ] منطق

---

(٤) نهاية السول في شرح منهاج الأصول للأسنوي ١٨٧/١ طبعة صبيح .

(٥) مناهج الأصوليين في طرق دلالات الألفاظ على الأحكام د. خليفة بابكر الحسن ص١٧٧ مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨٩م .

(٦) الدراسات اللغوية عند العرب ، محمد حسين آل ياسين ص١٩٨ ـــ ١٩٩ مكتبة الحياة بيروت ١٩٨٠م .

(٧) المصدر السابق ص١٩٩ .

(٨) المصدر السابق ص١٩٩ .

(٩) المصدر السابق ص١٩٩ .

الطير[١٠] . ومن يستعرض فهرست ابن النديم ، وكتب الرجال والطبقات يظفر بأضعاف ما ذكرنا . ومع أن أكثر هذه الكتب مفقود ، فالعنوانات وحدها تدل على كثرة المؤلفات ، وتنوع الموضوعات .

ثم تحوّلت هذه الرسائل إلى كتب جامعة ، تعرف بمعاجم المعاني ، أبرزها فقه اللغة لأبي منصور الثعالبي [ت : ٤٢٩هـ] والمخصص لابن سيده [ت : ٤٥٨هـ] . ويعد المخصّص أوسع ما صنف في هذا الباب ، وهو محصلة لكل ما جمع الأقدمون من كتب ورسائل ، وموسوعة لغوية ضخمة صبت فيها قرائح اللغويين .

وثالث المظاهر التي يتبدى فيها اهتمام العرب بعلم الدلالة صنعُ المعاجم على أساس الاشتقاق ، وأبرز هذه المعاجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس اللغوي [ت : ٣٩٥هـ] ، ثم صنعُها على أساس التمييز بين الاستعمال الحقيقي والاستعمال المجازي للألفاظ ، وأبرز ما صنف من هذا النمط أساس البلاغة لجار الله الزمخشري [ت : ٥٣٨هـ] .

ورابعها الدراسات المتعددة الوجوه للظواهر اللغوية من ترادف ، واشتراك ، وتضاد ، وتتبع لتطور الدلالات ، وهي تنتقل من عصر إلى عصر . وأحسن الكتب التي تعقبت تطور الألفاظ من العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي ورصدت معانيها وهي تتغير كتابُ الزينة لأبي حاتم الرازي [ت : ٣٢٢هـ] .

وخامسها ما حرص عليه علماء الأصول من توضيح دقيق لمعاني الألفاظ خوفاً من الخطأ في فهم الكتاب والسنة . ومن يتعقّب كتب الأصول يجد الضوابط والقواعد الدقيقة تقيد الألفاظ ليكون تأويلها مستنداً إلى أصول علمية .

وسادسها الدراسات الفنية التي برع فيها أحمد بن فارس [ت : ٣٩٥هـ] وابن جني [ت : ٣٩٢هـ] . وأدقُّ هذه الدراسات وأجملها تلك المحاولة التي حاولها ابن جني ، وهي ربط المعاني بالأصوات في عدة أبواب من خصائصه ، أبرزها (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني)[١١] ، و (باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)[١٢] .

وسابعها دراسة الأدوات النحوية . وهذه الدراسة جاءت ثمرة لتعاون الأصوليين والنحاة ، وهدفت إلى التحديد الدقيق لمعانيها ، ليكون استخلاص الأحكام من النصوص مستنداً إلى فهم دقيق يلتقي عنده الفريقان . ولهذا السبب تقع على فصول في كتب الأصول

---

(١٠) المصدر السابق ص١٩٩ .

(١١) الخصائص لابن جني ١٥٢/٢ ــ ١٦٨ .

(١٢) المصدر السابق ١٤٥/٢ ــ ١٥٢ .

وقفها مؤلفوها على دراسة الأدوات، وعلى كتب كاملة مفصلة مطولة وقفها النحاة على الأدوات، منها الأزهية، والجنى الداني، ومغني اللبيب.

لم تكن سبعة المظاهر السابقة إحصاء ولا تأريخاً للمباحث الدلالية التي عالجها علماؤنا، وإنما كانت عرضاً سريعاً للمرور بأبرز الموضوعات التي درسوها. وغرضنا من هذا العرض أن نثبت قدم التفكير الدلالي عند العرب، وتنوع أغراضه، وكثرة آثاره، فما تاريخ هذا العلم في النهضة الأوروبية؟ ومن أشهر الأعلام الذين أسهموا في تطوره؟

ثالثاً ــ تاريخ علم الدلالة الحديث

يجمع الباحثون المعنيون بتأريخ هذا الفرع من علوم اللغة على أن الباحث الفرنسي ميشيل بريل M. BRÉAL هو الباحث الأول الذي خطا الخطوة الأولى في الطريق المفضي إلى علم الدلالة، وعلى أنه هو الذي سماه باسمه Semantique أو Semantics. ثم يختلفون في طبيعة هذه الخطوة ومداها وزمانها. فمنهم من يقول: إنها مقال نشر سنة ١٨٨٣م، ومنهم من يقول إنها كتاب نشر سنة ١٨٩٧م[١٣].

ويبدو أن ما نشره بريل لم يكن أثراً واحداً يختلف الناس في اسمه وحجمه، بل كان أثرين يفصل بينهما أربعة عشر عاماً: أولهما المقال الموجز المنشور سنة ١٨٨٣م، وثانيهما الكتاب المفصل سنة ١٨٩٧م وكلاهما في موضوع واحد، هو علم الدلالة[١٤].

وبعد أن تُرجم ما كتبه بريل من الفرنسية إلى الإنكليزية ظهرت بحوث وكتب إنكليزية اللغة، أبرزها (معنى المعنى) للناقدين: أوغدن وريتشاردز Ogden and Richards. وأجلُّ فائدة قدمها هذا الكتاب هي «أنه وضح أجلى توضيح ما تتصف به مشكلة طبيعة المعنى من تعقيد»[١٥]، وأنه نقل بذور هذا العلم من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. حينئذ فشت فاشية البحث الدلالي في أوروبا وأمريكا، وشارك فيه باحثون بارزون، منهم نيروب Nyrop ودو سوسير De Saussure وأنتوني مييه A. Meillet وأولمان S. Ulmann وبلومفيلد Bloomfield رائد المدرسة السلوكية[١٦] وفيرث Firth رائد المدرسة الاجتماعية

---

(١٣) انظر علم اللغة وفقه اللغة، د. عبد العزيز مطر ص٤٥ ومبادىء اللسانيات، د. أحمد محمد قدور ص٢٨٠، وعلم اللغة د. محمود السعران ص٢٩١.

(١٤) انظر فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك ص١٥٧.

(١٥) علم اللغة، د. محمود السعران ص٢٩٤.

(١٦) المصدر السابق ص٣٠٤.

الإنكليزية[١٧] .

ثم انتقل البحث الدلالي من ميدان اللغة إلى ميدان العلوم التجريبية والسياسية . فألف بردغمان P. W. Bridgman[١٨] كتاباً عنوانه منطق الفيزياء الحديثة ، درس فيه ما يصيب الكلمات من تغير في الدلالات حينما تنتقل من الاستعمال اليومي العام إلى الميدان العلمي المتخصص . وألف ثورمان أرنولد Th. Arnold[١٩] فولكلور الرأسمالية ، حلل فيه بأسلوب ساخر طائفة من الألفاظ السياسية والإدارية المسيطرة على عقول الناس . وحلّل ألفرد كورتسبسكي A. Korzybski[٢٠] في كتابه (العلم وسلامة العقل) ما يتركه الاستعمال المغلوط للألفاظ من أثر سيء في التفكير . وتابعه تلميذه ستيورات تشيز S. Chase فتحدث عن حاجة الناس إلى توضيح معاني الألفاظ في ميادين السياسة والإدارة والاجتماع لئلا يَضلّوا ويُضلّوا[٢١] .

على هذا النحو من الانتشار السريع دخل علم الدلالة الغربي ، قبل أن يُتم القرنَ الأوَل من حياته ، ميادينَ العلوم المختلفة ، وأخذ أربابه ينبهون الناس على ما في أذهانهم من ثغرات وما في ألسنتهم من عثرات ، ويعملون على استدراك الناقص ، وتقويم المنحرف ، وتوضيح الغامض . فما المباحث التي تناولها علماء الدلالة المحدثون ؟ وما حظ علمائنا العرب منها ؟

رابعاً ــ مباحث علم الدلالة الحديث

إذا كانت الدراسات الصوتية والصرفية والنحوية أقرب العلوم اللغوية إلى التخصص ، فعلم الدلالة ــ على ما اتسم به من تخصص في طور النشأة ــ لم يحبس نفسه في إطار الدراسات اللغوية ، بل امتدت منه فروع كان لها شأن في ميادين الثقافة المختلفة ، أشرنا قبلُ إلى جوانب منها .

أما المباحث اللغوية الخالصة ــ وهي موضع اهتمامنا وموضوع كلامنا فيما بقي من هذا الكتاب ــ فقد تناولت المعنى بالتحليل ، وأعادت النظر فيما درسه علماؤنا الأقدمون من الترادف والتضاد والاشتراك ، وأثارت مشكلة التبدل الدلالي الذي يصيب معاني

---

(١٧) المصدر السابق ص٣٠٩ .

(١٨) المصدر السابق ص٢٩٤ .

(١٩) المصدر السابق ص٢٩٦ .

(٢٠) المصدر السابق ص٢٩٧ .

(٢١) المصدر السابق ص٢٩٨ .

الألفاظ . ولا نبالغ إذا قلنا : إن القسم الأكبر من المباحث التي يعدها الغربيون من ابتكارهم الحديث ، قد مرَّ في أذهان العرب ، وظفر بقدر وافر من دراساتهم اللغوية على النحو الذي سيتبين لك فيما يلي :

١ ــ دلالة اللفظ على معناه

إذا كان النطق أهمّ ما يميز الإنسان من الحيوان فقد وقف علماؤنا العرب حائرين أمام هذه الميزة ، يحللون ويعللون ، لعلهم يتوصلون إلى الخيوط التي تربط أصوات الكلمات بالدلالات ، أي : تربط مباني الألفاظ بمعانيها . وإذا كانوا قد اتفقوا على شيء ، فهو أن الألفاظ أوعية تحمل الأفكار ، وتنقلها من عقل إلى لسان ، ومن لسان إلى عقل ، وأن لكل كلمة مبنى صوتياً ، هو الصورة المسموعة أو المرسومة لها ، ومعنى فكرياً هو الدلالة المستقرة في هذه الصورة كما تستقر الروح في الجسد .

أمّا كيف تفصح المباني عن المعاني فمسألة بالغة التعقيد والدقة ، تتصل بنشأة اللغة ، وبالنظريات المختلفة التي سبق الحديث عنها في مطلع هذا الكتاب . وانطلاقاً من هذا المبدأ نسوق بين أيدينا شذرات مما قال علماؤنا في هذا الموضوع ، ثم نحاول أن نستنبط منها أبرز الآراء .

ذكر جلال الدين السيوطي [ت : ٩١١هـ] نقلاً عمن تقدمه من العلماء « أن الألفاظ إما أن تدل على المعاني بذواتها ، أو بوضع الله إياها ، أو بوضع الناس ، أو بكون البعض بوضع الله ، والباقي بوضع الناس »[٢٢] . وقال : « ودليل إمكان الاصطلاح إمكان أن يتولى واحدٌ أو جمع وضع الألفاظ لمعان ، ثم يفهموها لغيرهم بالإشارة كحال الوالدات مع أطفالهن »[٢٣] . وقال أيضاً : « قال إمام الحرمين في البرهان : اختلف أرباب الأصول في مأخذ اللغات : فذهب ذاهبون إلى أنها توقيف من الله تعالى . وصار صائرون إلى أنها تثبت اصطلاحاً وتواطؤاً . والمختار عندنا أن العقل يجوّز ذلك كله »[٢٤] .

وكأن وراء الخلاف في وضع اللغة ، والخلاف في دلالة الألفاظ على معانيها خلافاً في العقيدة ، فالمعتزلة ينزهون الله عن أن تكون صفاته ــ ومنها الكلام أي القرآن ــ مشاركة له في القدم . ولهذا يرون أن اللغة تواطؤ ، وهذا يعني أن دلالات الألفاظ كالألفاظ من اصطلاح البشر . قال السيوطي : « ذهبت المعتزلة إلى أن اللغات بأسرها تثبت اصطلاحاً »[٢٥] .

---

(٢٢) المزهر للسيوطي ١٦/١ .
(٢٣) المصدر السابق ١٧/١ .
(٢٤) المصدر السابق ٢١/١ .
(٢٥) المزهر للسيوطي ٢٠/١ .

والأشاعرة ـــ وهم القائلون بقدم القرآن الكريم ـــ يرون أن اللغات كلها توقيفية بمبانيها ومعانيها، وأن دلالات الألفاظ وصلت إلى البشر عن طريق الوحي إلى الأنبياء[٢٦].
وتستطيع أن تلخص آراء العرب القدماء ـــ على اختلاف منازعهم ـــ بأربعة الآراء التالية:
أولها أن الله وضع في كل لفظ معناه، وعلم آدم المباني والمعاني ليعلمها الناس.
والثاني أن البشر أدخلوا المعاني في المباني على أساس التواطؤ.
والثالث أن البشر استوحوا معاني الكلمات من أصوات الطبيعة.
والرابع أن الأصول توقيف، والفروع اصطلاح. أي أن الله علم آدم أصول المعاني[٢٧]، ثم تصرف الناس، فنوعوا وفرعوا، وأبدعوا واخترعوا.

ولك أن تضيف رأياً خامساً رآه اللغويُّ اللبناني عبد الله العلايلي، وهو أغرب الآراء المتعلقة بمباني العربية ومعانيها. وخلاصته أن لكل صوت من أصوات اللغة العربية معنى يخصه، وأن معنى الكلمة العربية هو المحصلة الناجمة عن ائتلاف المعاني الجزئية للأصوات. يقول: «كلمة جَمَل تحل إلى (ج) ومعناه الارتفاع، و(م) ومعناه المياه وهو ينظر إلى السحاب، و (ل) ومعناه الملاصقة أو المساس. والمعنى المؤلف: مرتفع يلامس السحاب»[٢٨]. ثم يعلق العلايلي على هذا التحليل، فيقول: «إذن فهذه الحروف ذات معان جنسية. وقد بقيت ملاحظتها في وضع الكلمات إلى آخر العهد اللغوي»[٢٩].

وفي الرد على هذه النظرية نقول: إذا كان لحروف الهجاء معان جنسية ـــ ويبدو أن هذه المعاني مقتبسة من الساميات القديمة ـــ فهل تطرد هذه المعاني في الألفاظ كلها، وفي تقليباتها؟ وكيف نطبق هذه المعاني على (لجام) الفرس، و (الجلم) أي: المقصّ والمجْل أي: تورم الجلد، و (اللمج) وهو الأكل بأطراف الفم؟ هل نجد في هذه الألفاظ معاني الحروف؟ ألا نضطر إلى التوفيق والتلفيق والتلطف والتكلف، وإلى مراوغة الألفاظ لنسوقها نحو المعاني المزعومة؟ ومهما نؤت من القدرة على التحليل والتأويل فلا بد أن تشمس ألفاظ كثيرة عن هذه الطريقة المتعسفة. ثم ما يقول العلايلي في الزرافة ولها مثل ارتفاع الجمل وليس في اسمها حرف واحد من حروفه؟

الحق أن حيرة الأقدمين في ربط المعاني بالألفاظ أقرب إلى العقل من يقين العلايلي.

---

(٢٦) المزهر ٢٠/١.
(٢٧) الخصائص لابن جني ٤٦/١ ـــ ٤٧.
(٢٨) مقدمة لدرس لغة العرب، عبد الله العلايلي ص١٣١ المطبعة العصرية مصر.
(٢٩) المصدر السابق ص١٣٠.

والدليل على ذلك أن هذه الحيرة خالطت عقول الغربيين ، وهم يحاولون الكشف عن السرّ ، ولذلك اضطر وايتني Whitney ودو سوسير إلى الإقرار بأن الصلة بين المباني والمعاني اعتباطية لا عقلية . وهذا الرأي أسلم من رأي العلايلي ، لأنه يرد الدلالات إلى التواضع والاصطلاح(٣٠) .

إن قول دو سوسير بالدلالة الاعتباطية لا العقلية شبيه بما ذهب إليه المعتزلة من قبل ، وحجتهم اختلاف اللغات في الدلالات ، إذ لو كان المعنى مرتبطاً باللفظ لما اختلفت لغات البشر ، ولكان لكل معنى لفظ واحد في اللغات كافة ، أي لاتحدت الألسنة في لسان . قال السيوطي : « وعمدة المعتزلة أن اللغات لا تدل على مدلولاتها كالدلالة العقلية ، ولهذا المعنى يجوز اختلافها »(٣١) .

ويتساءل دو سوسير كيف تدل كلمة مثل (شجرة) على معناها ؟ ويجيب بأن للكلمة واجهتين :

أولاهما واجهة ذهنية ، هي ما يتصوره الذهن حينما تقرع الكلمة السمع .

والثانية واجهة حسية ، هي صورة الشجرة الحقيقية المغروسة في الأرض ، ويتم الاستدلال بأن يطابق الإنسان بين الواجهتين(٣٢) . وإلى مثل هذا الرأي ذهب إميل بنفينست E. Benveneist ، لكنه أنكر الاعتباط ، وأقرّ بأسلوب الاستدلال(٣٣) ، فرد عليه إيلوار Eluerd بأن الاعتباط في الارتباط أمرٌ سائغ لا بدَّ من الأخذ به في تفسير المسألة(٣٤) .

ولو قرنت كلام هؤلاء اللسانيين المحدثين بكلام علمائنا الأقدمين لم تجد فيه من جديد . قال السيوطي : « اختُلف هل الألفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية ، أي الصور التي تصورها الواضع في ذهنه عند إرادة الوضع أو بإزاء الماهيات الخارجية ؟ فذهب الشيخ أبو إسحاق الشيرازي إلى الثاني ، وهو المختار ، وذهب الإمام فخر الدين وأتباعه إلى الأول »(٣٥) .

وعندي أن كلام العرب أقرب إلى القبول ، لأنهم لم يختلفوا في نوع الاقتران : أهو اعتباطي أم معقول ، وإنما اختلفوا في نوع المثير الذي يستثير الدلالة في الذهن ، أهو الصورة

---

(٣٠) محاضرات في الألسنية العامة ، فرديناند دو سوسير ص٩٠ ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر لبنان ١٩٨٤م .

(٣١) المزهر للسيوطي ١/٢٠ .

(٣٢) محاضرات في الألسنية العامة ، دو سوسير ص٨٨ .

(٣٣) تاريخ علم اللغة ، مونان ص٥٤ .

(٣٤) المصدر السابق ص٥٤ .

(٣٥) المزهر للسيوطي ١/٤٢ .

الذهنية المجردة ، أم الصورة الحسية الواقعية؟ ثم فضلوا أن يكون المثير الصورة الحسية ، لأنها أعلق بالجوارح ، وأرسخ في واقع الحياة .

وهو أوضح من تحليل بلومفيلد القائل : إن الاستدلال ينجم عن موقف سلوكي ذي عنصرين : الإثارة والاستجابة . فارتباط كلمة شجرة بمعناها قد يكون ناجماً عن لجوء المرء إلى شجرة يستظل بظلها ، أو يأكل من ثمرها . وبعد تكرار هذا السلوك يثبت معنى الشجرة في ذهنه . والسلوكيون عامة ، لا بلومفيلد على نحو خاص يستعيرون من سلوك الحيوان الفطري ما يفسرون به لغة الإنسان . فالحيوان إذا أثاره مثير ردّ عليه بسلوك ، والإنسان يرد عليه بسلوك أو كلام ، أو بهما جميعاً[٣٦] .

والحق أن في هذا الاستنباط تبسيطاً ينكره العقل القادر على تجريد المعنى العقلي من الصور الحسية ، فالتجارب الكثيرة التي يمر بها الفرد أو الأفراد قمينة بإجراء هذا التجريد أي بتحويل الصورة الحسية المكررة إلى صورة ذهنية مجردة . وإذا كان لنا أن نقر بشيء من الاعتباط في الارتباط ، قلنا : إن ذلك قد يحدث في المرحلة البدائية من اقتران الأصوات بالمعاني . وبعد ذلك يتم الارتباط بشكل واع ، ترفده المواضعة الاجتماعية ، وترسخه الذاكرة العامة للمتكلمين باللغة المشتركة ، سواء أكان هذا الترسيخ ناجماً عن تعليل مقبول كالألفاظ التي تحكي أصوات الطبيعة ، أم عن اقتران غير قابل للتعليل كالقدر الأكبر من ألفاظ اللغة .

٢ ــ الدلالة بين الاشتقاق والسياق

تساعد الجذور اللغوية في اللغات الاشتقاقية على تخمين الدلالات . وتتسنم العربية ذروة اللغات الاشتقاقية في قدرة الألفاظ على البوح بمعانيها ، لأن كل صيغة من الصيغ المشتقة تحمل على نحو من الأنحاء مقداراً من المعنى الأصلي ، يساعد الإنسان العربي ، ولو لم يكن له بالكلمة عهد ، على أن يقدر معناها . قيل لأعرابي : ما القلم؟ فقال : لا أدري . فقيل له : توهمه ، فقال : هو عود قلم من أحد جانبيه كتقليم الأظفور ، فسمي قلماً »[٣٧] . وفي جواب الأعرابي مقدار غير يسير من الصحة نجم عن حسّه الفطري بالاشتقاق .

ولو نظرت في تقسيم أولمان للألفاظ بين شفافة وكثيفة[٣٨] ، لأدركت أنه يريد ما أردنا ، أو نحواً قريباً منه . فالألفاظ الشفافة تكشف عن معانيها كما يكشف ماء النبع

---

(٣٦) انظر مبادىء اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص٢٩١ .

(٣٧) الصاحبي ، أحمد بن فارس ص١١٩ .

(٣٨) فقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك ص١٧١ .

الصافي عما في قعر النبع . والكثيفة تكتم ما تحوي ، كالسيل المعتكر الموحل ، لا يبوح بما فيه . غير أن هذه القاعدة ليست مطردة ، فربما ابتعدت الألفاظ بسبب التبدلات الصرفية عن اشتقاقها ، فأعيت القارىء ، كابتعاد التقوى عن الوقاية ، والاتجاه عن الوجه ، والادكار عن الذكر .

وقد تخفى الدلالة لارتباطها بقصة طواها تقادم العهد ، كقول العرب : رفع فلان عقيرته ، أي صرخ . «قيل أصلُه أن رجلاً عقرت (قطعت) رجله ، فوضع العقيرة على الصحيحة ، وبكى عليها بأعلى صوته ، فقيل : رفع عقيرته . ثم كثر ذلك ، حتى صُيِّرَ الصوت بالغناء عقيرة »(٣٩) .

ولا يذهبن بك الظن إلى أن هذه الظاهرة ملحوظة في العربية وحدها ، أو في الفصيلة السامية وحدها ، فكثير من اللغات في هذا الضرب من الخفاء سواء . روي عن الشاعر الفرنسي بول فاليري P. Valery أنه كان يستخدم ألفاظاً ذوات أصول لاتينية ، فيعيا كثير من الفرنسيين بفهمها لانقطاع ما بينهم وبين الجذور اللاتينية لهذه الألفاظ(٤٠) .

وكلما كانت اللغة أقل من سواها حظّاً من الاشتقاق كان اقتران المعنى باللفظ أقل حظّاً من الوضوح . وحينئذ يتجاوز الباحث أصل الدلالة ، وعلاقة اللفظ بالمعنى إلى استقراء الاستعمال الحي ، أي يستعين السياقَ الذي ترد فيه الكلمة على تحديد الدلالة . على ضوء السياق إذن ــ والرأي لأولمان ــ تحدد دلالات الكلمات(٤١) .

ويحسن ههنا التنبيه على الفرق بين الدلالات التي يعبر عنها الاشتراك والدلالات السياقية التي تستوحى من الاستعمال . فكلمة (good) الإنكليزية لها ظل خُلُقي نبيل في نحو : He is good boy ، وتشير إلى إتقان المهنة في نحو قولك : You are good driver ، وإلى صفاء النوع في نحو : It is good water(٤٢) . والخصيصة الجامعة بين هذه المعاني السياقية هي الجودة . أما دلالة العين في العربية على تسعة معان ، هي : السحاب ، والباصرة ، وعين الركبة ، والثقب في المزادة ، والرقيب ، وعين الميزان ، والمال ، ونبع الماء ، ومعجم العين للخليل ، فليست من هذا الباب ، وإنما هي من المشترك اللفظي(٤٣) .

---

(٣٩) لسان العرب [عقر] والخصائص لابن جني ١/٦٦ ، ١/٢٤٨ .

(٤٠) فقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك ص١٧٢ .

(٤١) علم الدلالة ، أولمان ص٧٢ .

(٤٢) انظر مبادىء اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص٢٩٦ .

(٤٣) في معجم الأدباء لياقوت الحموي ٤/٩٠ ــ ٩٢ تسعة أبيات نظمت فيها معاني العين التسعة ،وتستطيع أن

ولو مضيت تحلل السياق لترده إلى عناصره لوجدت فيه دفء العاطفة، وخيوطاً اجتماعية تخالط نسيجه الفكري. فكلمة الوزير في قوله تعالى: ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾[٤٤] تحمل إليك ما أحسّه موسى عليه السلام من الحب والتقدير لأخيه، وما يحسه العاجز عن أن ينهض بعبء ثقيل، فيلتمس العون من أقرب الناس إليه. وكلمة الوزير نفسها تدل دلالة أخرى في نص آخر، والنص الآخر بيت لشاعر عباسي، وهو:

سبحان ربي الخالق الباري   صرت وزيراً يا ابن عمار

فإذا عرفت أن ابن عمار كان طحاناً، لا حظّ له من علم أو سياسة، ثم رفعه القدر إلى كرسيّ الوزارة أدركت ما تنطوي عليه كلمة الوزير من السخر والاحتقار والعجب ونقد الأحوال السياسية والاجتماعية، ومن التنديد بالوزير وبمن استوزره، وبمن دانوا لوزارته، فتربط عندئذ دلالة الوزير بالوِزْر الذي هو الإثم تلقيه على من ولاه، وعلى من رضوا بولايته.

وأصاب بعض الباحثين العرب[٤٥] حينما ذكر أن ما يردده اللسانيون من تحليل للسياق، أو ما يسميه مالينوفسكي الموقع السياقي للكلمة Context of Situation أمر معروف في الدرس اللغوي العربي، ويسميه نقادنا (المقام)، ويعنون به كل ما يكنف الكلمة من أحوال وأحداث تساعد على فهمها. ولذلك لم يكتفوا في تفسير الدلالة بما يذكره المعجم، بل أضافوا إليه ما يدل عليه السياق. وهذا يعني أن للكلمة عنصرين يحددان معناها: عنصراً لفظياً يحدده المعجم، وعنصراً سياقياً يحدده المقام. وهذان العنصران يجتمعان في ظل المبدأ الذي لخصه البلاغيون بقولهم: لكل مقام مقال.

ولتمييز المقام من المقال يحسن بك أن تنظر في بيت أبي الطيب التالي:

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً   مضى قبل أن تلقى عليه الجوازمُ[٤٦]

البيت في مدح سيف الدولة. مقالُه من النحو، ومقامُه من السياسة. أما النحو فيقول: إن الحرف الجازم يجعل المضارع ماضياً، وأما السياسة فتقول: إن حماسة سيف الدولة حققت

تضيف: عين الباب الساحرة، ومدينة العين، وحرف العين فتغدو اثني عشر معنى. وأبلغها بعضهم في المزهر ١/٣٧٣ سبعة عشر معنى.

(٤٤) طه ٢٩.

(٤٥) هو الدكتور تمام حسان انظر كتابه اللغة العربية معناها ومبناها ص٣٧٢.

(٤٦) ديوان أبي الطيب المتنبي ٣/٣٨٢ شرح العكبري تح السقا والأبياري وشلبي دار المعرفة بيروت.

آماله وآمال العرب المنوطة به، فنصرته وهزمت الروم قبل أن يتخذ الأمير للمعركة عدتها لهيبته وإخلاصه.

ولا يخفى ما للأساليب التي تلتزمها كل لغة من تأثير في تحديد الاستعمال الذي يجيزه السياق. فأنت تقول: ألقى الشاعر قصيدة، ولا تقول ألقى المصلي دعاء، وكلا الشعر والدعاء كلام.

ولا يخفى كذلك أن المجاز يفتح أمام الأدباء أبواباً واسعة لابتكار أوجه جديدة من الاستعمال السياقي لكل كلمة. ولعل جار الله الزمخشري [ت: ٥٣٨هـ] قد نظر إلى هذا الجانب حينما حرص على أن يسوق في معجمه (أساس البلاغة) عشرات العبارات المجازية لكل كلمة، وأغفل شرح القسم الأعظم منها، كأنه يقول للقارىء: افهم المقال من المقام، واضرب الاشتقاق على محكّ السياق تدرك المعنى.

٣ ــ الألفاظ والدلالات بين التوحّد والتعدّد والتضاد

قد يذهب بنا الظن إلى أنه يجب أن يكون للكلمة الواحدة دلالة واحدة، وأن يكون للمعنى الواحد لفظ واحد، وأن يدل اللفظ على معنى ما، ولا يدل على نقيضه. والحق أن هذا التوزيع الرياضي للألفاظ والدلالات أمر متوهم، لا تلتزمه اللغات، بل تسمح للكلمة الواحدة بأن تحمل أكثر من دلالة، فيقع الاشتراك، وبأن يُعَبَّر عن المعنى الواحد بأكثر من لفظ، فيقع الترادف، وبأن يحمل اللفظ الواحد المعنى ونقيضه فيقع التضاد.

ومن الجدير بالذكر ههنا أن الدراسات اللسانية الحديثة قسمت مفردات اللغات إلى حقول دلالية[٤٧]. وفحوى هذه الحقول أن تصنّف الألفاظ مجموعات، وأن يربط بين ألفاظ المجموعة الواحدة أو الحقل الواحد موضوع واحد[٤٨]. فحقل للأصوات، وحقل لأعضاء الجسم، وحقل للأمراض على النحو الذي اتبعه أبو منصور الثعالبي [ت: ٤٢٩هـ] في فقه اللغة، وابن سيده [ت: ٤٥٨هـ] في المخصص. ثم تبين لأصحاب هذه النظرية، نظرية الحقول الدلالية أن كل حقل من الحقول التي أفضى إليها التقسيم ينطوي على ما أشرنا إليه من ظواهر الاشتراك والترادف والتضاد كلها أو بعضها.

وعمد بعض اللسانيين، ومنهم كاتز Katz وفورد Ford إلى نمط آخر من التحليل،

---

(٤٧) علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر ص٧٩.

(٤٨) المصدر السابق ص٨٧.

هدفُه إرجاع الألفاظ إلى مكوّناتها الجزئية ، أو عناصرها الدلالية الصغرى ، كأن يُقال في تحليل الرجل والمرأة :

الرجل : اسم ، محسوس ، معدود ، حي ، بشري ، بالغ ، ذكر .

المرأة : اسم ، محسوس ، معدود ، حي ، بشري ، بالغ ، أنثى .

وبمقارنة صفات الرجل الجزئية بصفات المرأة يتبين أن الاسمين متفقان في جميع الصفات أو العناصر المكونة لهما عدا العنصر الأخير المتعلق بالجنس(٤٩) . وعلى ضوء هذا التحليل الذري ــ إن صح التعبير ــ يحكم المحللون على المفردات الداخلة في الترادف أو في المشترك ، وهو ما يسمى في اللسانيات الحديثة باسم (العلاقات الدلالية) . ولما كان مصطلح (العلاقات الدلالية) حديث النشأة ، فقد آثرنا أن نذكره من غير أن نصدِّره ، وأن نعرض الموضوعات التي تنطوي تحته بمصطلحاتها المعروفة ، وهي : الاشتراك والترادف والتضاد . فكيف درس العرب هذه الدلالات ، وماذا أضاف اللسانيون المحدثون إلى ما توصل إليه العرب الأقدمون ؟

آ ــ الاشتراك :

عرّف الإمام الأصولي فخر الدين الرازي [ت : ٦٠٦هـ] اللفظ المشترك ، فقال : « هو اللفظ الموضوع لحقيقتين مختلفتين وضعاً أولاً »(٥٠) . ثم فسّر معنى الوضع الأول ، فقال : « احترزنا به عما يدل على الشيء بالحقيقة ، وعلى غيره بالمجاز »(٥١) . فَليس من المشترك أن تطلق لفظاً واحداً على شيئين بينهما علاقة مجازية ، كأن تطلق كلمة (البوادر) على السقطات والعبرات لاجتماعهما في معنى السرعة والسبق . قال أحمد بن فارس [ت : ٣٩٥هـ] : « كانت منه بوادر أي سقطات ، ويقال بدرت دمعته ، وبادرت إذا سبقت ، فهي بادرة ، والجمع بوادر »(٥٢) .

فشرط الاشتراك ألّا تربط بين الدلالتين رابطة مجازية . من ذلك لفظ العمّ . قال أبو بكر بن دريد [ت : ٣٢١هـ] « العم : أخو الأب ، والعم : الجمع الكثير . قال الراجز :

يا عامــــر بن مالك يا عمــــا   أفنــيت عمّــــاً ، وجبرت عمّــــا

---

(٤٩) المصدر السابق ص١١٤ وما بعدها .

(٥٠) المحصول في علم أصول الفقه للرازي ص٣٥٩ تح د طه جابر فياض العلواني . الرياض ١٣٩٩هـ .

(٥١) المصدر السابق ص٣٥٩ .

(٥٢) المقاييس [بدر] .

فالعم الأول أراد به : يا عماه ، والعم الثاني أراد به : أفنيت قوماً ، وجبرت آخرين »[٥٣] . ومنه قول الجوهري [ت : ٣٩٣هـ] في معاني الأرض : « الأرض المعروفة ... والأرض : النفضة والرعدة ... والأرض : الزكام ، والأرض : مصدر أرضت الخشبة تؤرض أرضاً فهي مأروضة إذا أكلتها الأرضة »[٥٤] .

ولم تتفق آراء الأصوليين في وجود الاشتراك وعدمه . فمنهم من أنكره ، وامتنع من الأخذ به ، ومنهم من أقرّ بأن وجوده ضرورة تمليها الحاجة . « أما القائلون بالامتناع فقد قالوا : المخاطبة باللفظ المشترك لا تفيد فهم المقصود على سبيل التمام ، وما يكون كذلك كان منشأ للمفاسد »[٥٥] .

وأما القائلون بوجوب وجوده ـــ ومنهم الفخر الرازي ـــ فحجتهم أقوى ، وهي مستمدة من المنطق ، ومن تطور الحضارة وتقدم العلوم . فهم يرون أن الذخيرة اللفظية في اللغة ، ولو بلغت مفرداتها ألوف ألوف ، محدودة العدد ، تنتهي عند غاية لا تتجاوزها . والمعاني دائمة التجدد والتولد ، والأفكار الجديدة في حاجة إلى أوعية لفظية تحملها وتنقلها . لهذا لم يكن بد من تحميل الألفاظ القديمة جانباً من الأفكار الجديدة ، وإلّا قصرت اللغة عن مواكبة العلوم .

« قال الإمام فخر الدين الرازي وأتباعه : لا يجب أن يكون لكل معنى لفظ ، لأن المعاني التي يمكن أن تعقل لا تتناهى ، والألفاظ متناهية ، لأنها مركبة من الحروف ، والحروف متناهية ، والمركب من المتناهي متناه . والمتناهي لا يضبط ما لا يتناهى ، وإلّا لَزِمَ تناهي المدلولات »[٥٦] . وقال أيضاً : « الألفاظ متناهية ، والمعاني غير متناهية ، والمتناهي إذا وزع على غير المتناهي لزم الاشتراك »[٥٧] .

ويبدو أن احتجاج المانعين بالخوف من وقوع المفاسد اعتلالٌ عليل ، إذ ليس من الضروري أن يفضي الاشتراك إلى الارتباك ، فإن انتظام الكلمة في جملة يتيح لها مجموعة من القرائن ، تكشف عنها اللبس ، وتبرز معناها المقصود .

---

(٥٣) جمهرة اللغة لابن دريد [عجم] طبع حيدر آباد ١٣٤٤هـ .

(٥٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري [أرض] تح أحمد عبد الغفور العطار بيروت دار العلم للملايين ١٣٧٦هـ .

(٥٥) المحصول للرازي ٣٦٣/١ .

(٥٦) المزهر للسيوطي ٤١/١ .

(٥٧) المحصول ٣٦٠/١ .

هذه خلاصة ما قال الأقدمون في الاشتراك ، فما الذي أضافه اللسانيون المحدثون ؟

أقرّ اللسانيون بظاهرة الاشتراك ، وأضافوا إلى علل الأقدمين علة أخرى تسوغ وجودها ، وهي أن الاشتراك مظهر من مظاهر الاقتصاد في استعمال الألفاظ وحفظها ، وشكل من أشكال التخفيف عن الذاكرة إذ يستطيع الإنسان بالاشتراك أن يخزن الكثير من المعاني في القليل من الألفاظ[٥٨] .

وعلل أولمان ظهور الاشتراك الناجم عن اكتساب الكلمة دلالة جديدة لم تكن تدل عليها بعلتين :

أولاهما الاستعمال المتعدد الوجوه للكلمة الواحدة ، كاستعمال كلمة (Operation = عملية) ، إنْ ذكرتها في المستشفى انصرفت دلالتها إلى الجراحة ، وإن أوردتها في معرض الجهاد دلت على معركة ، وإن قيلت في السوق أريد بها عقد صفقة[٥٩] . وما أرى أن هذا الضرب من الاشتراك المكتسب شبيه بالضرب الذي تحدث عنه علماؤنا . فكلمة عملية فيها من العموم ما يجعلها صالحة لأعمال كثيرة ، فإذا وصفت خصصت ، ووصفها قد يكون مذكوراً كأن تقول : عملية جراحية ، وقد يكون مستمداً من المقام كالأمثلة السابقة .

وثانية العلتين لوقوع الاشتراك عند أولمان النقلُ المجازي لعلاقة بين الدلالتين القديمة والمكتسبة . فالتشابه بين الكركي الطائر الطويل العنق ، والرافعة الحديثة حمل الإنكليز على أن يسموا هذه الآلة باسم الكركي ، فقالوا Crane[٦٠] . وهذا الضرب أيضاً مخالف لمضمون المشترك اللفظي عند علمائنا ، لأنهم اشترطوا ألا يتم الاشتراك على أساس المجاز ، وتشبيهُ الآلة بالطائر مجاز .

لهذا السبب احترز بعض اللسانيين الغربيين — كما احترز الأصوليون من علمائنا — فحشروا اللفظ الذي أكسبه المجاز دلالة جديدة تحت مصطلح (تعدد المعنى) ، فميزوه من المشترك اللفظي . ومع أنهم أضافوا هذا الاحتراز بقي بين المشترك اللفظي عندهم والمشترك عند علمائنا فرق . فالمشترك عندهم ينجم عن اختلاف في المعنى وتشابه في نطق الكلمة ، سواء أوقع اتفاق في الرسم أم اختلف اللفظان فيه . فمن المتفق لفظاً ورسماً كلمة Sound الدالة على الصوت ، وأصلها فرنسي ، والكلمة نفسها الدالة على صحة البدن وأصلها

---

(٥٨) دور الكلمة لأولمان ص١١٤ وما بعدها .

(٥٩) المصدر السابق ص١١٤ .

(٦٠) المصدر السابق ص١١٥ وما بعدها .

جرماني . ومثال المتفق في النطق المختلف في الرسم كلمة (Sea) الدالة على البحر ، وكلمة (See) الدالة على الإبصار[٦١] .

ولو استفتى أولمان علماءنا في هذين الضربين من الاشتراك لأفتوا بضعفهما جميعاً : فالأول اشتراك هجين لفق معنياه من لغتين ، فهو بالدخيل أشبه . والثاني لفق اشتراكه من جذرين مختلفين ، فهو إلى الجناس أقرب .

ب ــ التضاد :

لك أن تعد التضاد فرعاً من فروع الاشتراك ، وآيته أن تختلف دلالتا اللفظ المشترك اختلافاً يبلغ الغاية ، حتى تكون إحداهما نقيض الأخرى . فدلالة النوى على البعد ، وعلى بذور الثمار (جمع نواة) من الاشتراك لا من التضاد . لأن الاختلاف بين الدلالتين لا يبلغ حدّ التناقض . أما دلالة (الصريم) على الليل وعلى النهار فمن التضاد ، لأن السواد في الأول ضد البياض في الثاني .

ويبدو أن التضاد كان أوفر حظّاً من الاشتراك ، إذْ عُنِي به اللغويون العرب قديماً وحديثاً ، وصنفوا فيه مصنفات خاصة به ، طبع كثير منها . صنف فيه من الأقدمين محمد ابن المستنير الملقب بقطرب [ت : ٢٠٦هـ] والأصمعي [ت : ٢١٦هـ] وابن السكيت [ت : ٢٤٥هـ] وأبو حاتم السجستاني [ت : ٢٤٨هـ] وابن الأنباري محمد بن القاسم [ت : ٣٢٨هـ] وأحمد بن فارس [ت : ٣٩٥هـ] ..وألف فيه من المحدثين أستاذنا الدكتور ربحي كمال . ولم ينكره من القدماء غير ثلة قليلة . وأبرز المنكرين ثعلب [ت : ٢٩١هـ] وابن درستويه [ت : ٣٤٧هـ] . وحجة المنكرين أنه ليس في الكلام ضد ، ولو وجد لكان محالاً . وهي حجة منطقية قياسية ينقضها السماع . ولذلك اضطروا إلى تأويل ما روي عن العرب تأويلاً متكلفاً ، ينفي عنه التضاد ولا ينفي الاشتراك[٦٢] .

تتبع الدكتور ربحي كمال العوامل المؤدية إلى ظهور التضاد في اللغات السامية عامة ، وفي العربية على نحو خاص ، فتبين له أنها كثيرة ، أبرزها :

١) دلالةُ اللفظ في الأصل على معنى عام يشترك فيه الضدان ، كالفعلين (باع) و(شرى) فكلاهما يدل على البيع وعلى الشراء ، إذ الأصل فيهما الدلالة على التبادل .

٢) وانتقال اللفظ من معناه الذي وضع له إلى معنى مجازي إما تفاؤلاً كتسمية الأعمى

---

(٦١) المصدر السابق ص١٢٥ وعلم الدلالة ، د أحمد مختار عمر ص١٦٧ .

(٦٢) انظر حاشية الصاحبي رقم ١ ص١١٧ تح سيد صقر .

بصيراً، وإما تهكماً كقول أبي الطيب في كافور الإخشيدي، ـــ وكافور أسود ـــ:

ولا توهمت أن النـــاس قد فقـــدوا   وأن مثـل أبي البيضاء موجـودُ[٦٣]

٣) واتفاق المعنيين في صيغة صرفية واحدة كالمجتث، تكون لمن قام بالاجتثاث والأصل فيها مُجتثِث، وللذي وقع عليه الاجتثاث والأصل مجتَثَث.

٤) واختلاف القبائل العربية في استعمال الألفاظ كلفظة (وثب) بمعنى طَفَر عند مضر و(قَعَد) عند حمير.

٥) وخطأ الشراح والمفسرين. ذكر ابن سيده أن التبشير يكون بالخير والشر، واحتج لذلك بقوله تعالى: ﴿وأبشروا بالجنة﴾[٦٤]، وقوله ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾[٦٥]. ووجه الخطأ أن التبشير لا يكون إلا بالخير، لكنه في الآية الثانية تهكم وتوعّد لغرض بلاغي.

٦) واتحاد لفظ مع آخر يناقضه في المعنى ويقاربه في الاشتقاق. نحو: أقوى الرجل: إذا كان ذا قوة. وأقوى، فهو مقو، إذا ذهب زاده، فضعف. ويقال إن أقوى الثانية من أخوى والخواء الفراغ والضعف، أصابها الإبدال[٦٦].

وتستطيع أن تضيف عاملاً سابعاً هو عموم الدلالة: ففي العربية ألفاظ قادرة على التلـــوّي ذات اليمين وذات الشمـــال، من ذلك «الصارخ المستغـــيث، والصارخ المغيث»[٦٧].

ولما كان علم اللغة العام واسع الأفق، لا يقصر دراسته على لغة واحدة فمن حق القارىء أن يسأل عن ظاهرة التضاد في اللغات السامية الأخرى، وفي اللغات الهندية الأوروبية، أتقر به أم تنكره؟

«يقر اللغويون العبريون، واللغويون السريان بوجود ألفاظ قليلة من ألفاظ التضاد في العبرية وفي السريانية. وهم يرون أن لكل من هذه الألفاظ معناه الخاص، وأن الاستعمال لم ينصرف إلى ضد المعنى إلا لداع بلاغي: كالتفاؤل أو التهكم، أو اجتناب التلفظ بما يكره،

---

(٦٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ٤٤/٢ وهذا البيت هو البيت الحادي والعشرون من قصيدته في هجاء كافور (عيدٌ بأية حال).

(٦٤) فصلت ٣٠.

(٦٥) آل عمران ٢١.

(٦٦) انظر التضاد في ضوء اللغات السامية، د. ربحي كمال ص١٠ ـــ ١٧.

(٦٧) مقاييس اللغة ٣٤٨/٣.

أو بما يمجه الذوق، أو بما يؤلم المخاطب»(٦٨) . وفي الأمثلة التالية ما يوضح التضاد في العبرية وما يقابله في العربية :

(أُونْ) العبرية تطلق على القوة، وعلى الألم . ومثلُها (الأَوْنُ) العربية تطلق على الدعة والمشقة .

(أُورْ) العبرية تعني النور والظلام، وفي العربية الأوار : الدخان .

(بَرَخْ) العبرية تعني البركة والتجديف . وفي العربية بارك من البركة، وابترك تنقّص .

(بِسّرْ) في العبرية مثل (بشّر) في العربية تدل على التبشير بالخير، والتحذير من الشر(٦٨) .

أمّا اللسانيات الغربية فإنها لم تُولِ التضاد حقه من العناية، واكتفت بالإشارة إليه، وسمّته بمصطلح يميزه وهو : Antonym . وحاولت أن تفسر ظهوره تفسيراً نفسيّاً اجتماعياً تختلط فيه الأساطير بالعقائد والعواطف، فقالت : «إذا اصطدمت كلمة ما بحظر الاستعمال تحت تأثير عامل اللامساس حلت محلها كلمة أخرى خالية من فكرة الضرر والأذى . وهذه العادة ليست مقصورة بحال من الأحوال على المجتمعات البدائية، فهي معروفة في البيئة بتأثير فكرة اللامساس، نتيجة طبيعية للخرافات اللغوية، وأثر من آثار الاعتقاد في سحر الكلمة»(٦٩) .

وليس في هذا التفسير النفسي الاجتماعي للتضاد جديد، فقد وقع على مثله العرب القدماء . ومما قالوا : «اختلف الناس في اعتلال لها (يعني المفازة) : لم سميت مفازة على معنى المهلكة، وهي مأخوذة من الفوز ؟ قال الأصمعي وأبو عبيد وغيرهما : سميت مفازة على جهة التفاؤل لمن دخلها بالفوز ... الخ»(٧٠) .

ج ـــ الترادف :

الترادف في اللغة التتابع(٧١) ، وفي الاصطلاح يقول الفخر الرازي [ت : ٦٠٦هـ] في تعريف الألفاظ المترادفة : «هي الألفاظ المفردة الدالة على مسمى واحد باعتبار

---

(٦٨) التضاد في ضوء اللغات السامية، د . ربحي كمال ص٣١ وما بعدها .

(٦٩) دور الكلمة في اللغة، أولمان ص١٧٧ .

(٧٠) الأضداد لابن الأنباري ص١٠٥ تح محمد أبي الفضل إبراهيم الكويت ١٩٦٠م .

(٧١) مختار الصحاح للرازي [ردف] مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٨م .

واحد »[٧٢] . والمقصود بالاعتبار الواحد أن يكون المترادفان إما اسمين وإما صفتين ، لا أن يكون أحدهما اسماً والآخر صفة . ولا أن يكون أحدهما صفة ، والآخر صفة للصفة . فليس من الترادف (الإنسان والناطق) ، لأن الإنسان اسم والناطق صفة . وليس منه (الناطق والفصيح) ، لأن الناطق صفة للإنسان ، والفصيح صفة للناطق أي : صفة للصفة .

وليس منه التوكيد نحو : جاء زيد نفسه ، لأن التوكيد لا يحل محل المؤكَّد ، وليس منه الإتباع نحو : زيدٌ حَسَنٌ بَسَنٌ ، لأن لفظة (بسن) لا تسند وحدها إلى زيد ، بل هي تابعة لحسن ، إذ لا يقال : زيدٌ بَسَنٌ .

ولعلمائنا في الترادف رأيان : رأي يثبته ، ورأي ينفيه .

القائلون بإثباته ، يعللون مذهبهم بأمرين : « الأول التسهيلُ والإقدارُ على الفصاحة ، لأنه قد يمتنع وزن البيت وقافيته مع بعض أسماء الشيء ، ويصح مع الآخر . والثاني التمكين من تأدية المقصود بإحدى العبارتين عند نسيان الأخرى »[٧٣] .

ومن ينظر فيما بلغنا من مصنفات القرن الثالث الهجري يجد فيها مايثبت الترادف ، إذ تظفر فيها بسلاسل من الألفاظ سردت على أساس الاتحاد في المعنى . قال ثعلب [ت : ٢٩١هـ] : « الباحور والساهور والسِّنِمَّار : القمر »[٧٤] وقال أيضاً : « غلام نشنش وشعشع وبلبل وبزبز : إذا كان خفيفاً في السفر »[٧٥] . ومن الغريب أن ثعلباً يُعَدُّ بين منكري الترادف . فهو ــ إذا صح أنه من المنكرين ــ ينكره بالقول ويثبته بالتصنيف . ويمكن إثبات الترادف ، أو تعليل ظهوره بحجتين يصعب إنكارهما أو نقضهما : تعدّد اللهجات والاختلاف في الاشتقاق .

أما تعدد اللهجات فجوهره أن تكون كل لهجة قد أطلقت على الشيء الواحد اسماً يتداوله الناطقون بها ، كأن تسمي إحدى القبائل الليث قسورة ، وتسميه قبيلة أخرى غضنفرا . حينئذ تتعدد الأسماء والمسمى واحد . ولا ندخل في القبائل قبائل اليمن لاحتراز الأقدمين من لهجاتها ، وإنما نقصر الأمر على قبائل نجد والحجاز كتميم وهذيل . وأدلُّ ما يدلّ على وقوع الترادف الناجم عن اختلاف اللهجات قولُ أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ في تعليقه على

---

(٧٢) المحصول للرازي ٣٤٧/١ .

(٧٣) المصدر السابق ٣٥٠/١ ــ ٣٥١ .

(٧٤) مجالس ثعلب ٣٠٩/١ تح محمد عبد المنعم خفاجي القاهرة ١٩٤٩م .

(٧٥) المصدر السابق ١٣/١ .

حديثٍ للنبيّ ﷺ : « والله إنْ سمعت بالسكين إلا يومئذ ، وما كنا نقول إلا المدية »[٧٦] . فإذا عرفت أن أبا هريرة من دوس بن عدنان أدركت أن السكين في لهجة قريش رديف المدية الدوسية . وربما كانت شهادة ابن جني القولَ الفصل في هذا المضمار ، إذ علل الترادف بأنه محصلة الخلافات اللهجية ، فقال : « كلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هَنَّا ومن هَنَّا »[٧٧] . فإن اجتمعت المترادفات لإنسان واحد فكيف لا تجتمع لأمة كاملة ؟

وأما الاختلاف في الاشتقاق ـــ وهو الحجة الثانية لإثبات الترادف ـــ فمردُّه إلى أن العربية لغة ولود ، تستطيع أصولها الثلاثية أن تنجب ألفاظاً مختلفة المباني متفقة المعاني ، « فمن ذلك تسمية الدار منزلاً ، ومسكناً ، وبيتاً ، باعتبار كونها مستديرة في الأصل ، أو كونها مكان النزول بالنسبة لأهل البادية أو المسافر ، أو كونها موضعاً للسكينة والاطمئنان ، أو كونها مكاناً للبيتوتة »[٧٨] .

ولك أن تضيف حجة ثالثة تفسر بها وقوع الترادف في العربية وفي غيرها من اللغات ، وهي التقارض والاقتباس . فكثيراً ما تستعير اللغات ألفاظاً ليست في حاجة إليها ، غير أن النفوذ السياسي والثقافي يُملي هيمنة لغة على لغة ، فتنتقل مفردات الأقوياء إلى ألسنة الضعفاء . وحينما يتكلم أبناء المستضعفين ينسون الأصول الدخيلة لهذه الألفاظ ، فيتبنونها ، ثم يدخلونها معاجمهم كما يُمنح الغرباء جنسية الدول المضيفة بعد طول الإقامة فيها .

ومن الأمثلة على ما نزعم غزو المصطلحات الإنكليزية للغات المختلفة وتحولها مع مرور الأيام إلى مرادفات لما يعادلها في اللغات المغزوّة . وقريبٌ مما ذكرنا اقتحام طائفة من الألفاظ الأعجمية لغتنا العربية قبل ظهور الإسلام ، وشيوعُها ومخالطتها الألفاظ العربية ، وحلولها إلى جانبها في المعاجم . صحيح أن المصنفين ينبهون على أنها من الدخيل المعرّب ، لكن هذا التنبيه لا يحمل أحداً على التحرج من استعمالها . ومن هذه الألفاظ : الديباج والإبريسم والدمقس والسندس والاستبرق بمعنى الحرير المنسوج .

أما القائلون بإنكار الترادف فبينهم أعلام ذوو مكانة ، ولديهم حجج لا تقل قوة عن حجج المثبتين . ومنهم ابن الأعرابي [ت : ٢٣١هـ] وثعلب [ت : ٢٩١هـ] وابن درستويه

---

(٧٦) صحيح البخاري كتاب الأنبياء ١٢٦٠/٣ رقم الحديث ٣٢٤٤ تح د . مصطفى البغا دار ابن كثير ودار اليمامة دمشق بيروت ١٤١٤هـ .

(٧٧) الخصائص لابن جني ٣٧٤/١ .

(٧٨) فقه اللغة للمبارك ص٢٠٠ .

[ت : ٣٣٠هـ] وأبو علي الفارسي [ت : ٣٧٧هـ] وأحمد بن فارس [ت : ٣٩٥هـ][٧٩] .
أما ابن الأعرابي فقد أقرّ بالتقارب وأنكر الترادف التام ، فقال : « كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد ، في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه »[٨٠] . وأما ثعلب فقد أنكر بالقول ، وأثبت بالعمل حينما سرد في مجالسه مجموعات من المترادفات ، ومنها قوله : « الزعيم والصبير والحميل والأذين والكفيل والأميل الذي لا يثبت في سرجه »[٨١] . ولم يكن إنكار ابن درستويه أشد من إنكار ثعلب ، إذ اعترف ضمناً بالترادف ، ولكنه حمله على الاختلاف اللهجي ، فقال : « محال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد ... وليس يجيء شيء من هذا الباب إلا على لغتين متباينتين »[٨٢] .

وسخر أبو علي الفارسي من ابن خالويه [ت : ٣٧٠هـ] الذي زعم أنه يحفظ للسيف خمسين اسماً . قال راوي الخبر : « كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسماً ، فتبسم أبو علي ، وقال : ما أحفظ إلا اسماً واحداً ، وهو : السيف . قال ابن خالويه : فأين المهند والصارم وكذا وكذا ؟ فقال أبو علي : هذه صفات . وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة »[٨٣] .
وكرّر ابن فارس هذا الإنكار للترادف ، وفرقَ بين معاني الصفات ، فقال : « الاسم واحد هو السيف ، وما بعده من الألقاب صفات ، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى »[٨٤] .

إن إنكار الترادف ألقى على المنكرين تبعة ثقيلة ، وهي أن يفسروا المترادفات ليحددوا ما بينها من فروق دقيقة ، حتى غدا البحث في الفروق حقلاً من حقول الدراسات اللغوية ، تؤلَّف فيه الكتب ، ويُتلَطَّف في التحليل لتصيّد الفروق بين الأشباه والنظائر . ومن أشهر الكتب في هذا الميدان الفروق لأبي هلال العسكري [ت : ٣٩٥هـ] . وفي هذا الكتاب وأمثاله يجد القارىء تمييزاً دقيقاً وتوضيحاً رهيفاً للفروق بين المعاني في كثير من الألفاظ التي

---

(٧٩) انظر فصول في فقه اللغة ، د . رمضان عبد التواب ص٣١١ .

(٨٠) الأضداد لابن الأنباري ص٧ . تح محمد أبي الفضل إبراهيم الكويت ١٩٦٠م .

(٨١) مجالس ثعلب ٧٧/١ .

(٨٢) تصحيح الفصيح لابن درستويه ١٦٥/١ تح عبد الله الجبوري بغداد ١٩٧٥م .

(٨٣) المزهر للسيوطي ٤٠٥/١ .

(٨٤) الصاحبي لابن فارس ص٩٦ .

يظنها من المترادفات : كالقيام والوقوف ، والجلوس والقعود ، والاختصار والإيجاز ، والإسهاب والإطناب[٨٥] .

ثم استمر التخالف في الترادف قروناً حتى آل الأمر إلى السيوطي ، فحاول أن يتوسط بين الإقرار والإنكار ، فقال : « إن أهل العصر الواحد إذا اختلفوا على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث »[٨٦] . ومن الذين أحدثوا القول الثالث أستاذنا محمد المبارك ، إذ قال : « إن للشيء المسمى وجوهاً وصفات كثيرة ، ويمكن أن يسمى بأكثر من صفة من صفاته ، وقد يشتق له من الألفاظ كلمات متعددة تبعاً لتلك الوجوه والصفات . ومن هنا ينشأ الترادف »[٨٧] .

وإلى جانب المبارك وقف الدكتور إبراهيم أنيس يشفع رأيه بحجة أخرى ، هي أن الترادف حقيقة ملموسة ، لكن الشعراء الذين في كل واد يهيمون يُحمِّلون المترادفات هواجس لم تكن فيها ، فتبدو المتآلفة متخالفة ، ولهذا انتقد « تحويم الشعراء والنقاد في آفاق موهومة ، يتصيدون منها ظلالاً من عواطف وأفكار ، يلصقونها بالألفاظ ليخرجوها من الترادف إلى التباين »[٨٨] . وقرر أن الترادف ظاهرة لغوية عامة ، تجدها في أكثر اللغات ، فقال : « يجمع المحدثون من علماء اللغات على إمكان وقوع الترادف في أي لغة من لغات البشر »[٨٩] .

وفي الدراسات اللسانية الحديثة ما يؤيد أو يفترض ظهور الترادف في اللغات الغربية ، غير أن دارسي هذه اللغات والناطقين بها لا يبدون أدنى اعتراض على الافتراض ، بل يجدون فيه مصدراً من مصادر الثراء والتجديد . فمتى ظهرت الكلمة المرادفة لكلمة قديمة ، ولو كانت دخيلة ، أُخِذَ بها ، ولم يُنْظَر في أصلها أهو جرماني أو لاتيني أو يوناني . وحسب الكلمة الجديدة أن توافق القديمة في المعنى لتوصف الكلمتان معاً : الأصيلة والدخيلة بالترادف Synonym[٩٠] .

ومع ذلك فقد ظهر بين اللسانيين العرب والأجانب من يسعى إلى تقييد الترادف بقيود . فمِن العرب من يميل إلى تحجير الواسع ، وإلى وضع شروط تقيد بها المترادفات ، منها

---

(٨٥) انظر الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري في مواضع متفرقة تح حسام الدين القدسي القاهرة ١٣٥٣هـ .

(٨٦) الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي ص٦٣ تح د . أحمد محمد قاسم القاهرة ١٣٩٦هـ .

(٨٧) فقه اللغة للمبارك ص١٩٩ ـــ ٢٠٠ .

(٨٨) في اللهجات العربية ، د . إبراهيم أنيس ص١٥١ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٥م .

(٨٩) المصدر السابق ص١٧٨ .

(٩٠) انظر دور الكلمة في اللغة ، أولمان ص٩٧ .

أن يصح وقوع اللفظين المترادفين في تراكيب متعددة ، وأن يتم هذا الوقوع في زمان واحد ، وفي بيئة لغوية واحدة[٩١] . ومن الأجانب من اشترط الشروط نفسها ، ورأى أنه يصعب أو يندر توافرها لسبب بسيط ، هو أن دلالات الألفاظ عرضة للتغير المستمر[٩٢] .

فما معنى التغير الدلالي للألفاظ ؟ وما أبرز عوامله ؟

٤ ـ تغيُّر الدلالات

كان لظهور الحركة الداروينية Darwinism في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي تأثير ملحوظ في العلوم الطبيعية . ثم أخذ تأثيرها يتسع حتى طغى على أكثر العلوم والمناهج وطرائق البحث والتفكير ، ومن العلوم التي امتد إليها تأثير الداروينية علمُ اللغة ومناهجه[٩٣] .

تنسب هذه الحركة إلى الباحث الإنكليزي تشارلز داروين Ch. Darwin [ت : ١٨٧٢م] صاحب كتاب أصل الأنواع الذي نشره سنة ١٨٥٧م . والأساس الذي قامت عليه هذه الحركة كما يبدو من (أصل الأنواع) هو أن التطور يطرأ طروء جبرياً على كل شيء ، وأن الكائنات الحية ترقى في أثناء هذا التطور من البسيط إلى المعقد ، ومن الضعيف إلى القوي وفق قانون (الانتقاء الطبيعي) ، وبعد مرحلة من الصراع مع عوامل البيئة المختلفة .

وهذه الآراء تركت صداها في كثير من الحركات السياسية والاجتماعية ، وفي كثير من المدارس والمذاهب الفلسفية والنفسية ، وحمل ألويتها كارل ماركس ، وبرتراند رسل ، وسيغموند فرويد ، ودركهايم وعدد من الباحثين اللغويين . وزعم اللغويون المتأثرون بها أن اللغات كلها كالكائنات الحية تتغير تغيراً مستمراً ، يشبه التغير الذي يصيب الأحياء ، إنه بطيء لكنه حتمي ، وإنه يرقى باللغات كما يرقى بالأحياء ، ولا يستطيع أحد أن يمنع شيئاً منه[٩٤] .

وحينما تعصب اللغويون المتأثرون بنظرية النشوء والارتقاء قوبلوا بمعارضين ينتقدون آراءهم المتعسفة ، ويبرهنون على أن نظرية التطور البيولوجي عاجزة عن تفسير التطور الثقافي ، وعن مواكبة اللغات ، وعن توضيح التغير الذي يصيب كل جانب من جوانبها ، ولا سيما الجانب الدلالي . وأبرز المعارضين أسكولي Ascoli الإيطالي ، و سيس Sayce و سويت Sweet

---

(٩١) انظر علم الدلالة ، د. أحمد مختار عمر ص٣٢٧ .

(٩٢) دور الكلمة في اللغة ، أولمان ص٩٧ .

(٩٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص٢١١ وما بعدها . الرياض ١٩٧٢م .

(٩٤) اللغة والتطور ، عبد الرحمن أيوب ص٣٧ معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٦٩م .

الإنكليزيان ، وجسبرسن Jespersen الدانيمركي ، وبريل Breal الفرنسي[٩٥] .

أنكر أسكولي وسيس وسويت وجسبرسن جبرية التغير في الظواهر اللغوية بصورة عامة ، ثم كان لكل واحد منهم رأي . ومن آرائهم نختار رأي بريل لاعتداله . فهو ، وإن سلم ببعض التطور الجبري ، ينكر على التطور الدلالي خضوعه للجبرية الداروينية . وترى مدرسته «أن كل التغيرات التي تحدث في مدلولات اللغة عبارة عن إصلاحات مقصودة أو شبه مقصودة ، تعتمد على جهود يقوم بها الناطقون بهذه اللغة ، وتسير بها دائماً إلى حيث الكمال ، وأن من أهم هذه الجهود ما يبذله الأدباء والكتاب في كل عصر للنهوض باللغة »[٩٦] .

ومما نفر بعض اللسانيين من جبرية الداروينية اعتقادها بأن للتطور مظهراً معيارياً، أي أن التطور يتجه دائماً نحو الأرقى ، فهو يسمو باللغة من طور منحط إلى طور رفيع . والمنهج الوصفي الذي انتهجه اللسانيون يرفض المعيارية ، ويكتفي برصد الظواهر والخصائص ، ولهذا يفضل مصطلح التغير Change على مصطلح التطور Development[٩٧] . وبصورة عامة نقول : إن اللسانيات الحديثة يضيق صدرها بالمعايير ، ولا تسمح لنفسها بأن تحكم للتغير بالتعديل أو تحكم عليه بالجرح ،وكلُّ ما يعنيها هو الاستقراء . فالتغير عندها تبدل من حال إلى حال ، لا من ضعف إلى قوة ، ولا من انحدار إلى ازدهار ، ودراسة التغير مقيدة بقيدين هما الزمان والمكان أي : دراسة التغير في بيئة جغرافية محدودة ، وفترة زمنية لها بدء ونهاية .

وإذا تعقب اللسانيون مظاهر التغير وجدوها في كل جانب من جوانب اللغة من أصواتها المفردة إلى دلالات الألفاظ . فالأصوات قد تنحرف مخارجها أو تتبدل ، والدلالات قد تتغير مع التغير الذي يطرأ على جوانب الحياة المختلفة . وربما كانت التبدلات الدلالية أوسع من سواها وأسرع لارتباطها بتطور العلوم والآداب والفنون ، ومن المعروف أن كل تبدل فكري يقتضي تبدلاً لغوياً يتيح للغة أن تحمل وتنقل الجديد من جيل إلى جيل . ولولا ذلك لقصرت اللغة عن مواكبة الحركة الثقافية ، وأصيبت بالعجز والعقم أو اضطرت إلى الاستيراد والاتكاء على المصطلحات الدخيلة .

وسواء أكان تغير الدلالات نتيجة لقوانين حتمية أو نتيجة لتطوير مقصود يصنعه

---

(٩٥) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٥٨ .

(٩٦) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٥٨ ــ ٥٩ .

(٩٧) انظر مبادىء اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص٣٢٣ .

الناطقون باللغة ليجعلوا لغتهم قادرة على موازاة الفكر ، فهو حقيقة واقعة لا ينكرها أحد .
فما أهم عوامله ، وما أبرز مظاهره ؟

آ ـ عوامل التغير الدلالي :

يجمع الباحثون العرب والأجانب على أن التغير الدلالي حقيقة واقعة لا عاصم منها ، وعلى أنه « يسير ببطء وتدرج »[98] ، وعلى أنه « إذا حدث في بيئة ما ظهر أثره عند جميع الأفراد الذين تشملهم هذه البيئة »[99] ، لأن اللغة دُولة متداولة بين الناس جميعاً ، لا نفائس محفوظة في خزائن من زجاج[100] . وهم يكادون يجمعون على طبيعة العوامل التي تشترك في صنع التغير الدلالي ، لكنهم يختلفون في تصنيفها . فمنهم من يقسمها مجموعتين : مجموعة الأسباب الداخلية ، ومجموعة الأسباب الخارجية[101] . ومنهم من يسميها عوامل ، ويقسمها إلى عوامل لغوية وعوامل تاريخية[102] . ومنهم من يفصل فيردها إلى أسباب كثيرة ، يتصل بعضها باستخدام الألفاظ ، ويتعلق بعضها بدرجة الوضوح في دلالات الألفاظ ، ويُعزى بعضها إلى تغير الأصوات والقواعد[103] . وآثرنا تقسيمها إلى عوامل لغوية ، وعوامل اجتماعية على النحو التالي :

١ ـ العوامل اللغوية : تبين لك من دراسة الجوانب اللغوية المختلفة أن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وأن هذه الأصوات تتحول بالصيغ الصرفية إلى كلمات ذوات دلالات مفردة ، وبالتركيب النحوي إلى جُمل أوسع دلالة من الألفاظ المفردة . كما تبين لك أن حياة اللغة موصولة باستعمالها وتداولها . غير أن حياة اللغة عرضة للتغير ، وأكثر عناصرها عرضة للتغير دلالاتُها . وينجم بعض التغير الدلالي عما يصيب أصوات اللغة ، أو عن تجاور بعض الألفاظ ، أو عن حركات الإعراب ، أو عن نقل اللفظ بالترجمة من لغة إلى لغة .

فإذا تغير صوت واحد من أصوات الكلمة تغير معناها . فالخضم الأكل بأقصى

---

(٩٨) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٣١٤ .

(٩٩) المصدر السابق ص٣١٧ .

(١٠٠) عوامل التطور اللغوي ، د . أحمد حماد ص١١٩ وما بعدها دار الأندلس بيروت ١٩٨٣م .

(١٠١) مبادىء اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص٣٢٥ .

(١٠٢) العلاقة بين اللغة والفكر ، د . أحمد عبد الرحمن حماد ص٦٩ .

(١٠٣) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٣١٩ .

الأضراس، أو هو خاص بأكل الشيء الرطب، والقضم الأكل بأطراف الأسنان، أو أكل الشيء اليابس(١٠٤). فإذا افترضنا أن إحدى الكلمتين أصل للأخرى، فهذا يعني أن تغير الصوت من الخاء إلى القاف أي: من الطبق إلى اللهاة غيّر معنى الكلمة، فتبدل شكل الأكل ونوع المأكول، وطريقة المضغ ووسيلته. وشبيه بذلك الغلط والغلت(١٠٥)، فالغلط الخطأ عامة، والغلت الخطأ في الحساب خاصة.

وقد تتغير الدلالة، فتفارق معناها الاشتقاقي لمجاورتها لفظاً أو ألفاظاً ذوات دلالات خاصة، فإذا قرأت الآيات الكريمة التالية ﴿فاتقوا النار﴾(١٠٦) ﴿واتقوا يوماً﴾(١٠٧)، و ﴿اتقوا ربكم﴾(١٠٨) أدركت أن الله يأمر عباده بالتوقي مما يصيبهم، وهذه هي الدلالة الاشتقاقية للتقوى، غير أنها أصبحت فيما بعد تدل على الصلاح والورع، لأن الاحتماء من هذه الأشياء يلازم الأتقياء، أي: الصالحين.

وقد ينجم التغير الدلالي عن تغير طفيف يصيب حركات الإعراب. ولو قرأت النادرة التالية أدركت أن خطأ المتهم بحركة واحدة انتزع منه البراءة. «ادعى رجل مالاً بحضرة القاضي أبي عبيد بن خربوبة، فقال المدّعَى عليه: مالُه حق عليّ، بضم اللام. فقال أبو عبيد: أتعرف الإعراب؟ فقال: نعمْ. قال: قم فقد ألزمتك المال»(١٠٩).

وربما كان العامل اللغوي دخيلاً على اللغة من لغة أخرى. فكلمة School تعني في الإنكليزية المدرسة المعروفة أي: مكان الدرس، وتعني أيضاً المذهب العقلي، والاتجاه الفكري، والمدرسة الأدبية كالواقعية والرمزية. فلما ترجمت إلى العربية ترجمة حرفية انتقلت إلينا بدلالتيها التعليمية والمذهبية، فشاعت في ألسنتنا وأقلامنا كأنها من وضع العرب(١١٠). وكلمة Analyse أو Analyze(١١١) بمعنى التحليل أو التحليل النفسي في الإنكليزية نقلت إلينا بالترجمة نقلاً حرفياً، فأصبحنا نطلقها على الشرح والتفسير، فنسمي شرح النص تحليلاً أدبياً. وأهملنا ما كان الأقدمون يستخدمون من شرح وتفسير وتأويل وتوضيح. ونسينا أو

---

(١٠٤) انظر الخصائص ٢/١٥٧.

(١٠٥) القاموس المحيط [غلط ــ غلت]. وانظر مبادىء اللسانيات، د. أحمد محمد قدور ص٣٢٦.

(١٠٦) البقرة ٢٤.

(١٠٧) البقرة ٤٨.

(١٠٨) النساء ١.

(١٠٩) مجلة المجمع العلمي بدمشق المجلد ٣٣ ص٤٥٨.

(١١٠) انظر فقه اللغة، محمد المبارك ص٢١٦.

(١١١) المورد منير البعلبكي.

كدنا ننسى أن التحليل ضد التحريم، ومعناه الإباحة، وجعل الشيء حلالاً.

٢ ـ **العوامل الاجتماعية**: نعني بهذه العوامل كل ما يؤثر في الدلالات مما لا صلة له باللغة. أي كل ما يطرأ عليها من مؤثرات خارجية سواء أكانت سياسية أم ثقافية. ونوسّع دائرتها حتى تتضمن العوامل النفسية والتاريخية، لأن هذه العوامل كلها من صنع المجتمع، أو مرتبطة بحياته وتطوره.

«إن الثورات الاجتماعية، ولا سيما الفكرية، والتطور الاجتماعي بسبب ما تؤدي إليه من تبدل الأشياء التي يراها الإنسان أو يستعملها، وتبدل المفاهيم تؤدي في غالب الأحوال إلى تطور لغوي، فتموت ألفاظ، وتحيا أخرى، وتتبدل معاني بعض الألفاظ، وهي التي كان لها معنى، واستعيرت لمعنى جديد، هو نتيجة تلك الثورة، أو ذلك التطور الفكري»[(١١٢)].

ومن أدلّ الأمثلة على ما نزعم لفظ (الصمود) المستعمل بعد نشوب الثورات الحديثة بمعنى الثبات والتحدي والصلابة في المقاومة. هذا اللفظ لم يكن معروفاً بهذا المعنى، بل لم يكن معروفاً البتة. والمعروف «الصَّمْد أي: القصد والضربُ والنصب ومنه الصَّمَدُ: السيد لأنه يُقصد»[(١١٣)]، وإلى هذا المعنى ينصرف قوله تعالى: ﴿الله الصمد﴾[(١١٤)]. أي: المقصود. فلما اشتعلت الأمة العربية حماسةً في ثوراتها الحديثة حمّلت الكلمة معنى المقاومة.

وسوف نذكر ألفاظاً أخرى من هذا النمط في الحديث عن أشكال التغيّر الدلالي.

ولمشاعر الإنسان أثرها في تغيير الدلالات، فقد تجرح الحسَّ ألفاظُ الجنس، فيستبدل بالصريح منها ألفاظاً تشير إلى الغريزة إشارة مهذبة. وهذا الاستبدال مرتبط بالعقيدة الدينية ومكارم الأخلاق. والعربيةُ من أنقى اللغات وأرقاها في مجانبة القحة والصراحة في هذا الميدان. والقرآن الكريم زاخر بالألفاظ المهذبة المعبرة عن الجنس كالملامسة، والمباشرة، والإفضاء. وفي الحديث الشريف ألفاظ أخرى تترجم عن الغرائز بمثل هذا الأدب الرفيع كالملاعبة[(١١٥)]، وذوق العُسَيْلة[(١١٦)] ... الخ وكلها من النمط الذي يلمّح ولا يوضّح، ويشير ولا يثير، لسبب

---

(١١٢) فقه اللغة، محمد المبارك ص٢١٤.

(١١٣) القاموس المحيط [صمد].

(١١٤) الإخلاص ٢.

(١١٥) جاء في باب استحباب نكاح البكر من صحيح مسلم ١٠٨٧/٢ «... فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك» تح محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٢هـ.

(١١٦) جاء في كتاب النكاح من المصدر السابق ١٠٥٦/٢ «حتى يذوق عسيلتك، وتذوقي عسيلته.»

معروف ، وهو أن الحياء شعبة من الإيمان .

ومما أصابه التغير لأسباب نفسية الألفاظ الدالة على الأذى والألم ، وكلُّ ما يتشاءم به أو منه ، ولذلك اطّرِحت هذه الألفاظ واختيرت ألفاظ أخرى فيها التفاؤل والبشرى . فقد عبر العرب بالسليم عمّن لدغته الحية تفاؤلاً بشفائه ، وكنّوا عن الأعمى بأبي بصير لعله يرتدُّ إليه بصره .

ومع ذلك تجد في بعض الأحيان تغيُّراً مضاداً لما ذكرنا . إذ نجد الناس يحمّلون الكلمة القبيحة الدلالة معنى جديداً محبّباً إليهم . ومن هذا الضرب (المشوار) . فقد اكتسبت هذه اللفظة ظلالاً شعرية في العصر الحديث لم تكن تدل عليها ، ولهذا شاعت في الغناء والمسرح ووسائل الإعلام ، وغلب عليها أنها بمعنى الشوط يجوزه العاشق أو المشوق ، أو بمعنى المرحلة الزمنية المضمخة بالعواطف . وليس في معناها المعجمي شيء من ذلك كله . فالمشوار في الأصل : « المكان يعرض فيه الدواب . ومنه : إياك والخُطب ، فإنها مشوار كثير العثار »(١١٧) .

وللتطور الحضاري أثره في تغيير معاني الألفاظ . فمتى انتقل المجتمع من البداوة إلى الحضارة احتاج إلى ألفاظ يعبر بها عن حياته الجديدة ، وما يشيع فيها من أدوات ومؤسسات . « فالنظارة في الأصل : القوم ينظرون إلى الشيء والمنظار : المرآة »(١١٨) . فلما تحضر الإنسان العربي سمى بهاتين الكلمتين آلتين تساعدانه على تقوية النظر . والسيارة في الأصل القافلة ، ثم غدت تدل على هذه الآلة الكثيرة السير . « والجامعة : الغلُّ يجمع اليدين إلى العنق ، والقدر الجامعة الكبيرة ، لأنها تجمع الكثير من الطعام »(١١٩) ، ثم أطلقها الناس على أرقى المعاهد الثقافية والعلمية . وفي حياتنا العصرية مئات الكلمات من النمط الذي تغيرت دلالاته ، وتغيُّرها السريع الطيّع دليل على حيوية العربية وتجددها المستمر .

ولعل ما أنجزته العربية في أثناء انتقالها من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن البداوة إلى الحضارة وبعد احتكاكها بالثقافات القديمة أن يكون أقوى الأدلة على ما ذهبنا إليه . فقد استطاعت العربية أن تغير دلالات آلاف الألفاظ لتستوعب الأفكار والمعاني الجديدة في ميادين العلوم : في الفقه والنحو والعروض والبلاغة والفلسفة والمنطق والفلك والرياضيات ... الخ . وظهرت كتب ضخمة ، درس فيها مؤلفوها ما أصاب دلالات الألفاظ من تغير . ومنها

---

(١١٧) القاموس المحيط [شور] .

(١١٨) القاموس المحيط [نظر] .

(١١٩) المصدر السابق [جمع] .

كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي [ت : ٣٢٢هـ] وهو كتاب نفيس وقفه مؤلفه على الألفاظ المستعملة في علوم الدين واللغة ، وفيه يقول : « هذا كتاب فيه معاني أسماء ، واشتقاقات ألفاظ ، وعبارات عن كلمات عربية ، يحتاج الفقهاء إلى معرفتها ، ولا يستغني الأدباء عنها »[١٢٠] .

ب ـــ صور التغيُّر الدلالي :

تتبع علماؤنا القدماء ما يحدث لدلالات الألفاظ من تغير ، فوجدوا أن للتغير صوراً عديدة ، أبرزها خمس ، وهي : تعميم الدلالة الخاصة ، وتخصيص الدلالة العامة ، والارتقاء باللفظة من أفق الحسّ إلى أفق التجريد ، والانتقال بها إلى ما يجاورها عن طريق المجاز المرسل ، أو نقلها من الحقيقة إلى المجاز عن طريق الاستعارة والتشبيه .

ثم أراد اللسانيون أن يضبطوا التغير الدلالي بقوانين دقيقة ، تسري أحكامها على اللغات الإنسانية عامة ، فتوصّلوا إلى ثلاثة قوانين صاغوها صياغة محكمة ، تكاد تكون معادلات رياضية ، واعتمدوا في صياغتها على مقارنة الدلالات الحديثة بالقديمة ، وذهبوا إلى أنها مطّردة الأحكام .

أولها يتعلق بتضييق المعنى القديم الواسع ، ويعادل ما ذكرناه من تخصيص العام .

وثانيها يتصل بتوسيع المعنى القديم الضيق ، ويعادل ما سميناه تعميم الخاص .

وثالثها يرصد نقل المعنى من موضع إلى موضع مجاور له بلا توسيع ولا تضييق[١٢١] .

والحق أنه ليس في هذه القواعد ما يميزها سوى الادعاء بأنها قوانين ثابتة . ونحن نؤثر ألّا نعامل الظواهر اللغوية الحية معاملة المواد الجامدة ، لأن اللغة مرآة الحياة ، والترجمان المعبر عن النشاط الفكري ، وهذا النشاط يصعب ضبطه بأحكام مسبقة .

وإلى أن تصبح القواعد اللسانية قوانين ثابتة نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقف عند الحدّ الذي وقف عنده المعتدلون ، وأن نلتزم ما التزموا فيما قسموا ورسموا ، فنعرض أشكال التغير الدلالي وفق الصور التي أشرنا إليها ، على أن نقرن ما نجده منها في لغتنا بنظائره في الإنكليزية .

---

(١٢٠) الزينة لأبي حاتم الرازي ١/٥٦ تح حسين بن فيض الله الهمذاني دار الكتاب العربي مصر ١٩٥٧م .

(١٢١) انظر دور الكلمة ، أولمان ص١٦١ وما بعدها .

١ ــ **تعميم الدلالة الخاصة** : يعلل اللسانيون تعميم الدلالة الخاصة بهرب الإنسان من التعب ، وإيثاره الراحة . ويقصد بالهرب من التعب التخفف من عبء الدقة في التعبير ، والاكتفاء بالإشارة إلى المعنى لإراحة العقل من عناء البحث عن المفردات القادرة على أن تسم كل شيء بسماته الخاصة . ومن يصغ إلى كلام العامة من الناس يجده مشتملاً على نموذجات كثيرة من هذا النمط ، كاستخدام ضمير الجمع في نحو (ذهبوا ، ورجعوا) للمثنى والجمع ، وهو للجمع خاصة .

فإذا أعرضنا عن كلام العامة ، ونظرنا في الفصيح وجدنا ظاهرة التعميم في كلمات كثيرة ، منها : (الراكب) التي كانت خاصة براكب البعير ، ثم أطلقت على من يركب كل دابة ، وكل آلة ، من الجواد إلى الطيارة . ومنها : (السُّرى) التي كانت تعني السير في الليل خاصة ، فأصبحت تستعمل للسير في كل وقت(١٢٢) .

وللوقوف على أسلوب التحول من الخصوص إلى العموم نتعقب المراحل التي اجتازتها كلمة (القوم) حتى أصبحت تدل على الأمة كلها ، بعد أن كانت تدل على الرجال وحدهم . كانت هذه الكلمة تدل على الرجال ، والدليل قوله تعالى : ﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن﴾(١٢٣) . فلو كانت النساء بعض القوم ما خصهن الله بنهي آخر ، فالقوم إذن الرجال . قال ثعلب [ت : ٢٩١هـ] : «القوم للرجال دون النساء ، ثم يخالطهم النساء . تقول : هؤلاء القوم قوم فلان ، ولا يجوز للنساء ليس فيهن رجل»(١٢٤) .

ولعلّ قصْر القوم على الرجال مرتبطٌ بالقيامة أي قيامهم بتبعات الحياة . قال تعالى : ﴿الرجال قوامون على النساء﴾(١٢٥) . «وإنما سمي الرجال دون النساء قوماً ، لأنهم يقومون في الأمور عند الشدائد»(١٢٦) .

ثم اتسعت دلالة الكلمة ، فأصبحت ترادف كلمة الشعب ، أو كلمة الأمة أو تقاربها . ولذلك نقول في العصر الحاضر : القضايا القومية ، واللغة القومية ، ونحن نريد النسبة إلى الأمة العربية قاطبة ، لا إلى قبيلة واحدة . يقال : «القوم في اللغة الجماعة من الناس ،

---

(١٢٢) انظر مبادىء اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص٣٣٤ .

(١٢٣) الحجرات ١١ .

(١٢٤) الصاحبي لابن فارس ص٣٠٥ .

(١٢٥) النساء ٣٤ .

(١٢٦) الصاحبي لابن فارس ص٣٠٥ .

تجمعهم جامعة يقومون لها ، وفي الاصطلاح : الجماعة من الناس تؤلف بينهم وحدة اللغة والتقاليد الاجتماعية ، وأصول الثقافة ، وأسباب المصالح المشتركة ، ويرادف لفظ الأمة »[١٢٧] .

وتستطيع أن تجد لتعميم الدلالة أمثلة في اللغات الأوروبية ، تقارب الأمثلة العربية . فالفعل الفرنسي Arriver كان يدل على الوصول إلى الشاطىء ، ثم صار يدل على كل وصول[١٢٨] . ولا نستبعد أن يكون الفعل الإنكليزي Arrive قد سلك المسلك نفسه استناداً إلى ما يذهب إليه اللسانيون الغربيون من حتمية التغير الدلالي وفق قوانين مطردة ، تنتظم اللغات كلها .

٢ ــ **تخصيص الدلالة العامة** : يعلل اللسانيون تخصيص العام تعليلاً يجمع بين التطور التاريخي للدلالة ، والتصور الفكري الدقيق للمعنى .

أما التطور التاريخي فمعناه عندهم أن الكلمة قد تفارق دلالتها العامة إذا انقرضت الأشياء الكثيرة التي كانت تدل عليها ، وبقي منها شيء واحد .

وأما التصوُّر الفكري الدقيق فجوهره أن التقدم العلمي ينفي عن الألفاظ الدلالات الغائمة ، ويحاول أن يخصها بأمور متفردة[١٢٩] . وللدكتور إبراهيم أنيس تعليل يوافق هذا الرأي ويسوّغه ، إذ يقول : « الناس في حياتهم العامة ينفرون عادة من تلك الكليات التي لا وجود لها إلا في الأذهان ، ويؤثرون الدلالات الخاصة التي تعيش معهم ، فيرونها ويسمعونها »[١٣٠] . والدليل على ذلك أن الإسلام خصّ كثيراً من الألفاظ الجاهلية العامة بدلالات إسلامية ، فبعد أن كان الحجّ يدل على زيارة كل مكان أصبح قاصراً على زيارة الكعبة ، وبعد أن كانت الصلاة عند الجاهليين تعني كل دعاء أصبحت تعني أداء عبادة خاصة ، فيها قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء . قال الأعشى في صفة الخمر :

وقابلها الريح في دنها ... وصلى على دنّها وارتسمْ[١٣١]

---

(١٢٧) المعجم الفلسفي ، د . جميل صليبا ٢/٢٠٥ دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٨م .

(١٢٨) انظر مبادىء اللسانيات ، د . أحمد محمد قدور ص٣٣٤ .

(١٢٩) انظر علم الدلالة ، د . أحمد مختار عمر ص٢٤٦ .

(١٣٠) دلالة الألفاظ ، د . إبراهيم أنيس ص١٥٣ .

(١٣١) ديوان الأعشى الكبير ص٣٥ تح د . محمد محمد حسين القاهرة ١٩٥٠م .

وقال تعالى : ﴿ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾[١٣٢] . فالصلاة في بيت الأعشى الدعاء، وفي الآية الكريمة الفريضة المعروفة، فاللفظة لم تفارق معنى الدعاء، ولكنها حجّرته وقصرته على شكل من أشكال الدعاء له أوقاته وحركاته وسماته التي حددها الشارع.

ومن أمثلة التخصيص في اللغات الأوروبية كلمة Poison الإنكليزية الفرنسية، ومعناها في هاتين اللغتين السمُّ أو الجرعة السامة. يقول أولمان: «إن الجرعات السامة دون غيرها هي التي استرعت الانتباه، واستأثرت به لسبب أو لآخر. وبهذا تحدد المدلول، وأصبح مقصوراً على أشياء تقلّ في عددها، عما كانت الكلمة عليه في الأصل إلى حدّ ملحوظ»[١٣٣] . «وفي الإنكليزية من هذا النحو كلمة Meat التي كانت تدل على الطعام مطلقاً، ثم غدت تدل على اللحم خاصة»[١٣٤] .

٣ ــ انتقال الدلالة بالمجاورة والسبب: قد ينقل التغير الدلالي البطيء معنى الكلمة من الدلالة على الشيء إلى الدلالة على ما يجاوره، أو ما ينجم عنه. وهذا النمط من أنماط التغير الدلالي يسميه علماء اللغة والبلاغة المجاز المرسل. فالعرب تطلق كلمة السماء ــ وأصلها السماو ــ على الشيء العالي، لأنها من السموّ أي: العلوّ. ثم صارت تسمي السحاب سماء لارتفاعه وحلوله في السماء، وصارت تسمي المطر سماءً لخروجه من السحاب، والنبات سماء لانبثاقه بالمطر من الأرض. قال معاوية بن مالك:

إذا نزل السمـــــاءُ بأرض قوم رعيناه، وإن كانـوا غضابـا[١٣٥]

قال ابن رشيق في التعليق على البيت: «أراد المطر لقربه من السماء»[١٣٦] . وقوله يفسّر الشطر الأول. أما هاء رعيناه، فيراد بها النبات، لأن النبات لا المطر هو الذي يُرعى.

ولانتقال الدلالة على جناح المجاز المرسل من موضع إلى موضع أوجه كثيرة تضاف إلى المجاورة والسبب. منها إطلاق الكل وإرادة الجزء كقوله تعالى ﴿يجعلون أصابعهم في

---

(١٣٢) النساء ٤٣.

(١٣٣) دور الكلمة، أولمان ص١٦٢.

(١٣٤) مبادىء اللسانيات، د. أحمد محمد قدور ص٣٢٢.

(١٣٥) المفضليات للمفضل الضبي ص٣٥٩ تح أحمد شاكر وعبد السلام محمد هارون دار المعارف مصر ١٩٦٣م. وانظر مقاييس اللغة لأحمد بن فارس ٣/ ٩٨.

(١٣٦) العمدة لابن رشيق ١/٢٦٦ والبيت في العمدة منسوب إلى جرير.

آذانهم﴾[١٣٧] يريد أناملهم، ومنها التعبير عن الكل بجزء منه كتسمية اللغة العربية لغة الضاد، والضاد حرف من حروفها، أو كتسمية الغزو الأوروبي للبلاد العربية والإسلامية الحروب الصليبية والصليبُ جزء من الكنيسة التي قادت هذه الحروب أو شعار لها.

وربما كان هذا النمط من التغير الدلالي هو التغير الذي قصدت إليه اللسانيات الحديثة بقانونها الثالث الذي أشرنا إليه في كلامنا على صور التغير الدلالي.

٤ ــ **الانتقال بالاستعارة والمشابهة**: قد تكون الاستعارة أقدر من المجاز المرسل على نقل الدلالة من شيء إلى آخر، لأن الاستعارة فرع من فروع التشبيه، والأشباه والنظائر تملأ حواس الإنسان، وتحيط به من كل جانب، ولهذا يستطيع أن يجري مقارنات سريعة بين المتماثلات من الأشياء، فيدل ببعضها على بعض.

وبين الألفاظ التي انتقلت دلالاتها على هذا الأساس أشياء لا تثير في القلب حسّاً، ولا ترسم في الخيال صورة. فأنت تمُرُّ بعشرات العبارات والكلمات المنقولة الدلالات على هذا النحو، فلا تأبه لما فيها من تشبيه أو استعارة، لأن إدمان استعمالها أطفأ توهجها. من ذلك على سبيل التمثيل: بطن الوادي، وصحن المسجد، وفم البئر، وأرجل المنضدة، وذراع الرافعة، وفكّا الكماشة، وأزرار المسجّل، وقميص الآلة الكاتبة، وظهر الهضبة، ورأس الجبل، وأذن الإبريق، وجناحا الطيارة، وأصابع البيانو، وأسنان المنشار، وحاجب الباب، وساعدا النظارة، وعقربا الساعة... الخ وأمثلة كثيرة يعيا بحصرها المتتبع، وخلف كل واحد منها استعارة مكنية، كما يقول أهل البيان.

وبهذه الطريقة من طرائق النقل يبتكر الأُدباء والشعراء دلالات جديدة يحملونها على ظهور الألفاظ بعد أن يحمّلوها عواطفهم وبراعتهم في التصوير. ومن أمثلة هذا النوع: الصوت المخملي، واللحن الناري، وجناح الظلام، وإشراق العاطفة، وشمس الحرية... الخ. وأحفل الكتب بهذه التحولات الفنية أساسُ البلاغة للزمخشري. فهو معجم فريد مقسوم بين معاني الكلمات الحقيقية ودلالاتها المجازية. ومن المجاز قوله في مادة خضر: «كتيبة خضراء: لخضرة الحديد. وأباد الله خضراءهم: شجرتهم التي تفرعوا منها. وشابٌّ أخضر، وفلان أخضر: كثير الخير... وأخضر البطن: ابن حائك، وأخضر النواجذ: حراث لأكله البقول. وإياكم وخضراء الدمن أي: المرأة الحسناء في منبت السوء... الخ»[١٣٨]. والزمخشري ــ كما

---

(١٣٧) البقرة ١٩.

(١٣٨) أساس البلاغة للزمخشري [خضر].

رأيت ــ لا يكتفي بتوليد الدلالة الجديدة من الاستعارة والتشبيه ، بل يولدها كذلك من الكناية . وبذلك يفتح أفقاً واسعاً أمام التجريد في اللغة .

٥ ــ **الانتقال من إطار الحسّ إلى إطار التجريد** : تستطيع أن تعد انتقال الألفاظ من إطار الحسّ إلى إطار التجريد مسلكاً لغوياً مطرداً ، تسلكه اللغات حينما يتطور الناطقون بها من البداوة إلى الحضارة ، ومن الاشتغال بالغرائز إلى الاشتغال بالعقل .

وقد سلكت العربية هذا المسلك حينما ودعت جاهليتها ، وعكفت على الكتاب والسنة تدرسهما وتفسرهما ، ثم حينما تأثرت بالثقافات الوافدة ، فترجمت فلسفة اليونان ، وأدب الفرس ، ورياضيات الهنود . لقد كانت هذه العلوم كلها في حاجة إلى أوعية لفظية ، تستوعب مفاهيمها المجردة ، فاستجابت العربية لمطلبها ، وخلعت عن ألفاظها لبوس الحسّ ، وتهيأت بالتدريج لتقبل التجريد .

ولم تكن هذه النقلة عملاً اعتباطياً ، يجري بلا قصد ، بل كانت عملاً واعياً يستند تحقيقه إلى أساسين : طبيعة العربية الاشتقاقية ، والإفادة من تحول الدلالات من الحقيقة إلى المجاز ، أي : من قدرة الذهن العربي على التصوّر والتصوير . فظهرت مئات الألفاظ ذوات الوجهين : الوجه الحسي القديم ، والوجه المجرد الجديد . ومن هذه الألفاظ : النفاق ، والوزر ، والضلال ، والشريعة ، والمنهج ، والأسلوب ، والجزالة ، والإطناب .

وحسبك أن تواكب تطور لفظ واحد أو بضعة ألفاظ لتقف على سرّ العربية الكامن في جذورها الثلاثية ، المتجلي في صيغها الاشتقاقية ، ولتدرك أنها قادرة على التجدد باستمرار . نحن نصف أسلوباً كأسلوب الحجاج بالجزالة ، ولا يخطر لنا أننا نستعير صلابة الحطب لنخلعها على تراكيب الخطب ، « فالجزل ما غلظ من الحطب ، ثم استعير ، فقيل : أجزل له في العطاء ، وفلان جزل الرأي »(١٣٩) . وننعت كلام الجاحظ بالإطناب ، ولا يخطر لنا أننا نشبه الكلام بحبال الخيام ، إن « طنب الخيام حبالها التي تشد بها ... ومن الباب قولهم : أطنب في الشيء إذا بالغ »(١٤٠) .

وليس بمستغرب أن ينسى الناطقون باللغة ما بين الدلالتين الحسية والمجردة من نسب ، لأن « كثرة استخدام الكلمة في معنى مجازي تؤدي غالباً إلى انقراض معناها الحقيقي ، وحلول هذا المعنى المجازي محلّه »(١٤١) . فقد ترمي بالنفاق المداهن الخب ، ولا تدري أنك

---

(١٣٩) المجمل لابن فارس ١٨٧/١ تح زهير عبد المحسن سلطان مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٤م .

(١٤٠) مقاييس اللغة لابن فارس ٤٢٦/٣ .

(١٤١) علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ص٢٩٤ .

تدخله في جحر الضب . وتأويل ذلك أن « النفق سرب في الأرض ، له مخلص إلى مكان . والنافقاء موضع يرققه اليربوع من جحره ، فإذا أُتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه ، فانتفق ، أي : خرج »[١٤٢] . هذا هو المعنى الحسي الذي ذكرته المعاجم . وأما المعنى المجرد الذي تأخر ظهوره عن المعنى الحسي ، فهو : « نافق في الدين : ستر كفره ، وأظهر إيمانه »[١٤٣] . ولا ريب في أن هذا المعنى المجرد أحدث عهداً ، ولكنه أشيع ذكراً ، ولذلك قيل : « ومنه اشتقاق النفاق ، لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر »[١٤٤] .

وإذا جاز لنا أن ننظر إلى هذه المسألة بمنظار المعيار ـــ وهو أمر يمتعض منه اللسانيون ـــ قلنا : إنه دليل على رقي اللغة ، وعلى رقيّ الناطقين بها . « إن دراسة الكلمة هي دراسة للعقل الذي عبر عن مكنوناته بها . ومعرفة طرق بنائها وجوازها من معنى إلى معنى هي طرقه في التفكير . وحركتها في الدلالات تعبير عن حريته »[١٤٥] . ونحن لا يخالطنا أدنى شك في أن اللغة العربية حينما استرسلت في هذا الشكل من أشكال التغير الدلالي كانت تمثل مرحلة من أرقى مراحل التفكير العربي المتحرر . « وثمة ربط بين أحوال المجتمع حضارياً ومدى غنى لغته بالمجردات ، فإنها تزداد ، وتنمو مع نماء ثقافته وتكامل أسباب التقدم الحضاري لها »[١٤٦] .

---

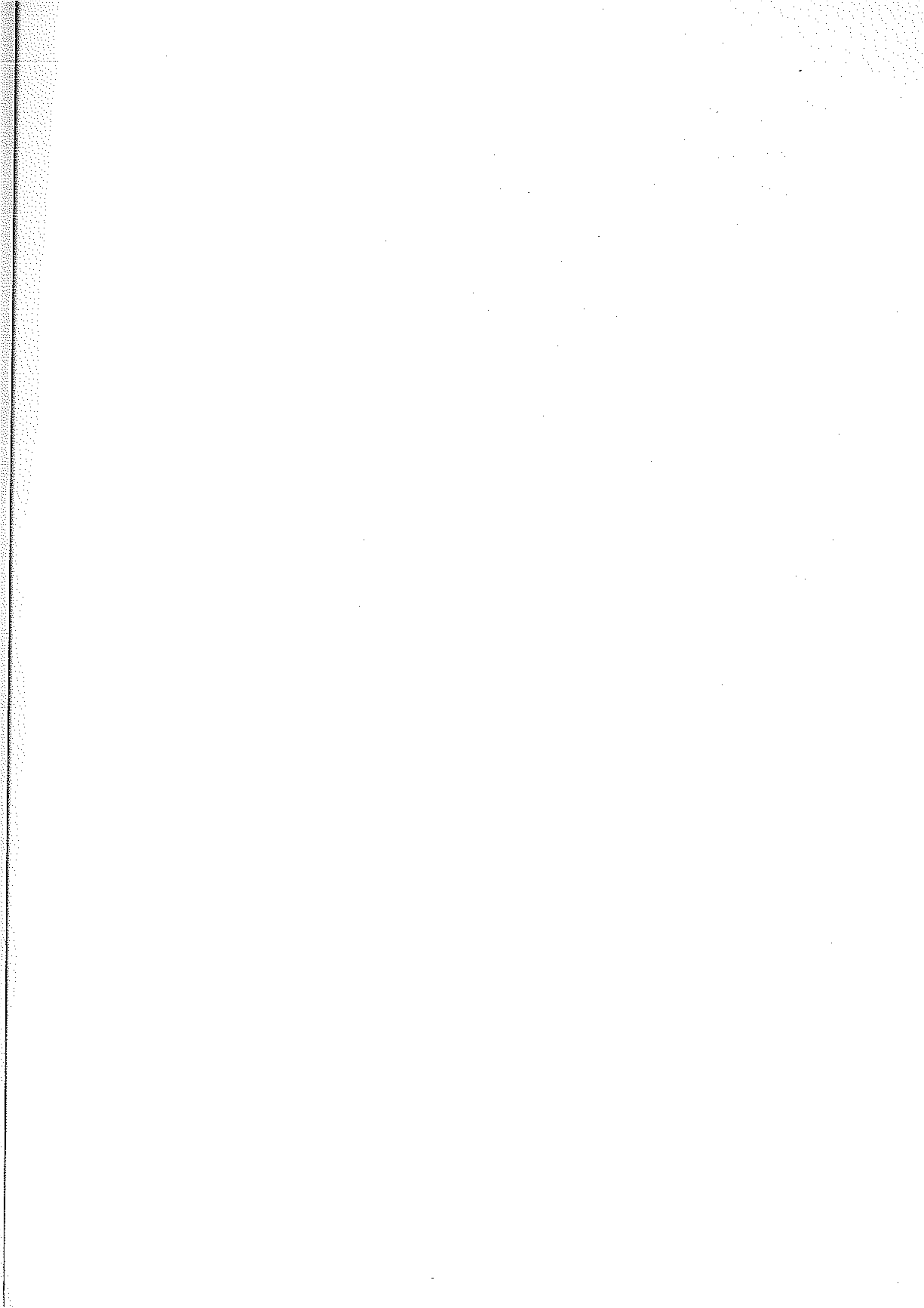
(١٤٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٥/٤٥٥ .

(١٤٣) القاموس المحيط [نفق] .

(١٤٤) مقاييس اللغة ٥/٤٥٥ .

(١٤٥) المعاني الفلسفية في لسان العرب ص٤٨ د . ميشال إسحاق مطبعة الكاتب العربي دمشق ١٩٨٤م .

(١٤٦) الجوانب الدلالية في نقد الشعر ، د . فايز الداية ص٢١٣ دار الملاح ١٩٧٨م .



مسـرد المصـادر والمراجع

آ ـــ العربية

١ ـــ **الإحكام في أصول الأحكام**، ابن حزم مطبعة الإمام.

٢ ـــ **أخبار النحويين البصريين**، أبو سعيد السيرافي المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٦م.

٣ ـــ **أساس البلاغة**، جار الله الزمخشري دار صادر بيروت.

٤ ـــ **أسباب حدوث الحروف**، ابن سينا القاهرة ١٣٥٢هـ.

٥ ـــ **أسس علم اللغة**، ماريوباي، ترجمة وتعليق د. أحمد مختار عمر عالم الكتب القاهرة ١٩٨٣م.

٦ ـــ **الأشباه والنظائر في النحو**، السيوطي، تح نبهان، وطليمات، وشريف، وعبد الله طبعة مجمع دمشق ١٩٨٦م.

٧ ـــ **أصل الأنواع**، تشارلز داروين، ترجمة إسماعيل مظهر بيروت ١٩٧٣م.

٨ ـــ **أصوات اللغة**، د. عبد الرحمن أيوب القاهرة ١٩٦٨م.

٩ ـــ **الأصوات اللغوية**، د. إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧١م.

١٠ ـــ **الأصول**، د. تمام حسان الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.

١١ ـــ **الأضداد**، أبو بكر بن الأنباري، تح محمد أبي الفضل إبراهيم الكويت ١٩٦٠م.

١٢ ـــ **الإعراب عن قواعد الإعراب**، ابن هشام الأنصاري، تح علي فوده نيل الرياض ١٩٨١.

١٣ ـــ **الاقتراح في علم أصول النحو**، السيوطي، تح د. أحمد محمد قاسم القاهرة ١٣٩٦هـ.

١٤ ـــ **أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة**، فاضل الساقي مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٧م.

١٥ ـــ **الألسنية العربية** د. ريمون طحان دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٢م.

١٦ ـــ **أمالي الزجاجي**، تح محمد عبد السلام هارون دار الجيل بيروت ١٩٨٧م.

١٧ ـــ **إنباة الرواة**، القفطي، تح محمد أبي الفضل إبراهيم دار الكتب القاهرة ١٩٥٠م.

١٨ ـــ **الإيضاح في علل النحو**، الزجاجي، تح د. مازن المبارك بيروت دار النفائس ١٩٨٢م.

١٩ ـــ **إيضاح الوقف والابتداء**، ابن الأنباري، تح محيي الدين عبد الرزاق رمضان دمشق ١٩٧١م.

٢٠ ـ **البحث اللغوي عند العرب** د . أحمد مختار عمر عالم الكتب ١٩٨٨ .
٢١ ـ **بحوث لغوية** ، د . أحمد مطلوب دار الفكر عمان ١٩٨٧م .
٢٢ ـ **البيان والتبيين** ، الجاحظ ، تح عبد السلام محد هارون دار الفكر للجميع ١٩٦٨م .
٢٣ ـ **تاريخ الحضارة الإسلامية** ، بارتولد ، ترجمة حمزة طاهر دار المعارف مصر .
٢٤ ـ **تاريخ علم اللغة** ، جورج مونان ، ترجمة بدر الدين القاسم جامعة حلب ١٩٨١م .
٢٥ ـ **تاريخ اللغات السامية** ، د . إسرائيل ولفنسون القاهرة ١٩٢٩م .
٢٦ ـ **تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه** ، د . صبري إبراهيم السيد دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٩م .
٢٧ ـ **تصحيح الفصيح** ، ابن درستويه ، تح عبد الله الجبوري بغداد ١٩٧٥م .
٢٨ ـ **التصحيف والتحريف** ، أبو أحمد العسكري مطبعة القاهرة ١٩٠٨م .
٢٩ ـ **تصريف الأسماء والأفعال** ، د . فخر الدين قباوة جامعة حلب ١٩٨١م .
٣٠ ـ **التضاد في ضوء اللغات السامية** ، د . ربحي كمال دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٥ .
٣١ ـ **التطور اللغوي التاريخي** ، د . إبراهيم السامرائي دار الأندلس بيروت ١٩٨٣م .
٣٢ ـ **التطور النحوي للغة العربية** ، برجشتراسر ، أخرجه وصححه وعلق عليه د . رمضان عبد التواب القاهرة ١٩٨٢م .
٣٣ ـ **التعريفات** ، أبو الحسن الجرجاني ، الدار التونسية للنشر ١٩٧١م .
٣٤ ـ **تفسير مجاهد** ، تح عبد الرحمن الطاهر السورتي قطر ١٣٩٦هـ .
٣٥ ـ **التفكير العلمي** ، د . فؤاد زكريا عالم المعرفة الكويت ١٩٧٨م .
٣٦ ـ **التفكير اللساني في الحضارة العربية** ، د . عبد السلام المسدى الدار العربية للكتاب تونس ١٩٨١م .
٣٧ ـ **تهذيب اللغة** ، الأزهري ، تح عبد السلام محمد هارون المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٤م .
٣٨ ـ **جامع البيان عن تأويل القرآن** ، ابن جرير الطبري دار الفكر ١٤٠٥هـ .
٣٩ ـ **الجامع لأحكام القرآن** ، القرطبي مطبعة البابي الحلبي القاهرة ١٩٥٤م .
٤٠ ـ **جمهرة لغة العرب** ، ابن دريد حيدر آباد ١٣٤٤هـ .
٤١ ـ **الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري** ، د . فايز الداية دار الملاح ١٩٧٨م .
٤٢ ـ **الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة** ، الأنصاري ، تح د . مازن المبارك دار الفكر المعاصر بيروت ١٤١١هـ .
٤٣ ـ **خزانة الأدب** ، البغدادي طبعة بولاق ١٢٩٩هـ .
٤٤ ـ **الخصائص** ، ابن جني ، تح محمد علي النجار القاهرة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦م .
٤٥ ـ **دراسات في فقه اللغة** ، د . صبحي الصالح دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٣م .
٤٦ ـ **دراسات في اللغة والنحو العربي** ، حسن عون معهد البحوث مصر ١٩٦٩م .
٤٧ ـ **الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث** ، محمد حسين آل ياسين مكتبة الحياة بيروت ١٩٨٠م .

٤٨ ــ **دراسة الصوت اللغوي**، د. أحمد مختار عمر عالم الكتب القاهرة ١٩٧٦م.

٤٩ ــ **دروس في اللغة العبرية**، د. ربحي كمال مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠م.

٥٠ ــ **دلالة الألفاظ**، د. إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣م.

٥١ ــ **دور الكلمة في اللغة**، أولمان، ترجمة د. كمال بشر القاهرة ١٩٦٢م.

٥٢ ــ **ديوان أبي الطيب المتنبي**، شرح العكبري، تح السقا والأبياري وشلبي دار المعرفة بيروت.

٥٣ ــ **ديوان أبي فراس الحمداني**، تح د. محمد ألتونجي المستشارية الثقافية الإيرانية ١٩٨٧م.

٥٤ ــ **ديوان الأعشى الكبير**، تح محمد محمد حسين القاهرة ١٩٥٠م.

٥٥ ــ **ديوان امرىء القيس**، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٦م.

٥٦ ــ **ديوان جرير**، دار صادر بيروت.

٥٧ ــ **ديوان طرفة بن العبد**، دار صادر بيروت.

٥٨ ــ **ديوان عمر أبي ريشة**، دار العودة بيروت ١٩٨١م.

٥٩ ــ **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة**، مكي بن أبي طالب، تح أحمد حسن ظاظا دار الكتب العربية دمشق ١٩٧٣م.

٦٠ ــ **الزينة**، لأبي حاتم الرازي، تح حسن بن فيض الله الهمذاني دار الكتاب العربي مصر ١٩٥٧م.

٦١ ــ **سرّ صناعة الإعراب**، ابن جني، تح السقا وزملائه القاهرة ١٩٥٤م.

٦٢ ــ **سفر التكوين** المطبعة الأمريكانية بيروت ١٩٤٨م.

٦٣ ــ **شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك**، تح محمد محيي الدين عبد الحميد بيروت دار الفكر ١٩٩١م.

٦٤ ــ **شرح المفصل**، ابن يعيش القاهرة.

٦٥ ــ الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس طبعة الشويمي، وطبعة سيد أحمد صقر القاهرة ١٩٧٧م.

٦٦ ــ **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، الجوهري، تح أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين بيروت ١٣٧٦هـ.

٦٧ ــ **صحيح البخاري**، تح د. مصطفى البغا دار ابن كثير ودار اليمامة دمشق بيروت ١٤١٤هـ.

٦٨ ــ **صحيح مسلم**، تح محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٢هـ.

٦٩ ــ **ضرائر الشعر**، القزاز، تح د. محمد زغلول سلام ود. محمد مصطفى هدارة منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩٤م.

٧٠ ــ **ضوابط المعرفة**، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني دار القلم دمشق ١٩٩٣م.

٧١ ــ **طبقات فحول الشعراء**، ابن سلام، تح محمد محمود شاكر مطبعة المدني.

٧٢ ــ **العربية الفصحى**، هنري فليش، تعريب د. عبد الصبور شاهين بيروت ١٩٨٣م.

٧٣ ــ **العربية وعلم اللغة البنيوي**، د. حلمي خليل الإسكندرية ١٩٨٨م.

٧٤ ــ **عروض الشعر العربي من المعلقات إلى شعر التفعيلة**، د. غازي مختار طليمات دار طلاس دمشق ١٩٩٤م.

٧٥ ــ **العلاقة بين اللغة والفكر** ، د. أحمد عبد الرحمن حماد دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥م.

٧٦ ــ **علم الدلالة** ، د. أحمد مختار عمر دار العروبة الكويت ١٩٨٢م.

٧٧ ــ **علم اللغة مقدمة للقارىء العربي** ، د. محمود السعران دار النهضة العربية بيروت.

٧٨ ــ **علم اللغة** ، د. علي عبد الواحد وافي دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ١٩٨٤م.

٧٩ ــ **علم اللغة الاجتماعي** ، د. هدسون ، ترجمة د. محمود عياد عالم الكتب القاهرة ١٩٩٠م.

٨٠ ــ **علم اللغة الاجتماعي المدخل** ، د. كمال بشر دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٥م.

٨١ ــ **علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة** ، د. محمود فهمي حجازي الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠م.

٨٢ ــ **علم اللغة العام** ، د. كمال بشر القاهرة ١٩٧٠م.

٨٣ ــ **علم اللغة في القرن العشرين** ، جورج مونان ، ترجمة نجيب غزاوي دمشق ١٩٨٢م.

٨٤ ــ **علم اللغة النفسي** ، د. عبد المجيد سيد أحمد منصور الرياض ١٤٠٢هـ.

٨٥ ــ **علم اللغة وفقه اللغة** ، تحديد وتوضيح د. عبد العزيز مطر قطر ١٩٨٥م.

٨٦ ــ **العمدة** ، لابن رشيق القيرواني ، تح محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة مصر ١٩٦٣م.

٨٧ ــ **عوامل التطور اللغوي** ، د. أحمد حماد دار الأندلس بيروت ١٩٨٣م.

٨٨ ــ **العين** ، الخليل بن أحمد ، تح عبد الله درويش بغداد ١٩٦٧م.

٨٩ ــ **عيون الأخبار** ، ابن قتيبة (مصورة عن طبعة دار الكتب) دار الكتاب العربي بيروت.

٩٠ ــ **الفروق اللغوية** ، أبو هلال العسكري ، تح حسام الدين القدسي القاهرة ١٣٥٣هـ.

٩١ ــ **فصول في علم اللغة** ، فردينان دو سوسير ، ترجمة د. أحمد نعيم الكراعين دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥م.

٩٢ ــ **فصول في فقه العربية** ، د. رمضان عبد التواب مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٠م.

٩٣ ــ **فصيح ثعلب** ، تح محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة التوحيد القاهرة ١٩٤٩م.

٩٤ ــ **فقه اللغة** ، د. صبحي الصالح دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٠م.

٩٥ ــ **فقه اللغة** ، د. علي عبد الواحد وافي دار نهضة مصر القاهرة.

٩٦ ــ **فقه اللغة وخصائص العربية** ، محمد المبارك دار الفكر بيروت.

٩٧ ــ **الفلسفة** ، محمد عباس نور الدين دار الفكر دمشق.

٩٨ ــ **من تجويد العربية** ، د. مازن المبارك دمشق ١٩٨٤م.

٩٩ ــ **الفهرست** ، ابن النديم ، تح رضا تجدد دانشكاه طهران ١٩٧١م.

١٠٠ ــ **في أصول النحو** ، سعيد الأفغاني المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٧م.

١٠١ ــ **في علم اللغة العام** ، د. عبد الصبور شاهين القاهرة ١٩٧٤م.

١٠٢ ــ **في فلسفة اللغة** ، د. كمال يوسف الحاج دار النهار بيروت ١٩٦٧م.

١٠٣ ــ **في اللهجات العربية** ، د . إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٥م .
١٠٤ ــ **القاموس المحيط** ، الفيروزابادي .
١٠٥ ــ **قصة الحضارة** ، ول ديورانت ، ترجمة زكي نجيب محمود جامعة الدول العربية ودار الجيل بيروت ١٩٧١م .
١٠٦ ــ **الكتاب** ، سيبويه ، طبعة بولاق ١٣١٦هـ .
١٠٧ ــ **اللباب في علل البناء والإعراب** ، العكبري ، تح د . غازي مختار طليمات ، د . عبد الإله نبهان دار الفكر دمشق ١٩٩٥م .
١٠٨ ــ **لسان العرب** ، ابن منظور دار صادر بيروت .
١٠٩ ــ **اللسان والإنسان** ، د . حسن ظاظا دار المعارف القاهرة ١٩٧١م .
١١٠ ــ **اللسانيات وأسسها المعرفية** ، د . عبد السلام المسدي الدار التونسية للنشر ١٩٨٦م .
١١١ ــ **اللسانيات واللغة العربية** ، د . عبد القادر الفاسي الفهري دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٥م .
١١٢ ــ **اللغات السامية** ، تيودور نولدكه ، ترجمة د . رمضان عبد التواب القاهرة ١٩٦٣م .
١١٣ ــ **اللغة** ، فندريس ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، ود . محمد القصاص القاهرة ١٩٥٠م .
١١٤ ــ **اللغة بين المعيارية والوصفية** ، د . تمام حسان القاهرة ١٩٥٨م .
١١٥ ــ **اللغة العربية معناها ومبناها** ، د . تمام حسان الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م .
١١٦ ــ **اللغة والتطور** ، عبد الرحمن أيوب معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٦٩م .
١١٧ ــ اللغة والمجتمع ، ثريا عبد الله دار المعارف .
١١٨ ــ **اللغة والمجتمع** ، د . أحمد ماهر البقري الإسكندرية ١٩٨٤م .
١١٩ ــ **اللغة والمجتمع** ، د . علي عبد الواحد وافي دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٤٦م .
١٢٠ ــ **مباحث في علم المعاني** ، محمد طاهر الحمصي جامعة البعث حمص ١٩٩٢م .
١٢١ ــ **المباحث المرضية** ، ابن هشام الأنصاري ، تح د . مازن المبارك دار ابن كثير دمشق ١٩٨٧م .
١٢٢ ــ **مبادىء علم الأصوات العام** ، ديفيد ابركرومبي ، ترجمة وتعلىق د . محمدفتيحالقاهرة ١٩٨٨م .
١٢٣ ــ **مبادىء علم اللسانيات الحديث** ، د . سامي عياد حنا ود . شرف الدين الراجحي دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٩١م .
١٢٤ ــ **مبادىء اللسانيات** ، أحمد محمد قدور دار الفكر دمشق وبيروت ١٩٩٦م .
١٢٥ ــ **مبادىء اللسانيات العامة** ، أندريه مارتينيه ، ترجمة أحمد الحمو وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٨٥م .
١٢٦ ــ **مجالس العلماء** ، الزجاجي ، تح عبد السلام محمد هارون الكويت ١٩٦٢م .
١٢٧ ــ **مجلة الفكر العربي** ، طرابلس عام ١٩٧٩م .
١٢٨ ــ **مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي** .
١٢٩ ــ **مجلة المجمع العلمي بدمشق** المجلد ٣٣ .
١٣٠ ــ **مجلة معهد المخطوطات العربية** المجلد ٢٥ .

١٣١ ــ **مجمل اللغة**، ابن فارس، تح زهير عبد المحسن سلطان مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٤م.

١٣٢ ــ **محاضرات في الألسنية العامة**، دو سوسير، ترجمة يوسف غازي، ومجيد النصر دار نعمان للثقافة لبنان ١٩٨٤م.

١٣٣ ــ **المحصول في علم أصول الفقه**، الفخر الرازي، تح د. طه جابر فياض العلواني الرياض ١٣٩٩هـ.

١٣٤ ــ **المحكم في نقط المصحف**، أبو عمرو الداني، تح د. عزة حسن دمشق ١٩٦٠م.

١٣٥ ــ **مختار الصحاح**، الرازي مكتبة لبنان ١٩٨٨م.

١٣٦ ــ **المدارس النحوية**، د. شوقي ضيف دار المعارف مصر ١٩٧٢م.

١٣٧ ــ **مدخل إلى الألسنية**، يوسف غازي منشورات العالم العربي الجامعية دمشق ١٩٨٥م.

١٣٨ ــ **مدخل إلى الألسنية**، بول فابر كريستيان بايلون، ترجمة طلال وهبة بيروت ١٩٩٢م.

١٣٩ ــ **مدخل إلى علم اللغة**، د. محمود فهمي حجازي دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة ١٤٠٩هـ.

١٤٠ ــ **مدخل إلى علم اللغة**، د. محمد حسن عبد العزيز دار الكتب القاهرة ١٩٨٣م.

١٤١ ــ **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي**، د. رمضان عبد التواب مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٥م.

١٤٢ ــ **مدخل إلى اللسانيات**، رونالد إيليوار، ترجمة بدر الدين القاسم وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٨٠م.

١٤٣ ــ **مدرسة الكوفة**، د. مهدي المخزومي القاهرة ١٩٥٨م.

١٤٤ ــ **مراتب النحويين**، أبو الطيب اللغوي، تح محمد أبي الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٥٥م.

١٤٥ ــ **المرتجل**، ابن الخشاب، تح علي حيدر دمشق ١٩٧٢م.

١٤٦ ــ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، المسعودي دار الأندلس بيروت.

١٤٧ ــ **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، السيوطي، تح محمد أبي الفضل إبراهيم وزملائه القاهرة ١٩٥٨م.

١٤٨ ــ **المسار الجديد في علم اللغة العام**، د. وليد محمد مراد دمشق ١٩٨٦م.

١٤٩ ــ **مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية**، د. هاشم الطعان العراق ١٩٧٨م.

١٥٠ ــ **المستشرقون**، نجيب العقيقي دار المعارف مصر ١٩٨٠م.

١٥١ ــ **معالم اللهجات العربية**، د. عبد الحميد محمد أبو سكين القاهرة ١٩٧٨م.

١٥٢ ــ **المعاني الفلسفية في لسان العرب**، د. ميشال إسحاق مطبعة الكاتب العربي دمشق ١٩٨٤م.

١٥٣ ــ **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي مطبعة البابي الحلبي القاهرة ١٩٣٦م.

١٥٤ ــ **معجم علم اللغة النظري**، محمد علي الخولي مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٢م.

١٥٥ ــ **المعجم الفلسفي**، د. جميل صليبا دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٨م.

١٥٦ ــ **معجم مقاييس اللغة**، ابن فارس، تح عبد السلام محمد هارون القاهرة ١٣٨٩هـ.

١٥٧ ــ **المعرّب**، أبو منصور الجواليقي، تح د. ف عبد الرحيم دار القلم دمشق ١٩٩٠م.

١٥٨ ـ **مغني اللبيب**، ابن هشام الأنصاري، تح د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ومراجعة سعيد الأفغاني بيروت ١٩٧٩م.
١٥٩ ـ **المفضليات**، المفضل الضبي، تح أحمد شاكر وعبد السلام محمد هارون دار المعارف مصر ١٩٦٣م.
١٦٠ ـ **المقتضب**، المبرد، تح محمد عبد الخالق عضيمة القاهرة ١٩٦٣م.
١٦١ ـ **مقدمة ابن خلدون** القاهرة ١٩٣٠م.
١٦٢ ـ **مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة**، ر. بيلز، هـ. هويجر، ترجمة محمد الجوهري ود. السيد محمد الحسيني دار نهضة مصر ١٩٦٧م.
١٦٣ ـ **مقدمة لدرس لغة العرب**، عبد الله العلايلي المطبعة العصرية مصر.
١٦٤ ـ **الممتع**، ابن عصفور، تح د. فخر الدين قباوة دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٩م.
١٦٥ ـ **مناهج الأصوليين في طرق ودلالات الألفاظ على الأحكام**، د. خليفة بابكر الحسن مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨٩م.
١٦٦ ـ **مناهج البحث في اللغة**، د. تمام حسان القاهرة دار الكتب ١٩٥٥م.
١٦٧ ـ **المنصف**، ابن جني، تح إبراهيم مصطفى مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٠م.
١٦٨ ـ **المنطق الصوري تاريخه ومسائله ونقده**، د. رفقي زاهر دار المطبوعات الدولية مصر ١٤٠٠هـ.
١٦٩ ـ **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، حازم القرطاجني، تح محمد الحبيب بن الخوجة تونس ١٩٦٦م.
١٧٠ ـ **منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث**، د. علي زوين وزارة الثقافة العراقية بغداد ١٩٨٦م.
١٧١ ـ **المورد**، منير البعلبكي دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٩م.
١٧٢ ـ **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، الرياض ١٩٧٢م.
١٧٣ ـ **النحو العربي والدرس الحديث**، د. عبده الراجحي دار النهضة بيروت ١٩٧٩م.
١٧٤ ـ **نظرية تشومسكي اللغوية**، جون ليونز، ترجمة حلمي خليل دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥م.
١٧٥ ـ **نظرية لغوية في الترجمة**، ج. س. كاتفورد، ترجمة خليفة العزابي ومحيي الدين حميدي معهد الإنماء العربي بيروت ١٩٩١م.
١٧٦ ـ **نكتة الإعراب**، ابن هشام الأنصاري، تح د. غازي مختار طليمات دار طلاس دمشق ١٩٩٦م.
١٧٧ ـ **نهاية السول في شرح منهاج الأصول**، عبد الرحيم بن الحسين الأسنوي طبعة صبيح.
١٧٨ ـ **النهاية في غريب الحديث**، ابن الأثير، تح الزاوي والطناحي القاهرة ١٩٦٣م.
١٧٩ ـ **نهج الإسلام** (مجلة تصدر في دمشق) العدد ١٣ حزيران ١٩٨٣م.
١٨٠ ـ **الوجيز في قصة اللغة**، محمد الأنطاكي دار الشروق بيروت ١٩٦٩م.
١٨١ ـ **الوجيز في قصة الحضارة**، أوجزه د. غازي مختار طليمات دار طلاس دمشق ١٩٩٢م.
١٨٢ ـ **وفيات الأعيان**، ابن خلكان، تح د. إحسان عباس بيروت ١٩٦٨م.

ب ـــ الإنكليزية

183 - A Comprehensive English Grammar C. E. Eckersley and J. M. Eckersley Oxford Press 1980.

184 - A Reference Guide to English Alice Maclin USIA Edition First Published 1994.

185 - Britannica Chicago.

186 - Encyclopedia Americana Copyright 1991.

187 - Funk and Wagnalls Encyclopedia.

188 - Grolier International Encyclopedia U. S. A. 1994.

189 - Language Leonard Bloomfield First Published in Great Britain 1935.

190 - Lectures on the Comparative Grammar of the Semetic Languages W. Wright Cambridge 1890.

191 - Merk Manual Harison Edition 11.

192 - New Standard Encyclopedia.

193 - Practical English Grammar A. J. Thomson and A. V. Martinet Oxford University Press.

194 - Psycholinguistics James Deese Fourth Printing 1971.

195 - The Guide to English Grammar Dar Al Hilal Beirut 1986.

الفهـرس

في علم اللغة/غازي مختار طليمات. ـ دمشق: دار طلاس، ١٩٩٧. ـ
٢٥٢ص؛ ٢٤سم.

١ ـ ٤٠١ ط ل ي ف ٢ ـ العنوان ٣ ـ طليمات

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ١٩٩٧/٧/١١١٨ رقم الإصدار ٧٥٢

رقم: ٤٠٥٠٥
تاريخ: ١٩٩٧/٨/٣